دار الآداب
حنان الشيخ
رواية
عذارى لندنستان

عذارى لندنستان

حنان الشيخ

عذارى لندنستان

روايه

دار الآداب ـ بيروت

تجلسان في المساء في حديقة الفندق بدلاً من مواجهة البحر.

بعد كرع كأسين من النبيذ الأحمر، تلتفت إيڤون إلى هدى وتسألها إن كانت قد استمتعتْ بهذا النهار! لم تنتظر إجابة صديقتها لها بل أخرجت من صدرها تنهيدة عميقة:

«البحر جعلني أتذكّر، لا لم أتذكّر، لأنّني لم أنسَ، البحر وضعني في مواجهة عائلتي ولبنان كلِّه من جديد، وجعلني أدرك ولأوّل مرَّة، كيف أنّها ذكريات تنغّص عليَّ عيشتي».

«وأنا أيضًا، وأنا أيضًا!».

«لا، أنتِ»؟

«طيّب، طيّب، دعينا ننسَ! الأفضل لنا أن ننسى، تمامًا كالمثل القائل (حدِّث البحر ولا تسأل)».

«لكنّنا كنّا في أشدِّ الحماس لهذه الإجازة! هل معقول أنّنا عندما وصلنا البارحة أخذنا نرقص فرحًا لرؤية البحر، والآن نتجنّبه ونتجنّب الحديث عنه وكأنّ مياهه تحمل لنا الطاعون!».

«قلت لك خلّينا ننسَ! أنا متوتّرة جدًّا، يخالجني شعور بأنّ روبرتو لن يأتي هذا المساء، كما وعد!».

«أنا التي يجب أن تتحسَّب من أنّ لوتشو قد اختفى من حياتي، فقد وعدني بأن يمرَّ على الفندق وهو يمازحني ويضحك!».

«لا أدري لماذا مواعيد الليل مليئة بالترقّب والخوف من أنّها لن تتحقّق، على عكس مواعيد النهار!».

«على كلٍّ لا تخافي، لن أتركك وحدك في الفندق إذا لم يفِ لوتشو بوعده».

«وأنتِ أيضًا، لا تخافي».

كانت السماء مرتعًا لطيور السنونو التي بدت وكأنّها مجموعة من الأولاد الصغار، يقفزون ويلعبون قبل أن تدعوهم أمّهاتهم ليعودوا إلى داخل البيت استعدادًا للنوم.

لوتشو فاجأ كلتيهما. صاحتا معًا من الفرح: «لوتشو، لوتشو»، وكأنّه شرطي خلّصهما من عصابة أشرار وأطلق سراحهما.

صرخة إيقون باسم لوتشو كأنّها تقول (يا عالم، انظروا، أنا أنثى مرغوبة، أنا امرأة جميلة وإن كنت أكبرُه ببضع سنين). وترديد هدى لاسم لوتشو معناه أنّ إجازتها مع صديقتها ستكون على ما يُرام. ولكن توقّف سيل تفاؤل هدى، فالحظّ لا يبتسم على التوالي، هو بحاجة لأن يريح تعابير وجهه، لذلك فإنّ

روبرتو لن يمرّ عليها، ثم لتهتف الصديقتان بعد لحظات: «روبرتو».

سارت إيڤون مع لوتشو، لا ترى شيئًا ولا تسمع شيئًا، ينهشها القلق بأنّ الأمور قد لا تسير بينهما كما تشتهي. تحاول جاهدةً علَّها تستطيع التحلّي بالمرح واللامبالاة وإقناع نفسها بأنّه لن يختفي قبل أن يغازلها! بأنّها ستعجبه.

«هل نذهب إلى مطعم! ستكون ضيفي!».

سرعان ما شعرتْ بالخجل من رواسب الماضي، وكيفيّة معاملتها للرجال. إنّها تحاول شراءهم بالولائم والدعوة إلى المطاعم.

«هل أنتِ جائعة؟».

أخذها إلى مطعم تكاد مياه البحر حوله تلامس حذاءها. تبتسم له ابتسامة عريضة تشجّعه بها، وهما يتفحّصان لائحة الطعام، أن يطلب مثلها. ويتردّد في طلب كأس من النبيذ لنفسه، إلى أن سمعها تطلب زجاجة كاملة؛ لقد تربَّت على مقولة (الطريق إلى قلب الرجل تمرّ من معدته)، أمّا النبيذ فله وظيفة أخرى؛ تريده أن يسبح في رأسه.

تلاحظ كيف يتروّى في تناوله للطعام والشراب على عكس أفراد عائلتها الذين كانوا، كلّما دعتهم إلى مطعم أثناء زيارتها إلى لبنان، يلتهمون كلّ ما هو أمامهم على المائدة تاركين الأطباق ناصعة البياض كما تفعل القطط والكلاب. وكانوا يختارون أشهر

وأغلى المطاعم، حتى اكتشفت أنّ الأمثلة القائلة بأنّ (السخاء يثمر الصفاء)، و(أطعم الفم، تستحي العين) ما هي إلّا أكذوبة كبيرة.

أخذ النبيذ يتحوَّل شيئًا فشيئًا إلى حُقن من البوتوكس وعمليّات تجميل أُجريت عليها للتوّ. تَعزّز شعورها بأنّها جميلة ومشتهاة، خاصّة وأنّ لوتشو راح يُكمل ما كان قد بدأه معها هذا النهار في حضن البحر وعلى شاطئه؛ وهو يغازلها الآن بكلّ جرأة، غير مبالٍ بمن حولهما في المطعم. وما إن أتت الفاتورة ومدَّ يده إلى جيبه ليشاركها بالدفع، تمنّت لو أنّها تردعه لا بالقول فقط، بل بمدِّ يدها هي إلى جيبه حتى تشعر بحرارة جسمه. سارعت بأخذ الفاتورة ودفعت هي الحساب. وما إن أصبحا خارج المطعم، حتى اقترح أن يأخذها إلى أعلى نقطة في البلدة من أجل أن ترى (منظرًا لا مثيل له). فَرِح قلبها؛ هل من المعقول أنّه ما زال على وجه هذه الأرض رجلٌ حالم رومانسي مثله؟! ربّما بات عليها أن تنتقل إلى إيطاليا؛ إمّا أن تبيع شركتها أو تفتح فرعًا لها هنا وتعيش معه.

سار بها في طرق وأزقَّة يفوح من حدائقها عطر الياسمين والعويشقة. وكلّما رأت بيتًا جميلاً تخيَّلت نفسها داخله مع لوتشو. ولم يكن الخوف من اختفائه من حياتها بعد انتهاء إجازتهما هو الذي أخذ يسبّب لها القلق، بل كيف ستجرؤ على إدخاله إلى غرفتها هذه الليلة أمام أعين الجميع. وعندما مضى على سيرهما زهاءُ ثلث ساعة، أخذت تشعر بالاضطراب؛ لعلَّهُ

غيَّر رأيه فيها! إذ كيف يستطيع أن يتحلّى بكلّ هذا الصبر قبل الاختلاء بها!

(إنّه يدرس الطبّ ويحاول تطبيق ما تعلّمه عن عمليّة هضم الطعام قبل المضاجعة)، تحدِّث نفسها وتأمرها بالصبر.

وصلا إلى قلعة البلدة الأثريّة بأنوارها وكأنّها نجمة كبيرة؛ صعدا درجًا في قلب غابة صغيرة تعبق برائحة أشجار الصنوبر والكينا النفّاذة لتعشّش في رأسها كالمخدِّر اللذيذ.

صندوق كبير يستوي بين أغصان شجرة جمّيز؛ تلتقط إيڤون صورة لهذا الصندوق الذي أثار مخيّلتها، لتستعملها في واحدة من دعاياتها التجاريّة.

«إيڤون: استعدّي لتأخذي صورة أجمل!».

كوَّر شفتيه وأخذ يصفّر، فإذا بحمامة تخرج من الصندوق وتقف على بابه وكأنّها تستطلع الخبر.

صفَّر مرّة أخرى لتخرج حمامة ثانية وثالثة ورابعة، حتى ازدحم سطح الصندوق بالحمام يتقافز فوقه وعلى جانبيْه هادلاً ومتأمّلاً لوتشو وإيڤون وكلّه فضول لمعرفة ما يريده هذان الزائران!

لم تتوقّف إيڤون عن التكتكة والتقاط الصور من كاميرا جوّالها.

«لمن بيوت الحمام هذه؟».

«ليست لي طبعًا!» ويسرع ليسندها إلى شجرة، ويقبِّلها على

شفتيها ورقبتها وشعرها بكلّ شهوة؛ تبادله القبلات بطريقة تحاول بها أن تخفّف من سرعته، فهي تحبّ التروّي؛ تحبّ للقبلة أن تتنفّس داخلها بكلّ هدوء إلى أن تسري سخونتها في أنحاء جسدها كلّه. وعندما لم تنجح معه، فكّرت في الاستسلام؛ ليفعل ما يريد؛ فالليل أمامهما طويل، وسوف تستمهله حين تضمّهما جدرانُ غرفتها. لكن، وما إن امتدَّت يده تحت فستانها، وراحت يدُه الأخرى تُخرج عضوه، تمامًا كما نجح بتصفيره في إخراج الحمامة الأولى من بيتها، حتى همست له: «دعنا نذهب إلى غرفتي».

«si si» يجيبها، لكنّه كان قد أوشك على الدخول، ففعل. تحاول أن تحافظ على توازنها خوفًا من أن تنزلق قدمها؛ وحين سمَّرت نفسها تمامًا بجذع الشجرة، أخذت هذه تنخس لها ظهرها وتنهشه، ولوتشو يواصل شغله وكأنّه يدقّ مسمارًا بها، رغم تململها؛ يتوقّف فجأة هامسًا لها:

«إيڤون، تعالي، أنا جئت، أنا جئت».

تظاهرت بأنّها تأتي بلذّتها هي الأخرى، تشدّه إليها، طمعًا في أن تحمل، تريد أن تكسب منه شيئًا؛ ولكن هل من المعقول أن يتمّ تلقيحها وقوفًا!

تمنَّت لو أنّه كرجال العرب الذين لا يخطر على بالهم أن يستفهموا حين يضاجعون المرأة إن كان عليهم الانسحاب منها قبيل اللحظة الأخيرة إيّاها؛ إنّهم لا يسألون، فهم يعرفون أنّ مسؤوليّة وتبعات حملها تقع على عاتقها. لكنّه لم يكن مثل رجال

العرب؛ انسحب لوتشو في اللحظة الأخيرة وأتى بلذّته على فخذها. أوشكت أن تبعده عنها بكلّ ما لديها من عزم، فيتدحرج من على الربوة إلى البلدة، لكنّها التزمت بعهدها على نفسها في هذه الإجازة بأنّها ستكون طيِّعة مع الرجال إلى آخر المشوار؛ تؤمن بأنّ المرأة ظلّ الرجل، تتبعه ولا تقوده. (هل تُراهُ لوَّث فستاني الجميل؟).

أخذت ترتعش وهي مغمضة العينين؛ تتظاهر بأنّ اللذّة أفقدتها القدرة على الكلام. تُمسك بيده تقبّلها وتتنهّد تنهيدة طويلة، ولم تترك يده وهما يغادران الغابة. لا بدَّ أنّ الحمام كان الشاهد الوحيد على خيبة أملها. عندما وصلا إلى الصخب والضوضاء، تتوقّف عند حانة وتبدي رغبتها في الدخول. تحمَّس هو الآخر، وشربا المارتيني والسينزانو.

ومع المزيد من المارتيني والسينزانو، مزيد من العناق والهمسات والسعادة. شقّا البلدة والصخب إلى أن وصلا إلى فندقها. تمالكت شجاعتها وارتمت عليه قبل أن يدخلا ليقبّلها طويلاً.

«ما هذه القبلة التاريخيّة بين لبنان وإيطاليا!»، تقول له ضاحكة وهي تخطو نحو باب الفندق بينما ظلّ هو في مكانه. «لا تخف، لن يعترض طريقنا أحد».

يقترب ويقبّلها قبلة خاطفة على وجنتها هذه المرة:

«عليَّ أن ألحق بأصدقائي، فنحن سنعود إلى روما فجر الغد»؛

يمدّ يده إلى جيب قميصه ويخرج بطاقة: «هذا هو إيميلي، دعينا نتواصل! لقد سعدتُ كثيرًا بالتعرّف عليكِ وأتمنّى أن أزوركِ في لندن يومًا ما».

«ظننتُ أنّك ستبقى حتى يوم الأحد؛ ثلاثة أيّام».

«لا، لا، سنعود إلى روما... تشاو إيڤون، تشاو».

وما إن قبّلها من جديد على وجنتيها حتى انقضّت على شفتيه تريد شلّ حركته وأسره، لكنّه فكّ نفسه من قيودها بخفّة حركته المعهودة:

«باي إيڤون الشهيّة، تشاوْ» وأدار لها ظهره واختفى.

«لوتشو، تشاوْ يا عكروت، يا شرموط». دخلت الفندق، طلبت مفتاح غرفتها وما إن رانت منها نظرة إلى المفتاح في يدها حتى شعرت برغبة جامحة في القفز من نفسها ومغادرتها. أسرعت راكضة إلى الخارج تودّ اللحاق به، لكنّها أوقفت نفسها. (لوتشو يشبه مفتاح غرفتي في هذا الفندق، ما إن أسلّمه عند مغادرتي حتى يصبح ملكًا لغيري). (لوتشو هذا موجة بحر تسابق نفسها لتلامس شاطئ البحر، ثم تعود هاربةً منه بعد أن يجفّ جزء منها ويختلط بالتراب والحصى، ليستقبل الشاطئ موجة أخرى وأخرى؛ على كلّ، من يدري، فلربّما ينتج عن هذا اللقاء العابر علاقة متينة، وربّما حملتُ منه!)، ثم قالت بصوت أسمعته لهدى عندما عادت من موعدها مع روبرتو، «بالقليلة تصرّفت معه كما تتصرّف الأنثى؛ لم أرفسه ولم أسدّد له لكمة تكسر له أسنانه».

لكنّ لوتشو هو الذي قام بدحرجتها من قمّة الجبل إلى قاع الوادي، بينما كانت في طريق التماثل للشفاء من الضيق الذي كان يخنقها كلّما خطر ببالها ما حدث. وكانت قد أجبرت نفسها على الذهاب إلى الشاطئ إيّاه صباح اليوم التالي، إلى الصخور التي شهدت على مرحها وسعادتها، وكلّما انقبض صدرها طلبت من البحر مواساته لها، لتأخذ المياه تهدهدها وتلاعبها وكأنّها طفلة، تلجم عنها الحقد والغضب ولكن ليضيع بعد ذلك مجهود البحر سُدىً، وكذلك كلمات هدى ومحاولتها التخفيف عن صديقتها ريثما تصل إلى لندن، وتتحوّل هذه الرحلة إلى هبَّة ريح حملت ورقة شجرة عاليًا ثم أسقطتها على الأرض، محدثة رضوضًا يسهل الشفاء منها. غير أنّ هبّة الريح هذه تتحوّل إلى عاصفة هوجاء بعد مضيِّ يومين على تلك الليلة المشؤومة، حين اصطحبتها هدى وروبرتو إلى مطعم على شاطئ يصله الزبائن بمركب. وما إن دخل ثلاثتهم بين ضجيج الناس والموسيقى الصاخبة، وبين الراقصين والجالسين حول الطاولات ورذاذ الشمبانيا التي أخذ الراقصون يدلقونها على أنفسهم وعلى غيرهم، حتى وقع نظرها فجأة على لوتشو، وقد رمى نفسه على صدر شابّة أحاطته بذراعيها وشفتيها وفخذيها وساقيها. أعينهما الأربع تتبادلان الحبّ.

«إنّه لوتشو» تتمتم إيڤون وتتسمّر في أرضها رغم أن كلّ ما حولها أخذ يدور بسرعة هائلة.

«شوفوا يا عالم شوفوا العاهر! قال مسافر قال!».

ولم تصحَ على نفسها إلّا حين أصبحت خارج المطعم تتّكئ على هدى وروبرتو، وقد جفَّ ريق حلقها.

«الله ينشِّف ريقه حتى يطُقّ ويموت. أكل وشرب وبالَ عليّ مثل الكلب وهرب».

«زعلانه عن جدّ والله! لكن لا تنسي أنّ لُقاءك به كان مثل قطار يتوقّف عند المحطّة لحظات ثم يغادر».

«وروبرتو؟ أليس هو أيضًا القطار الذي توقّف عند محطّتك وما زال متوقّفًا؟ بل إنّه استأجر مركبًا صغيرًا من أجل عينيك ليأتي بك إلى هذا الشاطئ. لا بدَّ أنّه احتقرني. كنت أظنّ أنّ كبريائي كتُرس السلحفاة لن يقدر أن يخدشه أحد، فإذا به كفقّاعة صابون».

«اسمعي إيڤون، اسمعي ما قالت أمّنا حوّاء لأبينا آدم عندما سألها كيف ولماذا وقعت في غرامه! جاوبته: (ليش هو كان في غيرك يا خرا!)».

تبتسم إيڤون، ثم تغشى على نفسها من الضحك وتعانق هدى ثم تبكي بحَرقة!

تشعر هدى بالحرج وبالقليل من الخيانة، لأنّ ليلتها الرائعة مع روبرتو لم تنته بعد منذ أن غادرا فندقها وسارا في الأزقّة الضيّقة حتى أمسك بيدها وقال:

«هدى، دعيني أريك شيئًا خارقًا».

يسرع الخُطى بها، وكأنّ ما يريدها أن تراه سيختفي بعد لحظات. سار بها في شوارع مأهولة، غريب! كيف يغيب عن بال السوّاح بأنّ التعرّف على أيّ بلد لا يكتمل إلّا إذا شاهدوا أين وكيف يعيش السكّان حياتهم اليوميّة.

«آسف، لا بدَّ أنّك جائعة! لكنّني في أشدّ الحماس لأن أريكِ شيئًا أتمنّى أن يبهركِ وينال إعجابك».

يدقّ على جرس، فيفتح لهما البوّابة الكبيرة حارسٌ يلقي تحيّة على روبرتو بكلّ حرارة. وجدت نفسها في غابة من أشجار الصنوبر وقد سطعت على قممها الأضواء وكأنّ الشيب قد تسلَّل إليها فجأة، يُضاء في وسطها بيت من زجاج على شكل هرم، يقودها روبرتو إليه، وما إن يدفش بابه وتنفذ منه رائحة الرطوبة حتى تتراجع هدى وتُصاب بالهلع.

«لا أستطيع الدخول، آسفة، أنا أعاني من الربو والرطوبة تؤذيني». تضع يدها على شعرها تتحسّسه خوفًا من أن تكون الرطوبة قد جعّدت خصلاته!

«أوه آسف، آسف، سأدخل إذن وأشير لك من بعيد».

ترى روبرتو وهو يقف أمام شجرة من البلح الإفرنجي، كما

كانت تُعرف في لبنان لأنّها عاقر لا تحمل بلحًا؛ شجرة مراوح الأميرة كما يسمّيها الصغار؛ يشير روبرتو إلى أغصانها الوارفة التي تحمل أزهارًا بيضاء، وهو يعلو بنظره ويده إلى أعلى نقطة في الشجرة ثم يخفِّض يده لتنتشل أغصان المراوح المتهالكة على الأرض.

«إنّها شجرة النخيل المنتحرة»، يشرح لها بكلّ حماسة لحظة خروجه.

«شجرة منتحرة؟».

«نعم، أخذت روحها بيدها. لربّما أتيت بك في الغد حتى تشاهديها في وضح النهار».

«لقد رأيتها جيّدًا وكأنّني في الداخل»، تسرع بالردّ خوفًا من أن يقرّر الإتيان بها في الغد، هي وإيڤون، فتدخل إيڤون معه بينما تبقى هي في الخارج تتحسّس شعرها خوفًا من الرطوبة!

(لا، لا أغار عليك من إيڤون)، تحدِّث هدى نفسها وهي تنظر إلى روبرتو. (فقط لا أريد إحراجك مرّة أخرى). إنّها تتذكّر حين أقدمت إيڤون على جرِّ روبرتو غصبًا عنه للسباحة معها في البحر، في اليوم الأوّل لتعارفهما، وكيف قاومها روبرتو وهي تقفز عليه، وتغطس وتداعبه ثم تتسابق معه. وما إن عادا حتى قالت لها هدى باللغة العربيّة: (فهمنا يا ستّ إيڤون إنّك سبّاحة ماهرة، لكن لا تنسي: الأسماك أيضًا تجيد السباحة).

«روبرتو، ممكن تقول لي ما الذي قصدته بقولك إنّ هذه

النخلة تُميت نفسها بنفسها؟».

«ما إن تزهر هذه النخلة فإنّها لا تتوقّف، تظلّ تزهر وتزهر وتزهر إلى أن تتهالك وتموت. إنّها من مدغشقر. فقد طلب منّي صاحب هذه الڤيلّا أن أزرع له الغريب وغير المألوف من الأشجار. وقد أحبَّ اسمها (Blessed المبروكة)، وكان محظوظًا إذ أزهرت بعد ٧ سنوات من غرسها، وكان يخشى أن يموت قبل ذلك. لكن قولي لي، هدى، هل هذا الربو يمنعك من السباحة أو الرياضة عمومًا؟».

«لا، لا أبدًا، إنّه يضايقني في الساوْنا والبيوت الزجاجيّة، وربّما في الأمازون أيضًا إذا حدث أن ذهبنا معًا إلى هناك هذا المساء!».

«حسنًا، حسنًا، هل نذهب إلى الڤيلّا، لقد أعددت الطعام».

تطمئنّ هدى، فالربو لم يجعله يولي أدباره كما فعل خالها عندما قالت له الصبيّة التي وقع في غرامها أنّها تعاني من فقر الدم.

يدخلان الڤيلّا حيث يسكن، وكأنّ الستائر قد عانقت الشمس طويلاً فشحب لونها الورديّ، والشراشف البيضاء بلون العاج قد طُرحت على الأثاث، والمرايا النائمة غطّت نفسها بوشاح خفيف كأنّه البخار.

(هل يعيش روبرتو في ذاك الضوء الخافت أم أنّ المصابيح لم تعد تودّ أن ترى أحدًا غير أفراد عائلة الڤيلّا، الذين رحلوا،

وبقيت وجوههم هادئة أليفة تطلّ من اللوحات المعلّقة على الجدران وعلى شفاهها ابتسامات باهتة، وكأنّها بانتظار ما سيفعله المهندس وهذه المرأة في خلوتهما).

(أتُراهُ يأتي بكثيرات إلى الڤيلّا؟!) فكّرت هدى بينها وبين نفسها.

«هل هذه طاولة مكتبك؟»، سألته محاولةً إزالة الإرتباك الذي بدأ يتراكم بينهما، أو ربّما ارتباكها هي.

كان روبرتو قد أعدَّ المائدة في ركن من الصالة الواسعة، وترك الشموع تتوهّج وتعكس الظلال على الورود. ما إن رأت غطاء المائدة حتى شهقت لجماله وراحت تتلمّس التطريز عليه.

«لهذا الغطاء حكاية»، يقول روبرتو. «فقد قامت بتطريزه شابّة من هذه البلدة، وقد ظلّت ترجئ زواجها حتى تصل به إلى الغرزة الأخيرة. إلى أن تخطّت سنَّ الزواج. هل تتصوّرين! لقد كانت في العشرين من العمر. وأرسلت صاحبة هذه الڤيلّا، وكانت زوجة الدوق، في طلب الشابّة تريد شراء الغطاء منها بعد أن ذاع صيتُه. وعندما فردته على الطاولة، ورأى زوجها الدموع وسنابل القمح والصلبان مطرّزة عليه بأجمل الغرز، راح يتأمّل في عينيَّ وأصابع هذه المطرّزة الجميلة التي أصبحت عانسًا من غير أن تنتبه لذلك، وظلّت تعيش في العالم الذي رسمته على هذا الغطاء. وقع الزوج في غرامها وباح لها بحبّه لها؛ لكنّ المطرِّزة رفضت كلّ محاولاته رغم كلّ المغريات من مال وجاه. وعندما أصرَّ عليها أن تطلعه على سبب رفضها له وأخبرته بأنّه يكاد يكون بعمر

والدها، انتقم منها بأن رفع الغطاء عن الطاولة ورماه تحت أحذيته في قعر خزانته. ظنّت الزوجة أنّ الجنون قد مسَّ زوجها، إذ إنّ طباعه وكلّ ما به قد تغيّر وتبدَّل بين عشيّة وضحاها.

وحين أدركه الموت ووقعت عين الأرملة على الغطاء المهجور، صُعقت لجماله من جديد، وطلبت من المطرّزة أن تضيف إلى الرسومات أربعة ملائكة على جوانب الغطاء الأربعة؛ فوافقت رأسًا، واستبشرت بعودة الشرشف من تحت الأحذية إلى وجه الطاولة ليرى النور. وما إن انتهت من تطريز الملائكة الأربعة على زوايا الغطاء، لم يستطع أيّ شخص يراه ويتأمّل فيه وبجماله أن يحزر ما الذي يمسكه كلّ ملاك بيده: أهي تفّاحة أم خنفساء أم تُراها الشمس! ولم تفشِ المطرِّزة بسرٍّ ما يحمله الملائكة في أياديهم إلّا بعد أن لحقت الأرملة بزوجها.

تدنو هدى بوجهها من الغطاء، فترى القلوب وأزرار الورد والعصافير وسنابل القمح والملائكة الأربعة وقد وضعت أصابعها فوق شيء يشبه حبّة الكمثرى.

«هل هذه إجّاصة؟».

يضحك روبرتو ويقول بشيء من التلعثم: «المطرِّزة انتقمت من الرجل الذي أخفى الغطاء تحت أحذيته بأن جعلت الملائكة تضغط على بيضتيْ رجل».

بعد أن أكلا وشربا النبيذ، نهضت هدى لتساعده في جمع الأطباق، ثم تدخل الحمّام لتفرشي أسنانها.. وتسرع خارجة إليه تفكّ أزرار قميصه وحزام بنطلونه وتترك له فكّ الباقي، وهي

تلحظ الاستغراب باديًا على وجهه بوضوح، ثم تنزل بشفتيها إلى رقبته.. صدره الخالي من الشعر، وسطه، بطنه، وتتوقّف قليلاً، تتخطّى أسفل بطنه ثم لتكمل رحلة شفتيها، وعندما تصل إلى فخذيه يتململ ويمسك بيدها؛ يُدخلها إلى غرفته حيث رطوبة النهار وحرُّه امتزجا ببرودة الليل فتقشّرت الجدران وبهتت الرسومات. نموسيّة كبيرة تهبط على الصوفا.

تنزع ملابسها بنفسها وتشدّه إليها، ترى دهشته بما تفعله وقد فاقت هياجه وتوقه لها، تعرف ما يدور في رأسه؛ (هل هذه هي نفسها المرأة التي رأيتها تقف أمام البحر وهي ممسكة بالدرابزين الحديدي، تحدّق بالبحر في شجون وحيرة لدرجة أنّي خشيت عليها من أن تقفز إلى البحر من دون أن تدري!).

تركل ملابسها بقدمها الحافية وتضمّ روبرتو إليها وتلتصق به، وبدلاً من أن ينحني بها ويمدّدها على الفراش أو على الأرض، أخذ يقبّل رقبتها وظهرها:

«كم اشتهيتُ أن أختلي بكِ منذ هذا الصباح، ظننت أنّه لا أمل لي في ذلك».

يهبطان على بعضهما بعضًا، يتشابك جسداهما وكأنّهما رجل وامرأة في لوحة لبيكاسو. يعود لتقبيلها من دون أن يلتصق بها. لو كان يعرف اللغة العربيّة لكانت أنشدَتْ له شعرًا:

(لا أريد حبًّا ليس فيه متاع منك في متاعي... فلو قبّلتني ألف قبلة وقبلةٍ، لما رضيتُ إلّا بالجُماعِ!).

لم تشأ الانتظار، أمسكته من يده وهبطت معه فوق السرير، وجدت نفسها فوقه، تبتدئ بالتزهير كالنخلة المنتحرة، والرحيق يتساقط منها ويتدفّق حتى تهالكا معًا، ثم حاول أن يرفعها عنه قبل أن تنفتح نافورة ماء الحياة لتسقيها، لكنّها تشدّه إليها متمتمة «لا تخف لا تخف». لكنّه لم ينصع لرغبتها. يحضنها، تفكّر وهي مغمضة العينين: (لو أنّ المرأة التي ترتوي جنسيًّا هي التي تحبل كما كان أجدادنا يتوهّمون، لكان في أحشائي الآن نطفة عمرها دقيقتان).

يكتفي كلّ منهما بالنظر إلى الآخر، أعينهم تتكفّل بالكلام والتعبير كورقتين في كتاب. كأنّ الجسم لا العقل هو الموضوع، إذ أعادهما إلى حقيقتهما وواقعهما عندما انصهرا وأصبحا واحدًا ولو لوقت قصير.

«أنتِ ساحرة! عليّ أن أعترف لكِ بأنّك جعلتني أشعر وكأنّني الأنثى التي تودّ أن تتلقّى بدلاً من الشعور بالخوف والانشغال بكيفيّة إشباعك وإرضائك!».

«شكرًا جزيلاً على هذا الإطراء!».

«آسف هدى إذا كرّرت السؤال عليك: هل أنت المسلمة أم إيڤون؟».

«أنا المسلمة وهي المسيحيّة».

«اختلط عليّ الأمر هذا المساء، إنّك متحرّرة كأيّ امرأة غربيّة بل أكثر؛ لا أخفي عليكِ أنّي صُعقت، لم أكن أتوقّع،

فأنت مسلمة! أنت عظيمة في العمليّة الجنسيّة!».

لم تجبْه، اكتفت بابتسامة، فهو ليس الرجل الأوّل الذي لم يصدّق ما يرى.

(وأنا هكذا لأنّي مسلمة. أنا هكذا، أقصد كما تصفونني بصفات تصبّ في الشهوة والغريزة الجنسيّة، بل الحيوانيّة كما قال لي أحدهم، لأنّي نشأت في بيت مسلم وبيئة مسلمة. لم أكن قد تجاوزت السابعة من عمري عندما أخذتني أمّي معها لزيارة قريبة لها، وهناك أمسكت سوسن، ابنة تلك القريبة، بيدي لنخرج ونلعب مع بنات الحيّ؛ ومن بين الألعاب الكثيرة لعبنا لعبة جديدة عليّ يسمّونها «النحلة والدّبور»، وحين جاء دوْري كان عليّ أن أستلقي على ظهر سوسن وترتفع قدماي عن الأرض وكذلك ظهري، بينما تتشابك ذراعانا. وأشارت إليّ حتى أنادي «أنا النحلة»، ثم تخفضني من أجل أن أرفعها بظهري وعندها تصيح هي «أنا الدبّور».. وهكذا.

أحببت تلك اللعبة خاصّة وأنا أرتفع عن الأرض ورأسي يواجه السماء، ولأنّني اكتشفت أنّي قويّة البنية إذ تمكّنتُ من رفع سوسن على ظهري وأن أعلو بها وأعلو. وحينما عُدتُ إلى البيت ولم يكن في حيّنا رفيقات لي، تمنّيت لو أنّي أعلّم أخي هذه اللعبة الجديدة رغم أنّه كان يكبرني بستّ سنوات، لكنّي كنت أعرف في قرارة نفسي أنّ هذا مستحيل. فأنا لا أذكر أنّنا لعبنا معًا في البيت أو في الحيّ، حتى إنّه كان ممنوعًا عليّ دخول غرفته. انتظرت حتى اليوم التالي لأعرِّف رفيقاتي في المدرسة على لعبة

«أنا النحلة أنا الدبّور»، وسرعان ما تحوّل ملعب المدرسة إلى عشرات من حلقات النحل والدبابير. نعلو وننحني، نعلو وننحني فوق ظهور بعضنا بعضًا، ننادي كلّ منّا بدوره «أنا النحلة أنا الدبّور». وصدف أن دخلت أمّي غرفة نومي ذات يوم ورأتني وقد التصق ظهري بظهر زميلة لي وقد رفعتني فوق ظهرها وقدماي تلوِّحان في الهواء وأنادي ضاحكةً «أنا الدبّور»، فهجمت علينا وكأنّها ثور يريد أن ينطحنا. فرَّقت أيادينا المتشابكة غير مبالية بنا ونحن نهوي على بلاط الأرض الصلب. ارتعنا من منظر عينيها الغاضبتين المشمئزّتين وهي تضربنا بيديها ولسانها أيضًا؛ «يا عيب، يا عيب الشوم، لم أتصوّر يومًا أن تنحدر ابنتي إلى هذا المستوى السوقي؟! ثم لتصفعني على وجهي، ماذا فعلنا!؟ أسألها وأنا أبكي؛ «كنّا فقط نلعب لعبة النحلة والدبّور، هذي اللعبة علّمتني إيّاها سوسن». كأنّ قولي هذا أجّج غضبها من جديد، إذ أسرعت إلى المطبخ لتعود وهي تمسك بقرن من الفلفل الأحمر وراحت تفرك به على شفتيّ ولساني وهي تقبض بيدها على رأسي حتى تتمكّن منّي. ولم يبدُ أنّها قد ذاقت طعم هذا الفلفل الحرّاقي في حياتها قطّ، إذ لم تراودها الشفقة عليّ ووجهي يتحوّل إلى نار، والغصَّة في حلقي تكاد تحرمني من استنشاق الهواء. أكملت تهذي «أريد لكِ كلّما فكّرتِ بالنحلة والدبّور أن تتذكّري قرن الفلفل!».

ولكن، ألم أسمعها مرارًا وهي تصف من يعملون بجدّ ونشاط بأنّهم كالنحل؟! أليس الدبّور هو أيضًا نحلة إنّما قبيحة المنظر؟! ألم نتعلّم في المدرسة أنّ النحلة ذكيّة تلمّ بأوقات المطر

وتتفوّق على المهندسين من بني آدم في صنعها للبيوت من الشمع بأشكال سداسيّة متشابهة تمامًا من دون أدوات هندسيّة؟! أليست النحلة مشهورة بالنظافة إذ تقوم بصنع تابوت من الشمع إذا ماتت إحداها حرصًا على رائحة القفير، ثم لتتخلّص من التابوت بأسرع وقت ممكن؟! ألم أشاهد أمّي تعطي لكلّ من يؤلمه بطنه ملعقةً من العسل، بينما كانت جدّتي تمزج العسل بالمسك لتتكحّل به حتى تتوقّف عيناها عن التدميع؟!

حرقة الفلفل على شفتيَّ لازمتني طويلاً، أشعر بها كلّما وجدت نفسي مع رجل، فأسرع وأنهش شفتيْه حتى أتخلّص من طعم الحرقة على شفتيّ وأتذوّق طعم الحبّ وسعادة الخلوة. فلعبة النحلة والدبّور كما تجرّأت ابنة جيراننا العانس على شرحها لي هي تمثيل لزواج القطط في شهر شباط، حيث تلتصق القطّة بالقطّ لمدّة طويلة، ويأخذان بالمواء بصوت عالٍ، وهو ما يُغضب الكبار فيرشّون عليهما الماء ويصيحون عليهما ويرمون لهما نتفًا من اللحم حتى يُنهيا وصالهما وعناقهما، ولكن من دون جدوى. أحاول دائمًا أن أكتفي بتذكّر حرحرة فمي فقط، لأنّ قرن الفلفل الذي مرّغ مؤخّرتي هو نفسه لا يريد أن يتذكّر. فقرن الفلفل نما وترعرع كي يُضاف القليل منه إلى الطعام، وليس لمؤخّرة البنات ومنهنّ أنا عندما كنت في سنّ الحادية عشرة!

صراخي وصل إلى الله وإلى الملائكة وإلى الأموات الذين صعدت أرواحهم إلى الجنّة، ومع ذلك لم تسمعه أمّي وهي تواصل فركها للقرن بباب مؤخّرتي. صحت وكلّي يقين أنّ الجنون

قد أصابها حتمًا، ولهذا اختلطت عليها الأمور وظنّت أنّ الفتحة التي يخرج منها ما آكله، هي فمي!

كنّا ثلاث بنات ومعنا صبيٌّ واحد، عصام، ابن صاحب المصبغة. كان والده ينشر ما يغسله ويصبغه من الملابس والقماش في الحديقة الملاصقة لمصبغته. تسلّلنا إليها من الباب الخلفي كما أشار علينا عصام من أجل أن نلعب بالأصباغ، لتتحوّل اللعبة إلى لعبة الدكتور والمريض. خلعنا جميعنا سراويلنا التحتيّة وأخذنا نحن البنات نرفع فساتيننا واحدة واحدة أمام (الدكتور) عصام، الذي كان يكتفي بالنظر إلينا ثم يشهق تعبيرًا عن أنّ حالة كلّ منّا خطيرة للغاية، وبأنّ الدواء الشافي لحالاتنا المستعصية يكمن بالنظر إلى حمامة الدكتور! (عضوه الذكري). ولم تكن حمامته تشبه الحمام أبدًا، بل كانت أشبه بزنبق ثخين لم يُزهر بعد.

وفجأة، نسمع ضحكات جارنا أسامة الذي ضبطنا عندما دخل الحديقة من باب المصبغة يبحث عن أغطية قوارير الكوكاكولا حتى يستعملها كأحجار في لعبة الطاولة TRICK TRACK المفقودة. ضحكات أسامة وكلماته الحنونة «يللا عمّو كلّ واحدة تروح عبيتها؟ بشّرتنا بأنّنا صغار ونلعب كالصغار. ولكن ما إن تفرّقنا نحن الأربعة كالنمل الذي كان قد تكوّم على حبّة من السكّر بعد أن نفثت به نفحة من الهواء فجأة، أصبحت لعبتنا في غاية الخطورة، فالعقاب مروّع؛ أوّلنا فاطمة التي عُلّقت يدها بحبل إلى سكّرة الباب طيلة النهار وحتى المساء من دون طعام أو شراب، ومن دون السماح لها بالذهاب إلى المرحاض فبالت على نفسها ثم ضُربت لعدم حصرها لبولها. ثم نادرة التي

قرّبت أمّها قرن الفلفل الأحمر من مؤخّرتها كي تحرحرها هناك بناءً على اقتراح من جدّتها، وحين أغمي على نادرة اكتفت أمّها بفرك قرن الفلفل على فمها، لتعود نادرة إلى رشدها وهي ما زالت تسعل وتولول. لا بدَّ أنّ فشل أمّ نادرة في إيصال قرن الفلفل إلى حيث أرادت في بادئ الأمر، كان الحافز لأمّي كي تنجح في محاولتها هو أنّني بنت شيخ الدين وعليّ أن يُضرب بي المثل في السلوك الحسن، وأن أكون القدوة الصالحة. لقد خذلتُ الجميع ولا بدّ من إنزال أقصى العقوبة بي. قرن الفلفل الذي فُرِك في مؤخِّرتي جعلني أركض من حمِّ النار التي التهمتني، وأخذت أصدر أصواتًا لحيوانٍ لم يُسمع من قبل: هي مزيج من العواء والمواء والزئير والشخير والنهيق والصهيل والفحيح؛ كلّما اشتدّت حروقي حاولت التمرّغ كثعبان يحاول شلح جلده. ما زلت أذكر كيف أطلقت صيحات سمعها قلبي «لماذا خُلقنا على هذه الصورة إذن»! من الذي يضع الأفكار في رؤوسنا كي نكشف عن أجسامنا ونتأمّل في أجسام الجنس الآخر، لماذا نسمّيها لعبة الدكتور والمريض؟ ما سرّ ذلك الافتتان والرغبة المجهولة في الاكتشاف؟

وروبرتو يحضنني أجدني أعتليه من جديد؛ أعضاؤنا هذه هي التي ستقرّر الحبّ والكراهية والزواج والطلاق والسعادة والوحدة والتكاثر والتنافر. أردنا في الطفولة أن نفهم علاقة الأمّ بالأب. أمّنا حوّاء وأبونا آدم! الغريزة الجنسيّة التي ولدت بذرتها وبقيت متخفّية تحت مسامّ الجلد إلى أن ظهرت. نطلق على هذه اللعبة اسم لعبة الدكتور والمريض لأنّ كلّ ما فيها بريء. وبراءة الأطفال لا ترى عيبًا في خلع الملابس أمام الطبيب. إنّه هناك

ليشفينا من الألم وكأنّه ليس إنسانًا عاديًّا. لا عيب ولا نقاش حول لعبة الدكتور والمريض. إنّها لعبة إنسانيّة؛ مسألة طبيعيّة كالمرض والسخونة، الحياة والموت، ولا بدّ للطبيب، صبي الحيّ، أن يكشف عن بنات الحيّ الصغيرات المريضات ويعالجهنّ!

كانت لعبة «النحلة والدبّور» شبيهة بالمقدِّمة أو كلمة الناشر في مطلع الكتاب، إذا أردت أن أصف بوادر الغريزة الجنسيّة الخفيّة، وأذكر أيضًا كيف أرسلتني أمّي إلى سطح بيتنا عندما سمعنا وقْع خطوات تروح وتجيء. خافت أمّي من أن يكون هناك من جاء ليسرق وريقات الملوخيّة التي كانت قد نشرتها تحت أشعّة الشمس فوق شرشف قديم حتى تجفّ. ومن هناك رأيت سلوى، ابنة الجيران التي لم تكن قد تعدّت السادسة من عمرها، وهي تحاول أن تنفض عنها وريقات الملوخيّة التي كان صبيُّ الحيّ، أحمد، قد غطّى بها بطنها. ويبدو أنّ رؤيتهما لي متلبِّسيْن كان لها وقع الزلزال في نفسيْهما. فراح أحمد يسابق الريح هاربًا، أمّا سلوى فلم تعدْ تعرف كيف تعيد رفع سروالها التحتي. أقترب وأساعدها وأسألها بلهفة وفضول: «قولي الصحيح يا سلوى، ماذا كنتما تفعلان؟» لتردّ عليّ وهي تبكي «قولي الصحيح؟ لأكرِّر» لا، لا، أنا التي تسألك أن تقولي لي الصحيح، أي الحقيقة: بماذا كنتما تلعبان؟» لتردّد من جديد «قولي الصحيح، قولي الصحيح».

رغم أنّي كنت أكبُرُهُما بخمس سنوات، فقد وجدت لعبتهما بأوراق الملوخيّة الخضراء مثيرة. وربّما لهذا السبب أقنعت أحمد

بعد أيّام أن يأتي إلى سطح بيت ملاصق لبيتنا، ويختبئ خلف خزّان الماء، وأن يشلح بنطلونه ويدهن نفسه بماء الطبشور الذي كنت قد طحنته وأذبته بالماء، بينما وقفت أنا على سطح بيتنا ألقي عليه الأوامر كلّما نادى قائلاً إنّه انتهى من فعل ما طلبته منه، فأجيبه وأنا أتصوّر الدهان الأبيض على بطنه وفخذيه وحمامته «إدهن أكثر، أكثر». تُرى هل السرّ بيننا هو ما أثارني أم ما كان يفعله!

عدتُ والتقيت بالصبيّ أحمد وبزوجته في تورونتو، في ليلة افتتاح مسرحيّة من إخراجي. وكان أحمد هو من بادر إلى إخبار زوجته بما فعلناه في الصِّغر، في الوقت الذي كان قلبي يضربني كعادته قبل ارتفاع ستارة المسرح. وعندما آويْت إلى فراشي بعد تلك الليلة والسعادة تغمرني لردّة فعل الجمهور الإيجابيّة، لم أتوقّف عن التفكير بالصبيّ أحمد وبالزوج الذي كان يروي ما فعلناه وهو يضحك لغرابته و«سوريياليّته» كما وصفه هو حرفيًّا. ولأفكّر بعصام ابن صاحب المصبغة الذي لم يُعاقبْ، بينما صاحت الحروق التي صعدت إلى شرايين عينيَّ واستقرّت في أنفي. «عصام» هو الذي جعلنا نفعل ذلك، الحقّ عليه؟. لأراه بعد أيّام يضحك مشيرًا إلى مؤخّرته. يقهقه مشيرًا إليّ وهو يروي لرفاقه الصبيان عن السعدان الذي جلس على قرن الفلفل قافزًا في الهواء كالسعادين. وقد راجت في الحيّ كلّه رواية حرحرة مؤخّرتي وأصبحت على كلّ لسان.

صاح داخلي «سترون غدًا كيف سأنتقم منكم: منك، من

أهلي، من أمّي، من أمّ نادرة وأمّ فاطمة ومنك ومنكم ومن الجميع!» لكن لينقلب وعيد هدى هذا إلى مجرّد أصابع اتّهام توجّهها إلى نفسها بعد وفاة والدها بنوبة قلبيّة مفاجئة. أيقنت أنّ الله يتدخّل في حياة عباده خاصّة المؤمنين منهم. لقد أشفق على والدها بعد أن رأى ابنته عارية الفخذين وأعلى الصدر والذراعين، ولم يشأ له أن يتذكّر هذا المشهد كلّما رآها. أراد الله حمايته من الألم، فضغط على قلبه وخلّصه من العذاب. أراده ميتًا هكذا وفي لحظات سريعة.

في ذلك اليوم غطّت هدى شعرها عن قناعة تامّة. لم يعدْ يظهر منها سوى كفّيْها، وكان فستانها يصل إلى ما دون الركبة بكثير. لم تعد تشعر بالإرهاق كما من قبل، وبدأت تحاول الاسترخاء في عيشتها داخل البيت وخارجه كأمّها ومعظم بنات العائلة: «من البيت إلى المدرسة، ومن المدرسة إلى البيت» تاركةً الحياة تتثاقل على عُكّازتيْن، ولتصبح كما شاء لها والداها: لا أنثى ولا ذكر، ولا حتى إنسان. أخذت تسدّ أذنيها عن تسلّل الأغاني ووشوشة الوعود بالحبّ ومغريات الدنيا، خوفًا من أن يصهر الله القصدير والحديد في أذنيها ويبدِّل جلدها بجلد آخر المرّة بعد الأخرى في نار جهنّم. إنّها النار التي سمعت أستاذ الدين يقول عنها: «إنّ الله أمضى ألف عام في جمع حطبها، وألف عام في حرقه حتى احمرّ لون النار، وألف عام آخر حتى اسودّ لونها».

بعد مدّة طويلة تقارب العامَيْن، قرّرت هدى أن تتحوّل إلى

ذَكَر هو الملك الغول، لا يجوز أن تأكل أمامه، أو أن تلتقي عيناها بعينيه حتى لو كان عمّها أو خالها أو حتى أخاها؛ عليها أن تغطّي ركبتيها حتى لا تراها الجدران، فلربّما كانت أعين الرجال قد تركت بيابيها عليها، فالرجل حاضرٌ وإن غاب؛ لا شُرفة تطلّ منها أو تقف عليها ولا هاتف تتحدّث به. والذي عجّل اتّخاذ قرارها بأن تصبح ذكَرًا هو زيارة خطيبة أخيها الذي لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين، والتي أتت بصحبة أمّها وخالتها وابنة خالتها. شعرت هدى بتوتّر النسوة وهنَّ يصغين إلى وقع أقدام أخيها وهو يتنقّل بين غرفته والمطبخ. لتقف خطيبته بعد أن لم يعد باستطاعتها مقاومة رغبتها في أن تكون معه وجهًا لوجه، مصرَّةً على أن ترفع بنفسها صحنها المليء بقشر البرتقال والكستناء وتُدخله إلى المطبخ. لحظات ويسمع الجميع صوته وهو يسأل خطيبته إن كانت تحبّ شرب اليانسون لتُسمَعَ بعد ذلك شبه ضحكة منها. عندها علا صوت أمّ هدى «تهدّي يا بنتي تهدّي» ويعقبه صوت أمّ الخطيب «تهدّى يا إبني، تهدّى».

في تلك الليلة قصّت هدى شعرها بنفسها «أريد أن أصبح ذكرًا؟ فهو الملك والغول. الذكر لا يرتدي الحجاب، باستثناء ذلك الشابّ ابن جارهم الذي شعر بميْلٍ لبني جنسه فأرسله والده إلى الشيخ، والد هدى، من أجل مساعدته في طرد وسوسة الشيطان وإعادته كما خلقه الله، ذكرًا ويحبّ الأنثى. «لكنَّ الله خلقني ميّالاً إلى الذكور غصبًا عنّي»؛ «لا يا إبني! يجيبه الشيخ الله خلق البشر أزواجًا أزواجًا حتى يستمرّ الخلق والخليقة».

وبعد شهور من إسداء النصائح والشرح والتخويف، أسرَّ هذا الأخير إلى والد هدى بأنّه قد تاب فعلاً، وأنّ كلّ مُناه الآن «أن يؤدّي الفروض الخمسة واتّقاء شرِّ الآخرة وأوّل ما يريد أن يفعله هو أن يتحجَّب!».

شعْرُ هدى القصير، والعينان بدون كُحل أو مساحيق على الجفنيْن، والحاجبان غير المزجزجيْن، وبشرة لا يلمسها سوى الخباء والبرودة، كلّ ذلك جعل بعض الشابّات، حتى إحدى قريبات هدى، ينظرن إليها بولع ووله. بينما ظنَّ شباب الحيّ أنّها تزاحمهم على إغراء الإناث فيعلِّقون حين يرونها: «هل هو على اليمين أم على الشمال، فنحن لا نراه!».

تبدِّل رأيها. لا تريد أن تكون ذكرًا ولا أنثى. تريد أن تكون سيّارة حتى تخترق الشوارع في وضح النهار وفي عتمة الليل ولا تحمل بين دواليبها سوى الحرِّيّة. تتعلّم قيادة السيّارة في الخفاء. تتقنها بدرجة أذهلت من علَّمها. تعرب له عن رغبتها في تعليم النساء قيادة السيّارة، وخاصّة النساء المحجّبات اللواتي لا يقبلن التعلّم مع رجل. يوافق صاحب المكتب وهو يضحك ويهزّ رأسه إعجابًا بفكرتها تلك. يكتب على السيّارة «آنسة لتعليم السيّدات». تعود وترتدي الحجاب من أجل أن تثق بها المحجّبات. تعلِّمهُنَّ عدم الخوف والثقة بالنفس وعدم المبالاة بتعليقات الرجال: «لوين سايقين على جهنّم الحمراء؟ أو وادي قاديشا» يا أخت أنت عارفة أنّ السيّارة تسير على البنزين مش بصلصة البندورة!؟.

عندما قرّرت أن تلحق بأخيها في تورونتو بعد مدّة قصيرة من

اندلاع الحرب، لتلتحق بكلّيّة لدراسة المسرح، كانت تطمح في أن تستمرّ في تعليم السواقة للعربيّات في تورونتو في أوقات فراغها، ولكن ما إن وصلت إلى هناك حتى عادت هدى لتلتقي بهدى الأصليّة، والبرهان هو أنّها عندما التقت بالرجل، وكان أستاذها، عشقت كلامه وقصصه ونظريّاته. وقعت في غرام أصابعه وهي تضغط على قرص (سي دي)، وابتسامته عندما دخلت مكتبه في الجامعة ذات يوم لتسأله إن كان قد اطّلع على البحث الذي قدّمته له البارحة، لأنّها تريد أن تعدِّل به شيئًا، ولم يتردّد بالقول لها بينما راح يفتش عن أوراقها، إنّ (انشغاله البارحة أنساه الجامعة والطلّاب، وأخذ يقصّ عليها مشاهد مسرحيّة حضرها، وتأخّره بعد ذلك في العشاء، حيث شرب الكثير من النبيذ). يعطيها أوراق بحثها. تنهض بسرعة، تشكره وتعده بإعادة البحث صباح اليوم التالي. ما إن تصل الباب حتى يناديها:

«كلّي فضول أن أعرف ماذا ستعدِّلين في الورقة. هل يمكن أن أعمل نسخة عنها قبل التغييرات».

مدَّت له الأوراق فوضعها في ماكينة النسخ، ووعدها بأنّه لن يقرأها قبل أن تعود بالنسخة المعدَّلة. كانت قد اختارت قصّة من شوبرت ليدر بعنوان (القزم) لتكوِّن موقفًا مسرحيًّا مستمدًّا من أيّ عمل فنّي آخر: لوحة، رواية، قطعة موسيقيّة، أبيات شعر؛ والموقف المسرحي الذي اختارته هو المجهول. وهي حكاية قزم وملكة كانا وحيدين في مركب! وقد استندت إلى ما قرأته في الكتيّب المرافق لقرص (سي دي) الذي يحكي القصّة.

ملكةٌ وقزمها، وحيدان في مركب تتقاذفه الأمواج المتلاطمة وتبعده إلى عُرض البحر، حتى بدت الجبال وكأنّها أشباح يلفّها الضباب. لماذا قاما برحلة المركب هذه؟ هل لأنّ الملكة ضاقت بها الحياة، أم أنّها تحبّ المغامرة، أم أنّ الطقس انقلب وأصبح ينذر بالخطر؟

لكن، وبينما كانت هدى تقلّب صفحات الكتيّب في اليوم التالي، لاحظت أنّ تكملة لايدر للأغنية كانت على الصفحة التالية، وفيها أنّ القزم هو الذي أخذ الملكة في هذه النزهة البحريّة كي يخنقها بشريط حريري أحمر اللون لأنّها فضّلت الملك عليه. وقد ودّعته حين أدركت نواياه قائلة: (آه كم أصلّي من أجلك، حتى لا تتعذّب بعد موتي)، ليكتشف بعد أن رماها في الماء جثّةً هامدة، أنّه فعلاً سيتعذّب لأنّه لن يستطيع أن يرسو بعد الآن عند أيّ أرض.

حين أثنى عليها أستاذها في الأيّام التالية لطريقة معالجتها لبحثها ذاك، دعته لتناول العشاء. وفي ثالث مرّة يلتقيان فيها أبدت رغبة في زيارته في شقّته. أسرّت له أنّها جدّ مرتبكة وبأنّها تريد أن تتحرّر من ارتباكها هذا. فوجئت بنفسها وهي تفكّ زرّ تنّورتها وتجلس أمامه بجواربها التي وصلت حتى خصرها. ثم وهي تخلع الجوارب وتجلس بسروالها التحتي. الأستاذ يرتبك الآن، ويحاول أن يتحاشى النظر إليها، ثم يبتسم سائلاً إن كانت تريد أن تشرب شيئًا. كان يريد أن يعرف عنها المزيد.

«هل قلتِ لي إنّك من لبنان؟ من بلد عربي إسلامي!».

لم تجبه، كانت ما زالت تحت تأثير قرن الفلفل الذي عذّبها ابتداءً من شفتيْها وحتى مؤخّرتها. . تحت تأثير يد فاطمة المعلّقة بالباب، ونادرة وإغماءتها، وعصام وهو يقلّد السعدان، وابنة القريبة سوسن وهي تعلو وتواجه السماء مناديةً «أنا الدبّور»، وهدى تنحني تواجه الأرض «أنا النحلة»، لتلبّي الآلاف من النحل والدبابير النداء وتلدغ البنات في شفاههنّ، وصوت هدى يلعلع محذِّرةً صبيان الحيّ وأمّها والجميع: «ستروْن، ستروْنَ ما سوف أفعله!».

تخلع سروالها التحتي أمام الأستاذ الكندي. «أعرف أنّ كلًّا منّا يفكّر بهذا، وإذا كنت لا تفكّر به الآن، فلربّما بعد خمس دقائق». . «لديكِ صديق دائم، خطيب، زوج؟» يسألها روبرتو الآن، صوته كالمياه التي أطفأت اللهب، وإذا بها تخلِّص يد فاطمة المربوطة بمقبض الباب، وتضع الثلج فوق شفتيْ ولسان نادرة، وتشعر بالألفة وبالحبّ.

«لا، وأنتَ؟»

«لي صديقة دائمة، هي الآن في الهند، إنّها تدرِّس اللغة الإيطاليّة في نيودلهي».

يغوص قلبها عميقًا:

«الهند! إنّها بعيدة عنك كثيرًا!».

«كم أنا سعيد لأنّها بعيدة، خاصّة في هذه اللحظة بالذات، هل أراكِ في الغد، هدى؟».

«طبعًا، لا ضرورة للسؤال».

«كم أنتِ رائعة»!

يضمّها إليه. يأخذ قلبها بالبكاء. لماذا لديه صديقة دائمة؟

ولأنّ لكلّ رحلة بداية ونهاية، غادرت الصديقتان الريفيرا الإيطاليّة بعد أربعة أيّام عائدتيْن إلى روما، بعد أن لم تستطع إيڤون التوقّف عن البكاء حتى وهي على مقعد التواليت، ولم تتوقّف عن البحث عن لوتشو على الشواطئ وفي المطاعم والفنادق الصغيرة من أجل أن تسدّد له لكمة. ولكنّها في اللحظة التي وطئت فيها قدماها أرض روما، تنفّس الحزن لأوّل مرة، وزال الطعم الكريه الذي كان قد علق بلسانها شيئًا فشيئًا، بعد أن احتضنها جمال المدينة الأثريّة بكلّ حنان؛ الأعمدة الطويلة والنقوش وبخور الكنائس وعيون القدّيسين؛ كلّ هذه جعلتها تسخر من كبريائها الذي كان يعربد ثم صار يشكو ويعوي كأنّه كلب ركله أحدهم في بطنه. بينما ازداد تعلّق هدى بروبرتو كلّما سمعت صوته عبر التلفون خلسة وبالخفاء عن إيڤون، بل كلّما سمعت رجلاً يرطن بالإيطاليّة.

القسم الثاني

الفصل الأوّل

تسير كلّ من هدى وإيڤون في هايد بارك بعد مضيّ عام بالتمام على لقائهما في إيطاليا. اتّفقت الصديقتان على اللقاء في لندن هذه المرّة.

«أتوق لاكتشاف لندن معكِ؛ ما زلت أجهلها رغم عيشي فيها ما يفوق العشرين سنة».

تسيران وتلحظان مواسم السنة كلّها في مكان واحد ويوم واحد: الربيع والصيف والشتاء والخريف؛ من عشب أخضر فوّاح، إلى تربة بنّيّة، وغرسات صفراء طويلة استنزفت الشمس حيويّتها؛ أشجار تعرَّت من أوراقها وأخرى تفتّحت وريقاتها الخضراء، وأشجار حافظت على أزهارها البيضاء والزهريّة متوهّمة أنّها ما زالت في فصل الربيع. غربان سوداء تهبط عن الأشجار

إلى الأرض، تزاحم الحمام كلّما رمى أحدهم بشيء من الطعام.

«لم أرَ في حياتي غربانًا كبيرة كهذه فكأنّها عقبان أو حتى نسور!».

«لا تنظري إليها، هدى، ففألها سيّئ».

«طالما أحببت الغراب والبوم؛ أشفقت عليها وأنا صغيرة لكثرة ما كانت مكروهة؛ أذكر كيف كنت أدافع عنها مذكِّرةً الناس بأنّ الله خلقها مثلنا».

«طبعًا، أنتِ دائمًا (خالف تُعرَف)».

«أحبّ شخصيّتها وكيف تفضّل العيش في الأماكن المهجورة والخرائب والكهوف القديمة الخاوية وفي أعالي أبراج الكنائس. هل تعلمين أنّه بإمكان الغراب انتقاء أفضل أنواع التمور؟ ولذلك ينتظر الناس اختياره لشجرة نخيل فيلحقون به».

«إذًا، من اليوم فصاعدًا سأحبّ البوم والغربان».

«قرف، قرف»، تصيح هدى فجأة. «كلينكس، عجّلي إيڤون قبل أن أستفرغ».

تبحث إيڤون عن كلينكس في جيوبها، وقد حزرت أنّ طيرًا قد أفرغ ما في أمعائه على وجه صديقتها، وعندما لم تجد أيّ شيء، انحنت نحو الأرض لتلتقط ورقة شجر كبيرة وتعطيها لهدى التي ما إن تقرّبها من فمها لتمسحه حتى رمتها بقرف، وأسرعت تمسح شفتيها بكمِّ سترتها الخفيفة.

«يا ترى في شي تواليت قريب، خلّينا نشتري قزازة ميْ، دخيلك بدّي غسِّل تمّي».

تركضان باتّجاه كشك بدا عن بعد وكأنّ حوله مظاهرة. تسبق إيڤون هدى إلى الكشك، تشتري زجاجة ماء بعد أن تشقّ جموع روّاد السبيكرز كورنر الذين تجمّعوا وتحلّقوا في حلقات عدّة. تفرك هدى شفتيها بكلّ عنف وكأنّها تريد تنظيف إناء من الفضّة أفسد الهواء بريقه، ثم تفرغ ما تبقّى من قنّينة الماء على كمّ سترتها.

«أراد الغراب مكافأتك لأنّك تحبّينه، ليبشّرك بأنّ شابًّا سيقبِّلك من فمك اليوم بوصفك أفضل التمور».

«أكيد، الشابّ الذي سيقبّلني مشتاق ليتذوّق ويشمّ رائحة الخراء! راح أستفرغ».

ليتّضح أنّ حدس إيڤون كان نصف صائب، فالشابّ الذي التقت به هدى في السبيكرز كورنر لم يقبِّلها على فمها بوصفها أفضل التمور، بل ضاجعها أربع مرّات وفي غضون ساعات، ثم ليحمل لها الغراب بعد ذلك فألاً بلونه تمامًا.

وجدتا نفسيهما في قلب السبيكرز كورنر، رغم أنّه لم يكن على بال إيڤون سوى الفطور المتأخّر (البرانش، والقهوة التي تفوح رائحتها وتنفذ إلى دماغها، كذلك البيض المقلي بزيت الزيتون وبالسمّاق).

«يا الله هدى، راح موت جوع».

«والله، لم أكن أعلم أنّ النساء أيضًا يلقين الخطب في السبيكرز كورنر!».

امرأة في مطلع الخمسينيّات من عمرها وقفت على درجتيْن خشبيّتين مدهونتين بالدهان الأبيض، أراحت يديها عليهما، فبدت كأنّها تركب درّاجة سكوتر، تنادي:

«خلق الله الناس أجناسًا لا تُعدّ ولا تُحصى من أجل أن يبقى كلّ جنس في المكان الذي خُلق فيه ولا يبتعد عن جذوره، فإذا حدث وهاجر إلى بلدٍ آخر يكون قد عصى الخالق وتمرَّد على مشيئته العادلة».

شابٌّ عربي، اعتنى بهندامه، فسرَّح شعره على طريقة flat top السائدة لدى الشباب، وارتدى سترة جلديّة نبيذيّة اللون، نادى:

«هل أفهم منك يا عزيزتي ميرتل أنّك تريدين من ملكتكم أن توضّب شنطتها وترحل، فأجدادها ينحدرون من أصول ألمانيّة!».

«مشيئة الخالق العادلة؟ ألم نعبث بمشيئة الخالق العادلة، ليس فقط أثناء وجودنا كمستعمرين بل في غيابنا أيضًا! أريد أن أحكي لكِ قصّة الضابط الإنجليزي الذي كان يُخرج عينه الزجاجيّة الزرقاء ويضعها على مكتبه، ويقول للموظّفين السودانيين كلّما أراد السفر إلى إنكلترا لقضاء إجازته السنويّة: (لا تظنّوا أنّي لا أراكم أثناء غيابي عنكم! عيني هذه ستراقبكم وتعرف عنكم كلّ شاردة وواردة)».

ليصفّق معظم المتحلّقين لهذه المداخلة من الشابّ الإنجليزي الذي كان في غاية الوسامة وذا شعر طويل أشقر أملس.

«بوركتَ يا صاحب الشهامة! بوركت!» يهتف الشابّ العربي صاحب السترة الجلديّة؛ «والآن دعوني أؤكّد لـ ميرتل أنّ هناك من الإنكليز من يريدنا هنا؛ إنّهم في أمسِّ الحاجة لنا. فكيف تريد منّا أن نرحل عن هنا ونتركهم، فهي مسألة حياة أو موت بالنسبة لهم»، يتوقّف قليلاً قبل أن يقول «إنّها الخنازير الجميلة، إذ نحن فقط الذين نحبّها ونكنّ لها المودّة والاحترام، نرفق بها ولا نذبحها ولا نأكلها، بل ندعو لها بطول البقاء والتكاثر والتناسل».

يضجّ المكان بقهقهات الحضور، وتصيح الخطيبة:

«الأحرى بكم أن تذرفوا الدموع بدلاً من الضحك! أنتم ترفقون بالحيوانات؟ أنتم؟ ألهذا السبب تذبحون الخراف والبقر بالسكاكين أمام أعينها من دون تحذير أو تخدير ليكون لحمها حلالاً؟ هل هذا هو الرفق في نظركم؟ إنّها منتهى الوحشيّة!».

«خطأ، خطأ، أنتِ مخطئة يا عزيزتي ميرتل. كلمة الحلال لا تعني طريقة ذبح الحيوان أو الطير، بل الصلاة عليه قبل ذبحه».

ليعلّق شابٌّ بدا أنّه من تركيا:

«الحلال معناه أن يواجه الحيوان مكّة المكرّمة أثناء ذبحه».

«مكّة!»، يصيح الشابّ العربي بأعلى صوته؛ «من أين لنا أن نعرف أين هو اتّجاه مكّة أيّام الضباب والمطر؟».

تنادي امرأة إنكليزيّة شبيهة فينيسا ردغريف:

«وماذا عنّا نحن؟ ألا نرمي بالسلطعون والكركدن في الماء الغالي وهي حيَّة! أليست هذه ذروة الوحشيّة!».

ليعلّق الشابّ الإنكليزي الغاية في الوسامة:

«شكرًا، شكرًا».

«لهجته مثيرة للغاية! كم أحبّ هذه اللهجة الإنكليزيّة» تهمس هدى.

«لهجته فقط؟ وماذا عن شكله!» تردّ عليها إيڤون «إنّه يذكّرني بجود لو».

وما إن يتابع جود لو كلامه ويقول بالإنكليزيّة ثم بالعربيّة:

«الحيوانات هي من مخلوقات الله. وهي ذات روح تمامًا كالإنسان. الإنسان يستعير الحيوانات من الله تعالى، والصلاة على روح الحيوان عند ذبحه كأنّه استئذان من الله باستباحة دمه».

حتى تصاب المرأتان بخيبة أمل: «امشي، امشي، فعلاً إنّ الغراب فأل سيّئ»، هدى تجرّ إيڤون.

«حتى جود لو صار يتحدّث ويخطب بنا حول الحلال والحرام؟ تعرفي، ربّما فكّرت أن أهرع إليه وأقول له: أنا حيوان ناطق، أرجو أن تستعيرني من الله!».

«حلال، حلال، يا إلٰهي»، تتذمَّر ميرتل بصوت عالٍ: «ألن ننتهي من الحلال هذا؟».

«هس، هس يا ميرتل، لا تستعيذي بالله» يصيح الشابّ العربي الظريف «وإلّا جاء لنجدتك، وعندها ماذا ستفعلين عندما

يهبط من السماء ويحلّ في بريطانيا ويزداد عدد الوافدين إلى هنا بالآلاف، إذ ستلحق به الملائكة والشياطين، فيسرقون الوظائف من الإنجليز».

ضحكات المتحلّقين التي تعالت تتحوَّل فجأة إلى شهقات استهجان، إذ تقدَّم شابٌّ يبدو كأنّه قد وصل لتوّه من الصحراء، بقامته الطويلة وبشرته السمراء وعينيه الواسعتين السوداويْن (كأنّهما مكحّلتين) تقدحان شررًا، وجرّ الشابّ العربي من يده وهو يردّد: «يا للعيب، يا للعيب!».

رغم انبهارهما بقامته الطويلة، تلاحظ كلٌّ من إيڤون وهدى خاتمه الفيروزي الأزرق والسِّوار الفضّي حول معصمه، والذي لم يكن لينسجم مع تصرّفه الخشن وبطشه.

«يا لطيف! هل رأيت هذه القامة! وهاتين العينين؟

«يبدو لي أنّه من إحدى دول شمال أفريقيا، إنّه مخيف!».

«مخيف؟ أتمنّى أن يخيفني ـ نعم أريد أن أخاف وأرتعش بين ذراعيْه».

«هذا رجل لا مجال للمزاح معه».

«لكنّك توافقين معي أنّه طويل القامة، والباقي عندك».

«كانت عمّتي كلّما كانت تسمعنا نقول إنّ فلانًا جذّابٌ وطويل القامة، تردّ علينا قائلة: (ترى الفتيان كالنخل، وما أدراك ما الدخل)».

«ترجمة من فضلك هدى، لم أفهم!».

«معناه أنّ من الصعب الحُكم على حقيقة الشابّ الوسيم الطويل القامة تمامًا كشجرة النخيل، لا أحد يعرف ما في داخلها من حشرات. هل نذهب، إيڤون؟».

لتخطفهما فجأة مجموعة من الضاحكين وهم يرفعون أياديهم في الفضاء كالطيور، ثم يثبون عاليًا في الهواء وأعينهم مغلقة، بينما تصيح القائدة وهي تضحك: «ضَحْكوا أعلى، أعلى، الضحك هو الدواء الجديد لجميع الأمراض، لا يفرِّق ولا يحرِّم، اشرب وكلْ نصف ما اعتدت على شربه وأكله، واضحك أربعة أضعاف».

ما إن تتركاها حتى تريا جود لو. يقف قرب الشابّ العربي ذي السترة الجلديّة النبيذيّة في حلقة التفّت حول راهب أفريقي جاء ليعكس الآية ويبشّر بالإنجيل المقدّس والمسيحيّة، «أجدادكم أيّها الإنكليز قاموا بهدايتنا للمسيحيّة، وها أنتم قد نسيتم ما قمتم بتحفيظنا إيّاه».

أوشكت هدى وإيڤون أن تواصلا السير غير مباليتيْن بما يحدث حولهما إلى أن استوقفتهما جملةٌ من الراهب، وكانت بما معناه أنّ (الإسلام يتسلّل إلى الإنكليز عبر ما يأكلون من طعام وعبر النرجيلة).

«كلّما بلعتم دخانها، تسلّل بلاؤها إلى دمائكم وشراييْنكم. النرجيلة فتنة وستصابون بالارتخاء من تدخينها. وعندها ستهمس لكم (أنا من بلاد الإسلام، الإسلام، الإسلام؟)، وتغسل لكم دماغكم».

وبين الضحكات والقهقهات يعلّق جود لو:

«إنّه على حقّ، كلّ الحقّ! عندما كنت أدخّن الشيشة البارحة تصاعد مع دخانها جنّي وزمجر مهدّدًا: (عليك أن تعتنق الإسلام حالاً وإلّا فأنت هالك، أنت هالك، أنت هالك لا محالة)، قالها ثلاث مرّات، فأخذت أرتجف وأنا لا أعرف كيف أعتنق الإسلام! لكن زوجتي كانت أكثر فطنة منّي، فسارعت إلى التعرّي أمام الجنّي فإذا به يلحق بها ويتركني».

تتعالى الضحكات خاصّة من إيڤون: «لقد تسرّعنا بالحكم عليه، إنّه مهضوم وذكي؛ بفطِّس من الضحك».

بينما يضرب له الشابّ العربي السلام كأنّه يقوم بتهنئته على هذه المداخلة الظريفة، ثم يطلب منه أن يستمع إلى ما سوف يسأل الراهب.

«هل أستطيع أن أسألك سؤالاً شخصيًّا، آملاً أن تكون صريحًا معي!».

«تفضّل، إسأل، ما هو سؤالك؟».

«هل أنت مسلم؟».

«كيف عرفت هذا؟».

تقترب إيڤون من جود لو، بينما تعمّدت هدى الانشغال بالآيفون، لكن إيڤون سرعان ما عادت إليها. تمسك بيدها وتسرع الخطى في اتّجاه معاكس.

«لا بدّ أنّي فقدت جاذبيّتي هدى، أنا متأكّدة!».

«ماذا حصل؟».

«أثنيْتُ على لغته العربيّة وسألته أين درسها، فشكرني وقال في جامعة سانت آندروز، ثم مع السلامة، لم يسألني سؤالاً واحدًا رغم أنّي أخبرته أنّي لبنانيّة».

«لا بدَّ أنّه مخبر، يتغلغل بين الحلقات ويكتب التقارير للإسكوتلانديارد، هل لاحظتِ كيف أنّه ابتسم للشابّ العربي؟ أشارطك أنّه درس اللغة العربيّة والقرآن وحتى تفسير القرآن. تذكَّري الحرب على الإرهاب.

«شكرًا لمحاولتك رفع معنويّاتي».

«رفع معنويّاتك؟ أنت قنبلة جنسيّة!».

«قصدك القول إنّي قنبلة موقوتة ما إن يراها الرجال حتى يولوا هاربين».

«إيڤون.. المسألة واضحة وضوح الشمس. لقد مازح جود لو الراهب بطريقة وكأنّه يسخر من المسلمين، ثم تحدّث عن ذبح الحيوانات والحلال وكأنّه منهم وفيهم، ثم هرب منكِ! إنّه لا يريد أن يثير الشكوك إذا ما تعرّفت عليه! تحاشى أن يفصح لك بأيّ شيء عن نفسه!».

«لربّما هرب منّي لأنّه خجول؟».

«ممكن، يللا نبحث عنه».

ولم يكن من بين المتحلّقين حول الرجل الذي يبدو كأنّه من جمايكا والذي كان يردّد: 'Englishness is whiteness' ـ أن تكون إنكليزيًّا يعني أن عليك أن تكون أبيض، مشيرًا بإيقاع خطواته التي علت على صوته إلى ملصقيْن صنَّف عليهما البشر بحسب ألوان بشرتهم. وكان قد ارتدى بدلة عسكريّة واعتمر قبّعة يعود تصميمهما إلى عهد النازيّة الجرمانيّة، وشاربه الهتلري لم يكن منسجمًا مع دفء عينيه وأسنانه البيضاء الجميلة، فيخطو بجزمته وكأنّه يريد أن يثقب الأرض. (هكذا يراك البوليس الإنكليزي).

ولم يكن جود لو في حلقة الشابّ الإيرلندي الذي كان يلوم نرجسيّة النساء، التي أسفرت عن تلوّث الكرة الأرضيّة من صبغة شعرهنّ التي تجد طريقها إلى الأنهار والبحار. لكنّهما عثرتا عليه في أكبر حلقة يتجادل فيها خطيب مسلم من البنغال مع رجل أسود من جنوب السودان.. اتّضح لهما أنّ الخطيب كان يحاول التغطية على زلّة لسانه، حين قال للرجل الأسود إنّه لا مستقبل ولا حياة كريمة للسود إلّا باعتناقهم الإسلام، كما فعل مالكولم إكس والملاكم محمّد علي.

«تفضّلتِ ستّ إيڤون، هو جاسوس ونصف، يتسلّل إلى الحلقات التي يدور الحديث فيها حول الإسلام فقط!».

«طبعًا، الراهب الأفريقي مسلم!».

«إنّه يريد أن يكتشف الجهاديين، فهو يستفزّهم عمدًا بكلامه!».

كان الرجل الأسود يصرّ على الخطيب أن يشير إلى الآية

القرآنيّة التي تتحدّث عن حبّ الله للسود والتوصية بهم، بينما يتظاهر الخطيب بالبحث عنها في القرآن الذي كان يمسكه بيده، ثم يبرّر توقّفه عن البحث بأنّه لا يريد أن يبعث الملل في نفوس المستمعين إليه ومفضّلاً إنهاء خطبته.

«لماذا لا تعتذر لي، فذلك أفضل بكثير من النكران يا أخي المسلم!».

ارتباك الخطيب البنغالي أحزن هدى، خاصّة ملابسه البالية، لتجد نفسها تتدخّل؛ والدهشة التي بدت على وجه إيڤون وهي تسمع صديقتها لم تشكّل ربّما ذرَّة واحدة من دهشة هدى أمام نفسها، «القرآن لم يذكر السود بل..».

يقاطعها الشابّ الصحراوي «القرآن الكريم» يشدِّد على كلمة (الكريم) «عليك القول القرآن الكريم فهما كلمتان متلازمتان».

تتجاهله وتُكمل: «لكنّ النبي محمّد هو الذي..».

يقاطعها من جديد، «عليك أن تصلّي على النبي ﷺ عند ذكر اسمه».

«النبي محمّد هو الذي قال لا فضل لعربي على أعجمي إلّا بالتقوى».

يقف أمامها كمن يسدّ عنها الهواء «هل أنتِ صمّاء؟ إنّك لا تتحدّثين عن أقربائك، ولا عن رواية أو فيلم سينمائي، عليك أن تضيفي كلمة الكريم بعد لفظك للقرآن الكريم، وتصلّي على النبي ﷺ كلّما ورد اسم النبي صلّى الله عليه وعلى آله وسلّم».

«الرسول هو الذي أمر بعتق العبيد السود وجعلهم أحرارًا ونهى عن العنصريّة».

«استبدالك لكلمة الرسول لا يعني أنّك غير ملزمة بالصلاة عليه كلّما ورد اسم نبيّنا عليه وعلى آله وصحبه السلام، هل فهمتِ؟».

ليعلّق الشابّ العربي الظريف «هلّا تركتَ الأخت وشأنها أم أنّك تظنّ نفسك جيريمي باكسمان؟».

التصفيق الحارّ والضحك والقهقهات، وخاصّة من المتحلّقين الإنكليز، حمَّس الشابّ العربي على طرح النكات باللغة العربيّة..

«سوداني ولدت له زوجته ولدًا أبيض اللون فقال لها (عليكِ إعادته إلى الفرن)»، يضحك كلّ من يفهم اللغة العربيّة! «هل سمعتم بالمرأة السودانيّة التي شاركت في مسابقة جمال العالم، وفازت بلقب نيغاتيف الملكة؟».

تعلّق امرأة محجّبة على نكتته باللغة العربيّة:

«يا عيب يا عيب يا راجل، ألا تخجل من عنصريّتك هذه!».

«أنا أمزح فقط، ثم إنّني أنكّت على أبناء بلدي وجنسي وديني، وهذا هو أسمى أنواع التنكيت ونقد الذات أيضًا.. على كلٍّ هو صديقنا»، مشيرًا إلى الرجل الأسود، «ليس أسود بطبيعته لكن كشف لونه هذا من كثرة شربه للقهوة وتعرّضه للشمس».

«هل تحدّثتم بالإنكليزيّة من فضلكم؟» تنادي المرأة الإنكليزيّة فانيسا ردغريف.

يرتفع صوت الرجل الأسود متحدّثًا بالإنكليزيّة أوّلا ثم بالعربيّة: «سوادي هبة من خالقي، لقد خصّني خالقي بأن أكون على هيئة الليل ولونه، وفي الليل يسود الهدوء وتدخل السكينة في القلوب ويتسلّل ضوء القمر فينير الطرقات، وتتلألأ النجوم في السماء ليعدّها الصغار والكبار».

«لكن من هو جيريمي باكسمان؟».

«هو صحفي تلفزيوني لا يعرف الكلل أو الملل بأسئلته لمن يحاورهم خاصّة من السياسيين».. ليقترب منهما الصحراوي ويوجّه كلامه إلى هدى: «على المرء الذي يتحدّث عن الدين أن يطهّر لسانه قبل أن يلفظ حرفًا واحدًا وإلّا عليه إغلاق فمه».

وعندما لم تجبه هدى مكتفيةً بالتحديق فيه، قالت إيڤون بحنق:

«أنا سأردّ عليه ما دُمت ساكتة».

«لا» تعلّق هدى بصوت عالٍ حتى يسمعها «مع بعض الناس يكون الصمت أحيانًا أقوى وأبلغ من الكلام».

يتنقّل الصحراوي بنظره من إيڤون إلى هدى، ثم يهزّ رأسه كأنّه يستخفّ بهما ويمضي في طريقه، وما إن يبتعد حتى تقول إيڤون:

«روحة بلا رجعة!».

وتضحكان وتضحكان.

«راح أموت جوع، ما رأيك نأكل هنا؟».

«يللا».

ما إن تجلسا في مقهى الليدو حتى تتهالك هدى على الكرسيّ وتتنهّد تنهيدة عميقة:

«أعرف أنّه كريه، لذلك أردتك أن تصيحي في وجهه! يظنّ أنّ الدين ملكٌ له وحده. كيف يجرؤ أن يتحدّث معك ومع الآخرين وكأنّكم، آسفة، كالذباب! لو أنّي مسلمة لكنت لكمته لكمة أدميته بها!».

«وهل عليك أن تكوني مسلمة حتى تؤدّبيه!».

«حتى لا أبدو متعصّبة، طائفيّة».

تضحك هدى: «لقد فكّرت باسم ملائم له، تأبّط شرًّا.. نعم تأبّط شرًّا!».

* * *

(تأبّط شرًّا لقب لشاعر جاهلي؛ جاءه هذا اللقب من أمّه التي رأته مرّة يخرج حاملاً سيفه، فقالت لمن سألها عنه: تأبَّط شرًّا وخرج.

«تأبّط شرًّا، اسم على مُسمّى، اسم عظيم!».

«لو أنّك فكّرتِ بهذا الاسم قبل ذلك لكنت ناديته به».

«وعندها ينهال علينا ضربًا لأنّنا نقارنه بشاعر جاهلي!».

تتناولان وجبة من الأومليت بالفطر والبندورة. تتوقّف إيڤون عن الأكل قبل أن تُكمل نصف صحنها؛

«شبعت».

«معقول شبعتِ؟».

«ولأنّي لن أذهب إلى النادي الرياضي اليوم، لا تنسي أنّ عندي حفلة عرس اليوم، وفستاني خصره ضيّق».

«لكن مشينا من بيتك حوالى ساعة، وإذا أحببت نعود سيرًا على الأقدام».

«عظيم، وأتركك في الشقّة وأذهب إلى الكوافير، إلّا إذا غيّرتِ رأيك وجئت معي إلى العرس.. يا ريت، يا ريت!».

«صعب! أنا لا أعرف لا العريس ولا العروس».

«تعرفي! نشكر أله أنّي لم آكل كالوحوش، سيلبسني فستاني لبسًا».

«تركتني يا ملعونة آكل صحني وبقيّة صحنك! آه منّك».

تستأنفان السير، تمرّان بين الأولاد وأهاليهم وهم يطيّرون الطائرات الورقيّة مزركشة الألوان والمصنوعة على أشكال طيور كاسرة.

«تعرفي هدى أنّ المحلّلة النفسيّة التي ساعدتني كثيرًا هذه السنة، أكّدت لي بأنّ استفادتي من السير في الحدائق والمتنزّهات، تعادل فائدة حديثها معي وعلاجها لي. قالت لي إنّ مراقبتي لتبدّل الطبيعة المستمرّ، من تغيّر لون أوراق الشجر، إلى سقوط هذا الورق، ثم التبرعم والإزهار وعودة الخضرة لتكسو الأغصان التي تعرّت في آخر الخريف وفي الشتاء، إنّما تبعث في نفسي الأمل بأنّ حياتي أنا أيضًا سوف تتبدّل كما الطبيعة، ولن تبقى أموري على حالها».

«أكيد، معها كلّ الحقّ»، تجيب هدى رغم أنّها في بادئ الأمر تردّدت بالمجيء لزيارة صديقتها، فهي لا تريد أن تستمع إلى موضوع القحط العاطفي، لكن ما إن تقابلتا وجهًا لوجه حتى فرحت بها ولامت نفسها على أنانيّتها.

وكأنّ إيڤون قرأت ما كان يجول في خاطر صديقتها، فوقفت وضمّت هدى إلى صدرها وقالت:

«كم أنا سعيدة بزيارتك هذه، الصداقة أهمّ من الحبّ والعلاقة بين الرجل والمرأة؛ دفء الصديق يبقى حارًّا متوقّدًا كالجمر».

«وأنا أكثر سعادة لأنّي معك» ثم تسأل ضاحكة «لكن هل هذا من أمثال أمّك؟».

رجل في العقد السابع من العمر يقف مستندًا إلى الدرابزين الحديدي، ممسكًا بأوراق يعرضها على كلّ من يقترب منه بصمت، ثم يغادرونه بهزّة من الرأس تعاطفًا كأنّه يستجدي الحكومة الإنكليزيّة أن تساعد العراق في البحث عن الآثار التي نُهبت واختفت من متحف بغداد. تتكلّم معه هدى وإيڤون وتعرفان منه أنّه كان مسؤولاً عن أحد أقسام المتحف.

في هذه الأثناء يقترب من الرجل شابّ يبدو أنّه من الهند مقدِّمًا له كوبًا من الشاي وقطعًا من البسكوت. يتناول الرجل الكوب متردّدًا، ليعود الشابّ ويقف خلف طاولة عليها منشورات تتصدّرها صورة كأنّها لمهراجا من الهند. وما إن مرّت بجانبه هدى وإيڤون حتى أسرع الشابّ ومدَّ لهما بكُتيّب، لكنّ يدًا أخرى

امتدّت إليه قبلهما وأخذت الكتيّب ورمته على الطاولة.

كانت تلك يد تأبّط شرًّا؛ صرخ في وجه الشابّ الهندي الذي لا يكاد يصل إلى صدره، «شعوذة وهرطقة، دجّال زعم أنّه جاء إلى هذا العالم لهدايته».

«اتركه وشأنه» تزجره إيڤون.

«لا تتدخّلي بما لا يعنيكِ».

«أنت لا تتدخّل بما لا يعنيك، وليس أنا!».

تتناول هدى الكتيّب بنفسها من على الطاولة وتأخذ بتصفّحه بكلّ هدوء، وكأنّها ليست معنيَّة بما يجري أمامها.

«هل قلت لي إنّ كان هذا الكتيّب يأتي على ذكر الطريقة التي مات بها هذا الدجّال، وكيف طلعت روحه وبرازُه معًا في الحمّام؟».

ولمّا لم يسمع جوابًا من أحد، أضاف بلهجة التشفّي والسخرية:

«مات ميتةً مخزية مشينة لا تليق بمن يزعم بأنّه جاء ليهدي ويخلّص الكون، على كلٍّ»، يوجّه كلامه إلى هدى «لا أعتقد أنّه باستطاعتك التمييز بين الحقّ والباطل فيما يقوله هذا الدجّال، لأنّك تجهلين القرآن الكريم وتفسيره».

يجيب الشابّ الهندي بكلّ هدوء:

«لكن يا أخي، لا القرآن الكريم ولا الأحاديث النبويّة تذكر

أنّ من يعاني من الإسهال وتأتيه المنيّة في المرحاض يكون قد مات ميتة مخزية! أليس هو بالتالي إنسانًا آدميًّا؟ أليس من المنطق أن يتخلّص الإنسان من الطعام بالطريقة المعروفة؟».

«أوّلاً، أنا لست أخاك، وكفى قلّة أدب! أخشى بعد قليل أن تجعلنا نشهد كيف تتخلّص أنت من طعامك!».

تُسرع هدى بالخطى وتلحق بها إيڤون.

«لماذا لحقتِ بي، ظننت أنّك تتمنّين الارتعاش بين ذراعيْه!».

«لا بدّ أنّه يعاني من كبت جنسي، إنّه يكره المرأة والعالم كلّه، ذكّريني ماذا قالت لك عمّتك عن النخل والنحل؟».

«إنّ داخله يعجّ بالتطرّف الديني، يبدو أنّه نبذ كلّ شيء حتى أصبح الدين كلّ شيء في حياته. إنّه لا يتحمّل أيّ شخص لا يشاركه أفكاره خاصّة من المسلمين المزيّفين مثلي».

تسيران في درب من المفروض أن يأخذهما إلى خارج حديقة الهايد بارك وليس إلى وسطها. معظم الدروب سُدَّتْ، والعشب بات يخضع لعمليّة تجميل، كما تقول اليافطة التي تعتذر من الزوّار ومحبّي التنزّه، وتعِدُهم بعودة الحلّه الخضراء إلى الهايد بارك قريبًا جدًّا.

بدت الأرض وكأنّها مربّعات لوحة الداما. كلّ مربَّع له لونه ـ من التراب البنّي إلى الحشيش المصفرّ، إلى حفرة ماء راكد تعجّ بالغربان والحمام الذي جاء يبحث في اللاشيء. كلاب تركض

وتلهو مع بعضها بعضًا، وكأنّها تتعارك. وإذا بهما وسط السبيكرز كورنر من جديد. جود لو والشابّ العربي الظريف وخطيب مصري وسائح متفرّج يلوم أخوانه العرب في لندن لأنّهم أصبحوا جدّيين أكثر من اللزوم، بينما هم الذين يعيشون على كفّ عفريت يؤمنون بأنّ شرّ البليّة ما يُضحك. يخبرهم عن فتوى الشيخ الذي وافق للشابّ الذي أراد استعمال طريقة مبتكرة للشهادة بإخفاء المتفجِّرة في مؤخّرته، بأن يسمح لرجل آخر بمضاجعته أكثر من مرّة حتى تتوسَّع، «. . . وأنتم عارفين إيه!».

ليعترض الشابّ العربي الظريف ويؤكّد للسائح المصري أنّ العرب في لندن لا يفوتهم التهريج والمزاح، وروى له كيف أنّ شيخ جامع عربيًّا حرّم انتعال الحذاء الرياضي من ماركة نايكه NIKE، لأنّ هذه الكلمة تعني الجماع باللغة العربيّة؛ وحرَّم على النساء قيادة السيّارات خوفًا من إصابة مبايضهنّ بالأذى؛ وكيف حرّمت امرأة، نعم امرأة وليس شيخًا، على بنات جنسها المسلمات الجلوس على الكرسي أو الكنبة لأنّهنّ سوف يسترخين في مثل هذه الجلسة، وبذلك يسهل على الإنس والجنّ مضاجعتهنّ، ولا سيّما الجنّ، إذ إنّهم مغرمون بالنساء من الإنس.

لكنّ المصري يصرّ على أنّ حكاياته أكثر دعابة من حكايات عرب لندن، لذلك يروي قصّة ابن خالته الذي أصبح يعاني من ضعف جنسيّ أثناء اشتراكه في بداية الثورة ضدّ مبارك، وكيف أنّ الطبيب وصف له مشاهدة الأفلام الجنسيّة شرط أن يكون الممثّلون مسلمين!

وبينما الكلّ يضحك ويقهقه، يعلو صوت امرأة إنكليزيّة: «هذه أوّل مرّة أرى فيها عربًا ومسلمين يضحكون ويتندَّرون حتى في أمور الدين».

ويبدو أنّها جلبت الفأل السيّئ بجملتها هذه، إذ هبط تأبّط شرًّا على المصري يهدّده بأنّه سيحشو فمه بالقطن إذا لم ينسحب فورًا، ليرفع المصري يده مودِّعًا «يللا معلهش، باي باي لندن».

يتفرّق المتحلّقون وكأنّهم أسراب نحل جاءها خبر وجود رحيق لا مثيل له في مكان آخر لتنطلق بسرعة الصوت. أمّا هدى فعادت تتصادم مع الشابّ الصحراوي وبعنف أكبر هذه المرّة، عندما اقتربت منها المرأة الإنكليزيّة التي أثنت على الروح المرحة لدى المتحاورين المسلمين، وسألتها إن كانت مسلمة لأنّ لديها شيئًا تريد الاستفسار عنه:

«لقد وُلدتُ لعائلة مسلمة» تجيبها هدى، «وأنا مسلمة وغير مسلمة، عربيّة وغير عربيّة، والآن أنا إنكليزيّة» تمازحها إيڤون.

وبينما تبتسم هدى للإنكليزيّة مشجّعةً، ترى تأبّط شرًّا يقف على صندوق كالخطباء، «لا بدّ أنّه سمعني أقول بأنّي ولدت لعائلة مسلمة، وها هو يستعدّ للانتقام منّي». لتتنفّس الصعداء حين سمعته يعلن عن (مظاهرة من أجل سوريا أمام السفارة الأميركيّة في الساعة الثالثة من هذا اليوم).

«لي جارة تضع البرقع على وجهها» تشكو المرأة الإنكليزيّة لهدى؛ «آسفة أن أقول إنّي أخاف كلّما رأيتها، ولا أطمئنّ إلّا عندما أسمع صوتها. تساورني الشكوك، وأظنّ أحيانًا أنّها قد

تكون رجلاً! قد تكون كالإرهابي الذي استطاع أن يهرب بعد الصلاة في مسجد في لندن متخفّيًا بالشادور والبرقع؛ أو اللصوص الذين لبسوا البراقع وسرقوا المجوهرات من المتاجر! على كلّ حال، سؤالي هو: هل هناك نصّ في الشريعة يقول إنّ على المرأة أن تضع النقاب على وجهها؟».

تجيبها هدى على حدة «الإسلام لم يفرض لبس النقاب أو البرقع على المرأة المسلمة. إنّه بدعة، وإلّا لرأيت كلّ المسلمات يلبسنه أثناء تأدية فريضة الحجّ. أذكر أنّ أستاذ الدين في مدرستي في لبنان أخبرنا بقصّة طريفة حول أصل النقاب. قال لنا إنّ النقاب لم يكن معروفًا إلى أن لبسته فتاة من قبيلة عربيّة بعد أن قرّر والدها أن يزوّجها من شابّ لم تكن ترغب في الزواج منه، ولم يكن باستطاعة الأنثى أن تعترض على رغبات أهلها في ذاك العصر».

«آسفة، أيّ عصر؟».

«في القرن الثامن عشر، وربّما استمرّ هذا الحال حتى يومنا هذا في بعض مجتمعاتنا العربيّة والإسلاميّة؛ المهمّ أنّ الفتاة حاولت إقناع أمّها بأن تقف إلى جانبها بحجّة صغر سنّها. ولكنّ الأمّ رفضت توسّلات ابنتها. وعندما جاءت أمّ الشابّ (الخاطب) لزيارة عائلة هذه الفتاة كما كانت العادة، لتتفحّصها وتتمعّن في خلقتها وتتأكّد من أنّها ناضجة وتصلح زوجة لابنها، بدأت الفتاة بتنفيذ مخطّطها لإفشال مشروع الزواج؛ غطّت وجهها بقطعة من قماش أسود اللون، أنزلتها إلى ما دون رقبتها، بعد أن فتحت ثغرتين دائريّتين صغيرتين لعينيْها، ودخلت إلى حيث كانت أمّها

و(أمّ العريس) تنتظران، وأخذت ترقص وتحرّك عينيها وكأنّها مصابة بالجنون والبلاهة؛ واختطفت فنجان القهوة من أمام أمّ العريس وتظاهرت بأنّها تريد الشرب فدلقت القهوة العربيّة على غطاء وجهها الأسود، فما كان من أمّ العريس إلّا أن سارعت بالهرب. وحين علم والد الفتاة بحيلة ابنته وما فعلته، أقسم بأن يفرض عليها لبس القماشة السوداء تلك مدى الحياة. وشاع الخبر بين القبائل، وبعد ذلك لجأت الفتيات اللواتي يرفضن الزواج القسري، إلى هذه الحيلة. وأصبح النقاب لدى قبيلة الفتاة بعد ذلك تقليدًا معروفًا.. وانتشر مع مرور الزمن إلى القبائل الأخرى».

تشهق المرأة الإنكليزيّة «يا للغرابة! تُرى هل تعرف المنقّبات هذه الرواية؟».

«لا أعرف» تجيبها هدى.

«طبعًا لا تعرفين، لأنّك لستِ من أمّة محمّد ﷺ، لا بدّ أنّ هذه القصّة من تأليفك ونسج خيالك، أكيد من تأليفك!! ولكنّني سأتحرّى عنها» يقول تأبّط شرًّا. لقد كان خلفها إذًا، يتعقّب خطواتها، يراقبها.

«ما اسم هذه القبيلة أيّتها الفيلسوفة!».

«هذا ليس من شأنك، إنّي أتحدّث مع السيّدة، بيني وبينها. ولستُ خطيبة في حلقة».

«أنتِ طبعًا تتهرّبين من الجواب لأنّك لا تعرفين». وعندما رأت ابتسامة الشماتة على وجهه، والحقد قد تفشّى في عروقه،

لم تستطع السكوت فاستأنفت الحديث:

«آه، لقد نسيت ذكر اسم قبيلة الفتاة التي غطّت وجهها بالقماشة السوداء، إنّها قبيلة مطير أو المطير»، ونظرت إلى الصحراوي بابتسامة تعادل في قسوتها طعنة خنجر؛ لكنّه لم يأبه بردّة فعلها ليسألها من جديد: «لقد سبق لكِ أن قلتِ إنّ أستاذ الدين هو الذي روى لكم هذه (الحكاية) ولكنّكِ لم تذكري لنا أيَّ دين! وإذا كان جوابك بأنّه الدين الإسلامي فأنت واهمة، وأنتِ لستِ بمسلمة حقيقيّة: فها أنت مكشوفة الرأس، سافرة الوجه، عارية الذراعين»، يردّ عليها الصحراوي متهكّمًا.

«آه، نسيت أن أقول أيضًا إنّ الإسلام لم يفرض على المسلمة لبس الفساتين الطويلة الزاحفة على الأرض. الفساتين الطويلة وُلدت في الصحراء أيضًا، وكانت من بنات أفكار بنات القبائل؛ فقد كنَّ يتسلّلْن للقاء عشّاقهنّ تحت جنح الظلام، وحرصًا منهنّ على عدم اكتشاف الآخرين لآثار أقدامهنّ على الرمال، اخترعن هذا الثوب الطويل الذي يزحف فوق الرمال ويمحو آثار الأقدام».

يقاطعها وهو يتقدّم منها: «لقد طفح الكيْل ونفد صبري. أمنعك منعًا باتًّا أن تتحدّثي عن الإسلام بهذا الاستهتار»،

تتجاهله هدى وتكمل:

«وكم أتمنّى أن نتوقّف عن إعطاء النقاب كلّ هذه الأهمّيّة، فهناك مسائل حياة أو موت، كزواج القاصرات اللواتي لا يتجاوز عمر الواحدة منهنّ ثماني سنوات كما حدث في اليمن. بنات

كعرائس اللعب، يُجبَرْنَ ليصبحن هنّ أنفسهنّ عرائس لعب ربّما لليلة واحدة فقط، فالغالب أن تتوفّى من هول صدمة المضاجعة مع زوج بعمر والدها وأحيانًا بعمر جدّها!».

أصبح الغضب على وجه الشابّ الصحراوي مخيفًا ليقول لها باللغة العربيّة الفصحى:

«هل تعرفين أنّ الدجاجة تُذبح إذا صاحت صياح الديك؟»

«ماذا؟»

«الدجاجة، إذا صاحت صيحة الديك فلا بدَّ أن تُذبح، هل فهمتني الآن؟»

«لا أفهم اللغة العربيّة».

لتصيح به إيڤون بالعربيّة: «هل تهدّدها، هل تهدّدها؟».

«نعم، أنا أهدِّدها وأهدّدك وأهدّد كلّ من يتدخّل فيما لا يعنيه، لأنّه سيسمع كلامًا لن يُرضيه»

«أوه، أنظر إلينا، إنّنا نرتجف خوفًا» تردّ عليه إيڤون وهي تمثِّل الارتعاش.

تتدخّل المرأة الإنكليزيّة: «ماذا يحصل؟ هل كلّ هذا نتيجة سؤالي عن النقاب!».

وقبل أن يجيبها أحد، اقترب الشابّ العربي وقال لتأبّط شرًّا:

«لا حقّ لك يا أخ هشام في أن تكافئ أو تعاقب، ربّنا هو

الذي يجازي، ألم نتّفق على هذا الأحد الماضي!» ثم يقول لهدى «ما هذه المعلومات العظيمة عن البرقع يا بنت الأرز!».

تزداد حيرة هدى، كيف اتّفق أنّ تأبّط شرًّا، والذي اسمه هشام، سمع ما كانت تقوله للإنكليزيّة رغم أنّها لم تقف على صندوق كبقيّة الخطباء، ولم تجهر بصوتها بل تحدّثت إلى المرأة بهدوء وصوت خافت، محادثة عاديّة. لا بدّ أنّ هناك مخبرًا، جاسوسًا يتجسّس على كلّ من يأتي على ذكر الإسلام وينقله إليه. تُرى هل هو الشابّ العربي نفسه الذي قال لها من جديد «وأنا أعتقد يا أختي اللبنانيّة أنّ النقاب هو الأداة الأولى من أدوات النصب الثلاث، أمّا الثانية فهي ارتداء المرأة للثوب الأحمر والثالثة كحل العيْن».

ينادي رجل إنكليزيّ مسنّ ينفث سيجارة، «لي سؤال للسيّدة التي تحدّثت عن السود والإسلام»، لكنّ هشام يعترض:

«لا، ليس باستطاعتك أن تسأل أيّ سؤال لأنّ معلوماتها مشوّهة».

«هذا مؤسف، مؤسف للغاية» تنبري المرأة الإنكليزيّة، «المفروض أن يكون الحوار هو روح السبيكرز كورنر مهما تفاوتت عقلانيّته أو لامعقوليّته، ومهما علا التصادم واختلف الرأي؛ علينا أن نفهم أنّ هذا التقليد مرآة تعكس الديموقراطيّة التي تتمتّع بها إنكلترا».

«ماذا تريد أن تسأل؟»، توجّه هدى كلامها للرجل الإنكليزي.

«شكرًا. سؤالي هو التالي: ماذا يحدث للمنقّبات في يوم القيامة عندما ينهضن من قبورهنّ من غير نقاب؟».

تتحرّك هدى بصدد الابتعاد وعدم الإجابة، بينما يردّ عليه الشابّ العربي الظريف.

«ستعصى المنقّبات الله عن غير قصد منهنّ، إذ بدلاً من «تغطيته» ـ ويشير بيده إلى أسفل «سينشغلن بتغطية وجوههنّ».

يصوّب هشام الكلام للشابّ العربي بلهجة شمال أفريقيا، وكأنّه يمطره بوابل من الرصاص، ليردّ عليه الشابّ الظريف «هل تعرف ما قاله رأسي للساني؟ ما دمت أنت جاري فلن أعرف الراحة في حياتي».

يتجاهله هشام ويقول: «سننهض من رقادنا الطويل بدون أعضاء تناسليّة وسيغطّي الشعر كامل أجسامنا، ولا بدّ أنّ الله عزّ وجلّ، الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم، سيحيي العظام وهي رميم ويبعث الإنسان في أحسن صورة».

تتذكّر هدى أنّها سألت هذا السؤال بالذات لأستاذ الدين الذي أجاب آنذاك بأنّ الملائكة ستغطّي أجسامنا، بينما طمأنها والدها بأنّ الجميع سيكون منشغلاً باليقظة من الموت والعودة إلى الحياة من جديد.

تسرعان هذه المرّة وهما تخترقان الجميع خارجتيْن من الهايد بارك، لكن نداء الشابّ العربي وهو يسرع نحوهما يستوقفهما، «لحظة لحظة، لا تفارقاني قبل أن أتحدّث إليكما وإلّا فارقتني روحي!».

«هل نصحبه معنا إذا أراد؟».

«إلى أين؟ إلى العرس؟ أعتقد أنّه وتأبّط شرًّا يعملان معًا».

«ماذا لو ذهبنا نحن الأربعة في موعد غرام؟!»

يصل إليهما وهو يلهث..

«أريد أن أشكركما، فأنتما أفضل دعاية للإسلام، غير السياسي طبعًا. شابّة مثلك تتحدّث عن البرقع هي أهمّ من مئات الخطباء الذين يحاولون إقناع الغرب بأنّ هناك مسلمات عصريّات ونحيلات وشقراوات بعيون زرقاء وسمراوات جذّابات؛ لديّ فكرة: لماذا لا نبدأ نحن الثلاثة حوارًا تحت عنوان (بدون كلام، بل عناق مجّاني مع مسلمين)؛ ونسمح لكلّ من يريد أن يستفهم عن الإسلام من الرجال والنساء، أن يعانقنا، فلربّما أعطيناهم فكرة عن عفويّتنا وانفتاحنا؛ أنا اسمي بالمناسبة، الطاهر».

تعرِّفانه باسميهما، فيقترح عليهما..

«تشرفنا يا حبيباتي، كنت أقول لماذا لا نبدأ نحن الثلاثة هذا الحوار شرط أن ترتديا العباءة السوداء وتتحجّبا، ثم تزيدا من المساحيق خاصّة أحمر شفاه فاقع اللون، أو الأفضل أن تتنقّبا ثم ترفعا النقاب من حين لآخر. هل تتصوّران ردَّة فعل الرجال من الإنكليز؟».

«اخرس، اخرس يا معتوه، كنت أعرف أنّك معتوه لكن ليس إلى هذه الدرجة» يصيح تأبّط شرًّا كأنّه شقّ الأرض وظهر للثلاثة.

«ما دخلك بنا؟ نحن الآن لمعلوماتك لم نعُد في السبيكرز

كورنر، إنّه لقاءٌ شخصي. آه.. أين كنتُ يا حبيباتي، نعم كنتُ أقول هل تتخيّلان منظر امرأة منقّبة وهي تعانق رجلاً إنكليزيًّا؟!

وقبل أن يصل إلى حرف (الزين) في كلمة (إنكليزيًّا) حتى وقع أرضًا جرّاء لطمة مباغتة قويّة سدَّدها إلى وجهه الشابُّ الصحراوي. يتدفّق الدم من الطاهر، تنكفئ عليه إيڤون بينما تلحق هدى بهشام صائحةً:

«ما هذه الشراسة، ألا تخجل من نفسك! سأبلّغ عنك البوليس».

إيڤون تنادي «هدى، هدى».

«وأنتِ اسم على غير مُسمّى، اسمك بريء منك، أين أنت من الهدى، فأنتِ الضلال بعينه، وتذكّري أنّ مكانك هو المطبخ وليس هنا!».

تجيبه هدى بأعلى صوتها «نعم مكاني المطبخ، لأطبخ فيه حساءً من عظامك».

هل معقول أنّها تفوّهت بهذا، كأنّه نقل لها سوء أخلاقه.

سرعان ما تجمهر البعض حول المهرّج ومنهم الجمايكي ذو الشارب الهتلري، و ميرتل، و جود لو الذي ساعد الطاهر في النهوض ومسح له الدم عن وجهه، وأراد أن يستدعي الإسعاف ليعترض الطاهر:

«الأمر لا يستأهل! وإلّا تحجّج البوليس بهذه الحادثة ليتمركز بيننا ويضيّق الخناق علينا؛ الأفضل لي أن أغادر بسرعة قبل أن

يتّصل أحدهم بالبوليس».

«لماذا لا نأخذك إلى بيتك في تاكسي!» تقترح إيڤون وهي تنظر إلى جود لو فرحة لأنّه أصبح فردًا في المجموعة.

«الأفضل أن تعطوني أجرة التاكسي وأنا أدبّر أموري!» قال الطاهر، «كان جدّي دائمًا يذهب مشيًا على الأقدام من قريتنا إلى المدينة حيث كانت مدرسته؛ وصدف مرّة، وكان المطر منهمرًا بغزارة، أن مرَّ به رجلٌ على حماره، فاقترح على جدّي أن يركِّبه على الحمار مقابل عشرة قروش، فردَّ عليه جدّي قائلاً: لماذا لا تعطيني أنت خمسة قروش فأحملك أنت وحمارك على ظهري؟!».

يضحك الجميع، ويقول الجمايكي:

«سأرافقه حتى محطّة أندرغراوند (ماربل آرتش)، فهي قريبة جدًّا من هنا».

وأخذ الطاهر في هذه الأثناء يسير متّكئًا على الجمايكي. يودّع جود لو المصاب ويهزّ رأسه محييًا الآخرين قبل أن يغادر.

«شكرًا يا أحبّائي، كم أنا سعيد رغم كلّ ما حصل» يقول الطاهر، «عسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم. إنّي لم أتخيّل أبدًا أن تتبرّع ميرتل، ملكة العنصريّة ضدّنا، والتي لم أتردّد يومًا عن حرقصتها منذ أربع سنوات تقريبًا، والنازي ملك العنصريّة ضدّ الإنكليز، بل ويتنافسا على مساعدتي. وها هي أياديهما تتشابك وتتصافح بشكل عفوي من خلفي! أنظروا كيف تركا كلّ شيء وهبّا

لنجدتي. أمّا أنتما أيّتها الصديقتان اللبنانيّتان الجميلتان، السمراء والشقراء، فإنّني أتمنّى الزواج بكما معًا».

«هل أنت متأكّد أنّك لا تريدنا أن نأخذك إلى طبيب؟». تسأله ميرتل.

«لا، لا، شكرًا، لكن هل تعلمين ما سوف أفعله بك يوم الأحد القادم؟ أعدُكِ بأنّني لن أفتح فمي منتقدًا أو ساخرًا».

تبتسم له المرأة بمودّة وحنان، فيواصل كلامه:

«لكنّني سأثقب لك لسانك كما تفعل قبيلة بربريّة بالعروس ليلة زفافها، وأعلّق خاتمًا بالثقب وأربطه بخيط طويل لأشدَّ الخيط كلّما أردتُ إيقافك عن الثرثرة».

تضحك ميرتل بكلّ جوارحها وتقول له بارتياح «الآن أنا مطمئنّة عليك؛ أعتقد أنّك على ما يرام؛ سأراك إذًا الأحد القادم».

وتودّعه كلّ من إيڤون وهدى بقبلة على وجنتيه، «سنراك الأحد المقبل».

«وهو كذلك أيّتها السمراء والشقراء».

القسم الثاني

الفصل الثاني

تقف هدى أمام ملصقات الدعايات التي قامت بتصميمها إيڤون بعد أن استوحتها من واقع وأجواء الحياة اللبنانيّة التي ما زالت تذكرها من أيّام طفولتها وفترة المراهقة. ملصق المطربة البدويّة ذات الشفتين الممتلئتين والعينين المكحّلتين بالكحل الأسود، والشامة المعهودة على الخدّ، علامة الحسن والجمال. كُتب على الملصق «صبغة شعري هذه بلون حسّونتي». وملصق آخر لرجل يناول زوجته علبة حبوب مسكّنة وقد كتب عليها (تريدين التعرّف على صديقي الجديد؟ ها هو، إنّه أسبرو)، وتروح هدى تدندن وتغنّي الأغنية الدعائيّة القديمة «أسبرو خلّيه رفيقك، أسبرو خلّيه صديقك».

تهرع إيڤون من غرفتها وبودرة الخدّيْن في يدها لتكمل الأغنية

مع صديقتها «أسبرو يزيل الأوجاع والآلام، أسبرو، أسبرو، أسبرو».

ملصق آخر لحوريّة بحر بوجه سيّدة مجتمع من عائلة أرستقراطيّة كانت تلقَّب بإستر وليامز اللبنانيّة لإجادتها السباحة، ومن تحتها التعليق: (أنا أستعمل الفوطة النسائيّة الصحيّة Mermaid (حوريّة البحر) لأنّها تسمح لي بالغوص والسباحة طوال الوقت).

وكان هناك ملصق جعل هدى تنادي بصوت مسرحي يشبه صوت يوسف وهبي الممثّل المصري الملقّب بالممثّل الشيكسبيري: (من قال إنّ شرف البنت مثل عود الكبريت ما يولعش إلّا مرّة واحدة)!؟ كانت الكلمات بالعربيّة وترافقها ترجمة بالإنكليزيّة حول علبة بيضاء مفتوحة وكأنّها علبة مجوهرات تتوسّطها حبّة فراولة كأنّها جوهرة، ترافقها كلمات تقول: (لا تخافي يا عزيزتي الفتاة، لن يعرف سرَّك أحد، ما من طبيب يعيد لك عذريّتك أو صيدلي يبيعها لك. الحلّ السحري لك هو شراء عذريّتك من هذا الموقع: دبليو دبليو دبليو. هونغ كونغ وسنغافوره. كوم). تظهر إيقون من جديد وبيدها ستّ علب، «تفضّلي» تفتح واحدة «إذا أردت استرجاع عذريّتك ! تفضّلي».

«لا، لا، لا أصدّق!» تصيح هدى.

«صدِّقي ونصف؛ تحشر المرأة الفراولة هناك وحين يضاجعها العريس تنفعص الحبَّة ويسيل عصيرها كالدم القاني فيرتاح بال

العريس لأنّ عروسه عذراء! مسكينة خالتي، أصبحت راهبة وتزوّجت الكنيسة خوفًا من افتضاح أمرها، إذ إنّ خطيبها سافر إلى البرازيل بعد أن فضَّ بكارتها حرصًا منه على بقائها له، وحتى لا تفكّر بالزواج بغيره. ولكنّها، للأسف، لم تسمع منه أبدًا ولم يرسل في طلبها كما وعد، فلجأت إلى الكنيسة».

«إيڤون، أنت عبقريّة! الملصق أكثر من رائع».

«لا أعرف لماذا أرسلوا لي ستّ علب حين طلبوا منّي تصميم الملصق! والآن ماذا قرّرتِ؟ هل تغيّرين رأيك وترافقيني إلى حفلة الزفاف؟».

لمعت في خاطر هدى فكرة جهنّميّة!

«طيّب ماذا ستفعلين في غيابي؟».

«سألعب الشطرنج مع هذه العلب الستّ»، تتناول الفراولة بيدها، «وسأرتاح من خطابات السبيكرز كورنر، أو قد أنزل وأركب الباص السياحي؛ لا تقلقي سأدبِّر أموري».

تغادران البيت معًا؛ إيڤون بسيّارتها وهدى تسرع باتّجاه السفارة الأميركيّة، مشيًا على الأقدام، حماستها الهائلة للانتقام من تأبّط شرًّا تعرقل حركة ساقيها وتسرِّع نبض قلبها.

صخب المتظاهرين وضجيجهم أمام السفارة الأميركيّة. التكبير يطغى على ضوضاء السيّارات. رجال الشرطة في كلّ مكان. منقّبات وغير منقّبات، محجّبات مع أطفالهنّ ومن دون

أطفال. ملتحون وغير ملتحين. تكبير المتظاهرين الله أكبر الله أكبر، ودويّ أصواتهم في جنبات الميدان جعل الحمام يتطاير هنا وهناك.. وهي كالحمام تتردّد بما عليها أن تفعله.

لكن من هم هؤلاء المحتجّون؟ المعارضة الأولى أم جماعات متطرّفة أخرى؟!

وتشعر بأنّها دخيلة على المتظاهرين وعلى المكان كلّه؛ المفروض أن تتماهى معهم أو تتصنّع التعاطف مع ما يطلقونه من شعارات. فهل تهتف مع الهاتفين للاقتصاص من الأسد؟ هل تكبّر مع المكبّرين؟ تحاول أن تعثر على تأبّط شرًّا من دون جدوى. تجد نفسها تسير وتدخل ميدان غروفنر سكوير المقابل للسفارة الأميركيّة، فإذا بها ترى علم كندا يرفرف فوق بناية بيضاء عريقة في هندستها؛ يرفّ قلبها لرؤيته. لقد استبدلته بالعلم اللبناني الذي كان كلّما رأته تحسّ باللوعة وبالحاجة إلى البكاء في السنوات الأولى لمغادرة الوطن.

غريب! كيف سكت اللبنانيّون على عنف الحرب الأهليّة اللبنانيّة وولّوا الأدبار، ثم ليعبّروا عن احتجاجهم ومأساتهم في تلك البلاد البعيدة التي هاجروا إليها في الغرب خاصّة!

تخرج من ميدان غروفنر سكوير إلى المظاهرة غير مبالية بأنّها قد تلفت الأنظار وتثير الشبهات. تحاول أن تضيع بين الحشود وهي تبحث عن الأطول قامة من بينهم، عن هشام، وفعلاً لمحته بين المتظاهرين وهو يخبط بيده في الهواء، متمنّيًا لو أنّ يده كانت

سحريّة تستطيع الوصول إلى زجاج السفارة فتكسّره وتعبث بالسجلّات والوثائق والأوراق!

تنتظر هدى انتهاء الاحتجاجات وتَفرُّق المتظاهرين، وتتردّد في الاستفسار عن ذلك من فتاة محجَّبة ابتسمت لها: أرادت أن تسألها متى ستنتهي المظاهرة، لكنّها عدلت عن ذلك.

ولا يمرّ الوقت ببطء. الصراخ يأكل الوقت أكلاً، وبعض المتظاهرين يتفرّق. البعض يأكل الحلوى والسندويشات التي حملوها معهم. البعض يتبادل أرقام هواتفهم الخلويّة. تلاحق بعينيها الوجه الأسمر الذي فتح جبهة حرب معها في الصباح، وما إن رأته يغادر المظاهرة حتى لحقت به؛ تعجّل الخطى تارة وتتمهّل تارة، تقطع الشارع إلى الرصيف المقابل، تزاحم الناس، تتلكّأ، تتوارى عن الأنظار، وكأنّ على رأسها طاقيّة الإخفاء، حتى رأته يتوقّف عند موقف للباصات في شارع أوكسفورد ستريت، فأمهلته خمس دقائق قبل أن تتقدّم من الموقف ذاته. تحاول قراءة الشارة التي فوق العمود لتعرف وجهة باصات هذا الموقف. فجأة تمسك هدى بالعمود بيد، وتمسك رأسها باليد الأخرى؛ تتظاهر بأنّها تشعر بدوار وإعياء مفاجئ، فتحاول قبل أن تقع على الأرض أن تتشبّث بامرأة إنكليزيّة كانت تنتظر الباص. تتلقّفها الأيدي، تأخذ بالهلوسة، باللغة العربيّة، «يا إلٰهي سوف أموت، يا إلٰهي».

«لا نستطيع فهم لغتك! آسفين، هل تحدّثت إلينا بالإنكليزيّة، فنحن نريد مساعدتك» تقول لها السيّدة الإنكليزيّة. تفتح عينيها

وهي في شبه إغماءة. وعندما تلاحظ أنّ من بين الذين يحاولون مساعدتها الشابّ الأسمر تحدِّق فيه باستغراب وذعر، كأنّها تريد أن تسأله إن كان يريد حقًّا إنقاذها أو يريد أن يشهد بنفسه خروج أنفاسها الأخيرة!

«أرجو أن يطلب أحدكم سيّارة الإسعاف» تنادي المرأة، فيقترب تأبّط شرًّا ويتبرّع بذلك: «أنا سأطلبها»، ثم يقول لهدى بالعربيّة: «سأطلب لك سيّارة الإسعاف».

«لا، لا، أرجوك، لا داعي.. أنا أشعر بالتحسّن. لا أريد أن يأخذوني إلى المستشفى».

وما إن ترجم ما قالته هدى للمتجمّعين حولها، حتى انفضّوا من حولهما، فهما ينتميان إلى اللغة نفسها. لكن هدى لم تُظهر له أيّ مشاعر امتنان أو جحود، لم تبتسم ولم تعبس، فهي ما زالت في نصف غيبوبة.

«كاد يُغمى عليّ، لست أدري لماذا، عليّ أن أتّصل بصديقتي».

تبذل مجهودًا لتُخرج هاتفها الخليوي ومجهودًا أكبر وهي تحاول أن تجد الرقم الذي تريده لتترك رسالة بصوت خافت وضعيف.

«أنا هدى، لقد نسيت مفتاح البيت، أشعر بتوعك، أرجوك الاتصال بي فورًا». ثم تقول للصحراوي: «صديقتي ليست بالبيت، أريد أن أجلس قليلاً، هل تساعدني للوصول إلى أيّ مقهى قريب؟».

«هل آخذك إلى طبيب؟».

«أشعر بتحسّن، أريد فقط شربة ماء وأن أستريح قليلاً».

«تعالي معي».. ولم يوقف تاكسي أجرة، مع أنّه سألها إن كان بوسعها السير. يسيران معًا، خطواتهما هي الوحيدة التي لم تكن تعاني من الارتباك ككلّ شيء آخر. سارا معًا وكأنّهما لم يتباغضا من قبل.

يصلان إلى أحد مقاهي ستاربكس في بداية شارع أوكسفورد ستريت، وما إن وجد طاولة خالية بادرت هدى بالجلوس وظلّ هو واقفًا من دون أن ينبس بكلمة واحدة، كأنّه تذكّر فجأة بأنّه يكرهها:

«مع السلامة».

«شكرًا، شكرًا جزيلاً، أزعجتك، أنا آسفة!».

«لا شكر على واجب».

«مع السلامة، شكرًا مرّة أخرى».

تركته يبتعد بضع خطوات ثم تنادي: «يا أخ، لو سمحت!».

عاد إليها لتقول له:

«هل يمكن أن أدعوك إلى فنجان قهوة أو كوب من الشاي؟».

«لا، شكرًا لك، لا داعي لذلك».

«أعرف ولكن أرجوك، أرجوك».

«عليَّ أن أعود إلى عملي».

«طيّب، آسفة، ظننت أنّك لا تعمل يوم الأحد، أنا... أشعر بالتعب. يرتعش صوتها وكأنّها على وشك البكاء. أريد أن أتمدّد، وصديقتي لم تتصل بي بعد» وتأخذ في البكاء.

«لماذا لا تتّصلين بصديقة أخرى؟».

«أنا لا أعرف أحدًا هنا، أعيش في كندا؛ هل تعمل معي معروفًا وتأتيني بفنجان شاي!» تمدّ له خمس جنيهات وتطلب منه أن يشتري له أيضًا شيئًا يشربه، فيأخذ النقود ويتوجّه إلى كشك المشروبات، وتلاحقه بنظراتها تتأمّله وهو يقف في الصفّ منتظرًا دوره وتسائل نفسها: تُرى، ما هو عمله، لماذا يعمل يوم الأحد، من هو، هل يعيش وحيدًا، وسرعان ما يعود بكوب شاي واحد، ويعيد لها فراطة الخمسة جنيهات قائلاً: (لقد تأخّرت عن عملي).

عندما تضع يدها على رأسها وتتنهّد بكلّ جوارحها يقول لها: «هل آخذك إلى بيت صديق لي، زوجته طيّبة جدًّا».

«هل لديها أطفال؟».

«نعم، إنّهم مهذّبون ولن يزعجوكِ».

«لا، أنا لست قلقة على نفسي بل أخشى عليهم من التقاط أيّ عدوى، فلربّما كانت عندي بدايات أنفلونزا»، وتتحسّس جبينها.

ينظر إلى ساعته «آسف، لقد تأخّرت يجب أن أذهب».

«شكرًا جزيلاً، مع السلامة»، حنت رأسها وراحت تبكي من جديد.

«تعالي معي.. اطمئنّي، وتأكّدي يا أخت أنّك ستكونين معي بخير وأمان».

يزداد بكاؤها وهي تتمتم «أنت شهم يا أخي، أنت شهم».

تنهض بمساعدته ويسيران معًا، يركبان الباص، فيتركها تدفع الأجرة عن نفسها، تتلكّأ في السير عندما انتبهت أنّها حين ترجّلت من الباص أخذت تسير بنشاط، فتوقّفت قليلاً ثم استأنفت سيرها، وبدأت تتنفّس بصعوبة إلى أن وصل بها إلى بناية سكن ذات باب من حديد مخرَّم باللون الذهبي ومبطّن بالزجاج؛ بُهرت، وما إن قالت في نفسها (أكيد البطالة لم تكن سبب هجرته إلى هنا، وإنّ تعصّبه ليس نتيجة البؤس كما ظنّت)، قال وهو يفتح الباب:

«أنا أحد بوّابي هذه العمارة».

إنّها عمارة عريقة: ثريّا من الكريستال تتلألأ داخلها الأنوار، ومرآة مذهّبة، وكرسيّان حول مدفئة جميلة. يقتربان من البوّاب الآخر الذي كان يجلس في غرفة صغيرة قرب المصعد، فيبادره هشام:

«متأسّف، تأخّرت عليك ولكن هذه الأخت تعبت قليلاً، وكانت وحدها ولم تستطع العثور على صديقتها. إنّها غريبة في لندن، فهي زائرة من كندا. سأدخلها غرفة الاستراحة لبعض الوقت».

«طبعًا طبعًا» يجيب البوّاب ذو اللهجة الإيرلنديّة. يأخذها إلى الطابق السفلي سيرًا على سجّاد رمادي اللون كلون جلد الفأر، على عكس سجّاد المدخل الفخم المزخرف بالألوان الجميلة. كلّ ما في هذا الطابق رماديّ اللون، الأرضيّة البلاستيكيّة والجدران.

يصلان إلى غرفة واسعة بداخلها كنبة كبيرة وجهاز تلفزيون صغير وثلّاجة وسخّان ماء ومايكروويف.

«استريحي يا أختي هنا على الكنبة، ولن يزعجك أحد، هل ترغبين في كوب من الشاي؟».

«لو سمحت!»

أغمضت عينيها وهي ترهف السمع لكلّ حركة تصدر عنه؛ إنّه في منتهى التديّن والجدّيّة؛ يبدو صلبًا كصندوق من الفولاذ؛ إنّها لن تستطيع النفاذ إليه ولو بمقدار قيد أنملة. وتفكّر في نفسها: (عليّ المغادرة بعد أن أشرب الشاي).

«ها هو الشاي، تفضّلي، وباستطاعتك البقاء هنا كما يحلو لك، لن يزعجك أحد».

يهمس لها كوبُ الشاي أن تنهض وتغادر فوْرًا، لا لأنّه أردأ الأنواع بل لأنّ تأبّط شرًّا فاجأها بحنانه، لا، ليس حنانه بل إنسانيّته، بالشعور بالواجب كونها مسلمة! لكنّها ليست مسلمة تمامًا في نظره، ولا في نظر روبرتو وأستاذها في كندا ونظر الكثيرين من الرجال ومنهم الأجانب، إذ اتّفق الجميع على أنّها ليست مسلمة إلّا في هويّتها الشخصيّة اللبنانيّة.

(وهل أعرِف نفسي؟ هل أنا هنا من أجل أن أؤكّد له بأنّه على خطأ لأنّه أسير الدين والتزمّت، وبأنّني على صواب لأنّني أعيش حياتي بكلّ حرِّيّة؟).

تتمدَّد على الكنبة؛ أصوات أحذية المارّة على الرصيف كأنّها تخبط داخل الغرفة. الضجيج داخل البناية وخارجها لا يتوقّف. صوت دورة المياه والحمّامات والخزّانات والمراوح، وكأنّ البناية بكلّ طوابقها ترمي بتعبها على هذا الطابق السفلي؛ تسمع أصوات خطى من ينزل ويصعد. حتى إنّها سمعت طبّاخًا يشكو من تكرار إعداد الوجبة نفسها كلّ يوم لسيّدته العجوز.

تمضي ساعة، تدخل في هذه الأثناء خادمة وتعدّ لنفسها فنجانًا من القهوة، وتجلس على كرسيّ لتشربه، ثم تغادر الغرفة وكأنّ هدى ليست موجودة. وحين لم يعد هشام تأكّدت أنّه لن يأخذ المبادرة لرؤيتها والاطمئنان عليها. تنهض وتصعد الدرجات القليلة إلى حيث يوجد المكتب، فتراهُ في الغرفة الصغيرة يجلس وحيدًا يقرأ في كتاب دراسي باللغة الإنكليزيّة.

«هل أنت ذاهبة؟».

«صديقتي اتّصلت بي وقالت إنّها لن تعود قبل منتصف الليل. أنا ما زلت فعلاً مريضة. هل تعرف فندقًا صغيرًا يمكن أن يؤجّرني غرفة لبضع ساعات، وهل تعرف طبيبًا خاصًّا يمكن أن تأخذني إليه؟».

«أنصحك بالحجامة، هناك من يقوم بإجرائها ولديّ العنوان،

يمكن أن تأخذي الباص إليه. أو إذا شئت أطلب لك سيّارة أجرة (ميني كاب) وهي أرخص من سيّارة الأجرة السوداء».

«ماذا قلت؟ هل قلت حجامة؟! ما هي؟ هل هي كلمة عربيّة؟».

يفتح الإنترنت ويستخرج الكلمة ويدعوها لقراءة الصفحة، فتنحني برأسها وتقرِّبه منه عن قصد ليهبَّ واقفًا مبتعدًا عنها، وتقرأ جملة أو جملتين ولم تستطع فهم المعنى إلّا حين شاهدت صورة (كاسات الهواء).

«آه، أعرفها إنّها كاسات الهوا، وكانت أمّي تضعها فوق ظهري كلّما أصبت بالبرد أو أيّ التهاب رئوي؛ كنت أخاف منها»، وتضمّ هدى ذراعيها على صدرها كالطفلة حتى لا تربكه أنوثتها. «كانت أمّي تشعل النار في قطعة قطن وتضعها رأسًا داخل الكأس ثم على الظهر». تدنو من الصفحة في الكومبيوتر لتقرأ (إنّها سُنَّة نبويَّةٌ صحيحة وحتى الملائكة أوصت بها).

لم تقل له إنّ التناقض بين تكنولوجيا الكومبيوتر ووصف الحجامة على شاشته لا يُصدَّق.

«لا أصدّق أنّهم ما زالوا يتّبعون الطريقة نفسها. لا، لا، لن ألجأ إليها أنا أخاف، أموت رعبًا منها».

«إذا توكَّلتِ على الله فلن يخيفك شيء في هذه الدنيا ولن يصيبك مكروه؛ قُل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا».

«لا أعرف ماذا حدث لي، كنت في الصباح في أوجّ نشاطي وصحّتي. كلّ ما أريده الآن التمدّد والنوم. رجاء خذني إلى فندق رخيص أستأجر فيه غرفة وأنتظر عودة صديقتي».

«تعالي يا أخت، سآخذك إلى غرفتي الخاصّة. فأنا لن أدخلها قبل خمس ساعات من الآن. أي حين ينتهي دوامي».

عظيم، تقدّم ملحوظ. إنّها تنفذ إليه ولو من خرم الإبرة.

«مشكور يا أخي، هل أنت متأكّد، لا أريد مضايقتك، لقد أرسلك الله لنجدتي، لا بدّ أنّه استجاب لدعوات أمّي لي؛ هل نأخذ تاكسي؟».

«الله سبحانه وتعالى» يقوم بتصحيحها ثم يكمل «أنا أسكن هنا، انتظري حتى أغلق باب العمارة»؛ وما إن فعل حتى هبط بها إلى الطابق السفلي من جديد وقادها في ممرّ آخر إلى أن وصلا إلى غرفته؛ فتح الباب؛ اشتمّت رائحة الخباء مختلطة برائحة مبيد الحشرات ومساحيق التنظيف. في الغرفة كرسيٌّ وسرير وطاولة تكدّست فوقها الكتب، وفوق رفّ متواضع أكياس المعكرونة والأرزّ وعلب صلصة البندورة. يفتح دولابًا ويخرج منه شرشفًا قديمًا ولكنّه نظيف، يضعه ويمدّه فوق السرير.

«إن شاء الله ستشعرين هنا بالتحسّن يا أخت؛ لا إلٰه إلّا الله».

ولم تجبه كما يجب بالقول (محمّد رسول الله). تفرد شالها الخفيف فوق كلّ شيء وتُسرع في التمدّد. تريده أن يراها راقدة

فوق سريره. لكنّه لم يلتفت إليها، خرج وردَّ الباب خلفه. وضعت قدميْها المتعبتيْن وليس رأسها، على المخدَّة، فهما الأحقّ بالراحة هذه المرّة، لتنهض بعد قليل وتبدأ بتفقّد أشيائه لربّما تضع يدها على الكحول أو شيء يناقض تعصّبه وتحجّر عقله الشديدين أو يفضحه.. فلون وموضة بنطلونه الزيتي والإيشارب الصوفي بلون الكوبياء، خاتم إصبعه الفيروزي، السوار الفضّي، الحذاء الرياضي، عيناه الواسعتان المكحّلتان من دون كحل، وشعره المقصوص.. كلّها أشياء تشير إلى أنّه من روّاد النوادي الليليّة، ومن النوع الذي يرقص وفي يده كأس الويسكي غير المخلوط بالماء بدلاً من المسبحة والصلاة خمس مرّات في اليوم.

تذكّرها غرفته هذه بغرف أقرباء لها وحتى بغرفة والدها وهي ترى القرآن الكريم وكتب الأحاديث النبويّة مصفوفة على الطاولة.

وملصق لمعرض (الحجّ)، حيث بدت (الكعبة المشرَّفة) وكأنّها بؤبؤ عين مربّع أسود داخل بياض العين. ومن حولها يصلّي الناس أو يطوفون وكأنّهم شرايين العين السوداء. تقرأ (الحجّ، رحلة إلى قلب الإسلام)، وهناك تعليق ربّما كتبه هو أو شخص آخر (معرض عن الحجّ في قلب المتحف البريطاني، وكم أتمنّى لو أنّ المعرض قد امتدّ إلى جميع قاعات المتحف).

القرآن الكريم وصورة الكعبة ما زالا يتصدّران غرفة الجلوس في بيتهم في بيروت. أثناء زيارتها الأخيرة إلى لبنان قبل ثلاث سنوات، نظرت إلى صورتها الموضوعة تحت زجاج الطاولة وهي في ثوب التخرّج الأسود والقبّعة التي كانت قد أرسلتها إلى أمّها

من تورونتو، إلى جانب صورة والدها في عباءته وعمامته، وصورة لأخيها وهو يحمل سمكة كبيرة كان اصطادها لتوِّه.

ما زالت تذكر كيف سألتها صورتها أن تتحلّى بالصبر، تطمئنها بأنّها ستعود إلى كندا بعد عدّة أيّام. ضاقت ذرعًا بأسئلة أمّها التي كانت تدور وتتمحور حول السبب في عدم زواجها حتى الآن! ولم تكن هدى نفسها تعرف السبب في الواقع، وتجد نفسها الآن وهي في غرفة المتديّن تجيب أمّها: (ربّما لن أتزوّج مطلقًا، أمّا أنا ولمعلوماتك فإنّي جارة لإبليس). كانت أمّها تبسمل كلّما رأت عمّالاً يحفرون عميقًا في طرق بيروت، (ترى، ألا يخافون من أن يصلوا إلى إبليس؟) (لكن لا تخافي.. فإبليس قد ولّى هاربًا من صلوات الشابّ المتديّن الذي، وبالمناسبة، أنا في غرفته هذه اللحظة).

غريب، كيف رضيت لها أمّها المتديّنة المحافظة أن تسافر إلى كندا، إلى المجهول، من غير أن يخطر ببالها أنّها ستكون هناك حرَّة تماما لا رقيب ولا حسيب؛ تعاشر من تريد ومتى تريد!!! وكيف اتّفق أنّها فكَّرت بأنّ أخاها سيلازمها في كندا ليل نهار وكأنّه حارس على أخته، رغم أنّ المسافة بينهما تزيد عن ساعة ونصف الساعة بالقطار.

عندما أقفلت المدارس والكلِّيّات أبوابها في صخب الحرب الأهليّة، استدانت أمّها المال من أجل أن ترسلها إلى كندا حتى تكمل تعليمها:

(هذه أمنية والدك الشيخ، كان يؤمن بضرورة تعليم البنات تمامًا كالذكور. يريدك أن تصبحي ذات شأن: محاميّة أو مستشارة سياسيّة، كالنساء في زمن النبي ﷺ).

ولطالما دافع عن هدى حين كانت أمّها تصيح وتتوعّد وترغمها على المشاركة في أعمال البيت، فكان يقول: (اتركيها تركّز على دراستها، دعيها تغرق في كنوز العلم والمعرفة، فالمدرسة أهمّ لها الآن من أشغال البيت، دعيها تؤمّن مستقبلها).

فكّرت هدى أنّ الحرب قد حدثت وحصدت أرواح الشباب والمخطوفين والمقاتلين من أجلها، من أجل أن ينسى الجميع أنّها قد تسبّبت في موت والدها. ولكنّها عادت وغيّرت رأيها؛ فالحرب هي الحرب. خافت منها ومن شظاياها؛ الموت حولها يدور باحثًا عن ضحايا جديدة كلّ يوم. فابن الجيران حسّان ذهب إلى بيت خالته ليجلب فستان أمّه، وفي طريق عودته أصابته شظيّة ومات في الحال. كذلك البقّال، وجارتهم وأطفالها، وصديق شقيقها.

«لماذا يتقاتلون؟». كانت دائمًا تتساءل؛ «هل من أجل سنّ قانون لمنع الجوع والمرض؟ لتوفير الملابس للجميع؟ العلم للجميع؟ أو لأنّ الذين شنّوا الحرب بكلّ عنف آمنوا بأنّ الإنسان هو مجرّد حيوان متوحّش عليهم إبادته!».

في أيّام السلم، عندما كان الجزّار يذبح الدجاجة، كانت تشفق عليها وهي تراها تتخبّط وتقفز مذعورة من شدّة الألم

ودماؤها تنفر من رقبتها؛ تتمرّغ في تراب الحديقة أو في الشارع والصغار يعدون خلفها محدثين مزيدًا من الرعب في قلب الدجاجة! وهدى تودّ لو تحملها وتحضنها وتضمّد لها جراحها، ولكنّها كانت تكتفي بالكتابة بالطبشور الأبيض على الأرض التي خرّت فوقها الدجاجة جثّة هامدة. (شجرة النسيان لا تنبت حيث تسيل الدماء)، جملة تعلّمتها في المدرسة وظلّت عالقة في ذهنها.

أليس من الغريب أن يقول لها تأبّط شرًّا بأنّ الدجاجة التي تصيح كالديك لا بدّ أن تُذبح! وها هي الدجاجة متمدّدة الآن في قنّ الديك الذي فتح لها باب القنّ بنفسه!

تسمع هدى طرْقًا على الباب، تُسرع بالنهوض من نومها العميق، فهي ما زالت تعاني من فرق التوقيت بين ضفّتي الأطلسي. ترى هشام يقف بعيدًا في الرواق.

«آسفة إن كنتَ قد انتظرتَ طويلاً، لقد نمت نومًا عميقًا، لحظات، سأغادر حالاً».

«هل عادت صديقتك إلى بيتها؟».

«لا، لا أعرف، ولكنّني سأغادر على أيّ حال، شكرًا لك، ولن أنسى معروفك أبدًا».

«الشكر لله ولا أجر لمن لا حسنة له!»

تسرع إلى أخذ شنطة يدها من على الكرسي، وتجلس على السرير لتلبس حذاءها وهو ينتظر خارج الغرفة. ارتدت سترتها وخرجت؛

«شكرا على كلّ شيء، مع السلامة».

«رافقتك السلامة» يدخل غرفته ويردّ الباب.

تبتعد خطوات قليلة وتعود وتدقّ بابه:

«تلفوني، يمكن نسيته هنا» تدخل الغرفة على مهل، ترفع الشرشف عن الفراش بكلّ بطء، وتقوم بطيِّه: «سآخذ الشرشف معي لأغسله وأكويه وأعيده لك».

«لا، لا داعي لذلك».

ولمّا لم تجد تلفونها انحنت تحت السرير وطال انحناؤها عن قصد؛

«ما هو رقمك حتى أتّصل به».

«لا أعرف فقد اشتريته هنا في لندن ولم أحفظه بعد».

يبحث عنه معها وهو يبسمل تمامًا كما كان يفعل أبوها وأمّها، والفارق أنّهما كانا يجدان الشيء المفقود بسرعة وكلّهما إيمان بأنّ الله استجاب لصلاتهما واستغاثتهما».

«هل ذهبتِ إلى الحمّام؟».

تمسك هدى برأسها تتصنّع الخجل وتسرع بالدخول إلى الحمّام، تنتظر لحظات قبل أن تصيح متذمّرة:

«ماذا فعلتُ يا إلٰهي حتى تعاقبني؟»، ثم بصوت أعلى «يا ربّي ساعدني، لماذا لا تساعدني يا ربّ؟».

وأجهشت ببكاء كأنّه العويل.

طلب منها أن تخفض من صوتها حتى لا يظنّ من يسمعها أنّ أحدًا يضربها. سارعت إلى فتح علبة العذريّة لتدفش الفراولة في مهبلها. ولم تخرج من الحمّام إلّا عندما همس لها «يا أخت هدى، يا أخت هدى!».. وحين رأى أنّها ما زالت تجهش بالبكاء، طلب منها أن تعود إلى الغرفة واضعًا إصبعه على فمه كإشارة منه بأنّ عليها أن تتمالك نفسها وتهدأ.

«لا أعرف ما حصل لي، فمنذ ذهابي إلى السبيكرز كورنر هذا الصباح وأنا أصادف المشاكل: أوّلاً كان الغراب الذي أسقط وسخه عليّ؛ ثم أنت صرخت في وجهي وبهدلتني؛ وفقدت ثلاثين جنيهًا في المطعم؛ ونسيت مفتاحي في البيت؛ وصديقتي التي رأيتها معي لم تأخذني معها إلى أوكسفورد كما وعدت؛ ثم أصابني الدوار وكاد يُغمى عليّ أمامك عند موقف الباص، والآن أضعت تلفوني، لا أستطيع تحمّل كلّ هذا».

يزداد بكاؤها وترتمي عليه وهي تشهق؛ وكلّما حاول إبعادها عنه التصقت به أكثر.

تشعر بنبض رقبته ينتفض رغم تململه منها ومحاولة إبعادها عنه. وحين تمكّن من إزاحتها عنه قال لها مؤنّبًا وبعصبيّة.

«يا أخت، أرجوك تمالكي نفسك!».

«وهل ترى أنّ لديّ نفسًا حتى أتمالكها، أشعر بأنّي لا شيء، وبأنّ نفسي قد غادرتني، أشعر..».

«طيّب طيّب، تعالي معي، سآخذك إلى شارع إدجوير رود

كي يجروا لك الحجامة، فهي مفيدة أيضًا للتعب والإرهاق وآثار العين الحسود والسحر والكتابة والحجابة»؛ ثم يقول لها «لا بدّ أنّ هذا أصابك نتيجة ما ضمرتُهُ لك من سوء هذا الصباح من شدّة غضبي عليك؛ سامحني يا ربّ»، ثم يعلو صوته: «سامحيني يا أخت».

«كرهتني لأنّك كرهت أفكاري، هل أنت رجل شرطة تمسك بمفاتيح زنزانات العقول؟ لكنّها قالت له بكل وهن وضعف:

«لا بدّ أنّ الله استجاب لما ضمرتَه لي لأنّك متديّن وتخاف الله، أمّا أنا فأراد الله أن يلقّنني درسًا؛ قصدت أن أقول الله جلَّ جلاله، أرجوك أن تسامحني حتى أتخلّص من هذا الشرّ الذي يلاحقني»، ثم انقضّت عليه تحضنه وكأنّها بعوضة تودّ أن تمتصّ دماءه. إنّها تسمع ضرباتِ قلبه.

«يا أخت، يا أخت» يبعدها عنه، هذا الذي تفعلينه حرام، إنّه يتعارض مع ديننا الحنيف، إنّك تفسدين وضوئي وصلاتي وتوقعيني في الإثم».

«لكنّ الله تعالى يعلم أنّ نيّتي صافية، والأعمال بالنيّات، أليس كذلك؟».

يعلو صوته منذرًا إيّاها وكأنّه يتكلّم في السبيكرز كورنر: «هل جُننتِ؟ أنا لا تهمّني النوايا، إنّ ما تقومين به حرام في حرام، أرجوكِ، لا أريد أن أندم على عمل المعروف؟».

«آسفة آسفة» تتمتم وهي تنظر إلى السقف، وبعد أن اطمأنّ

أنّها لن تقترب منه مرّة أخرى فاجأته ورمت نفسها عليه وضمّته إليها بقوّة كأنّها تعصره وهي تقول: «آسفة آسفة يا أخي، لا تزعل منّي». يخلع نفسه منها وهو يرفع يديه إلى السماء ويقول بصوت عالٍ: «سامحني يا ربّ، لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم»، ويسرع إلى النافذة يفتحها بعنف كأنّه سجين؛ يستجير بالله ويطلب منه أن ينقذه أو يخفّف عنه البلاء، لكن ضجيج السيّارات هو الذي حشر نفسه في الغرفة، كذلك هدير المدينة. يمسك برأسه ويتمتم «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم؛ تمالك نفسك يا هشام؛ تذكَّر العلي القدير، العجلة من الشيطان؛ لا تتسرَّع؛ ستندم وتهبط إلى أسفل السافلين؛ الآخرة أبقى لك من متعة زائلة!».

يشدّ على قبضة يده ويخبطها بالجدار بباب الثلّاجة وفي الجدار الآخر. يحاول تهدئة نفسه والتخفيف من هياجه، وهدى تقف أمامه في دهشة وذهول كأنّها أمام مشهد درامي أغرب من الكثير من المشاهد المسرحيّة التي شاهدتها في حياتها والتي قامت بإخراجها. خبط بيده على بنطلونه وصاح: «لماذا لا تهدأ؟ لماذا لا تنام؟ لماذا لا تطمر نفسك؟ هل أنت حيوان بهيم؟ هل تريدني أن أقتل نفسي حتى تستكين أنت وتهدأ؟».

ترتعد هدى، تلوم نفسها، من أين أتت بقسوة القلب هذه! وما إن فتحت فمها لمواساته والاعتذار عمّا بدر منها، وهذه المرّة بكلّ صدقٍ، حتى انتفض مبتعدًا عنها رغم أنّها لم تقترب منه، رافعًا ذراعيه عاليًا، ويحرّكهما كأنّهما مروحتا طائرة هليوكوبتر حتى يمنعها من الاقتراب منه.

«أنا آسفة جدًّا جدًّا أخ هشام، صدّقني لم أقصد ما... على كلّ حال أنا ذاهبة، وإذا عثرت على تلفوني فأرجوك أن ترميه في سلّة المهملات»، تفتح باب الغرفة لتخرج إلّا أنّها فوجئت بخادمتين ترتديان مريولين أزرقين تحاولان سحب سجّادة ثقيلة فلم تستطع المرور. ليمازح هشام الخادمتين: «لقد ضبطناكما بالجرم المشهود وأنتما تحاولان سرقة السجّادة» ثم قدّم لهما هدى:

«هذه شقيقتي هدى» ونظر إلى هدى:

«آه، لقد نسيت، علينا أن نتحدّث إلى والدتنا، تعالي تعالي».

لحقت به وقد فرح قلبها، «لكن ظننت أنّ المسلم لا يكذب ولا ينافق يا شقيقي»!

«أنا لم أكذب؛ إنّك أختي في الدين فعلاً، ولهذا انتصرنا على الشيطان الذي حاول أن يوسوس في صدورنا ويقودنا إلى حيث يشاء، ويكون ثالثنا داخل الغرفة، ولكنّنا والحمد لله سددْنا طريقه».

«أظنّك أسأت فهمي أو أسأت الظنَّ بي؛ صحيح أنّني ضممتك إليّ ولكن لم تكن عندي مشاعر غير طاهرة، لقد كنت بحاجة إلى طمأنة نفسي والشعور بالأمان، فقط لا غير، صدّقني.. على كلّ، أنا في منتهى السعادة لأنّك تعتبرني أختك في الدين ومن أمّة محمّد».

لم يجب ولم يظهر على وجهه أيّ تعبير، فهمَّت بالمغادرة:

«لا بأس، يجب أن أغادر الآن حتى يخرج الشيطان من هذا المكان!».

«أرجوكِ ألّا تهزئي بي، نواياي حسنة تجاهك، هل تتزوّجيني؟». قالها وهو متجهّم الوجه ومنتظرًا الجواب السريع منها.

«أتزوّجك؟! هل سمعت منك فعلاً كلمة تتزوّجيني؟».

«نعم، هل تتزوّجيني؟!».

فوجئت تمامًا وحارت فيما عليها أن تردّ به عليه، وبدلاً من إجابته (أنت لا بدّ معتوه)، قالت:

«كان والدي رجل دين، وكان أمله أن أتزوّج من شابّ متديّن ومستقيم، وكان دائمًا يقول لي (لا تخافي ممّن يخاف ربَّه)! لعلّك مثال ذاك الرجل الذي تمنّى والدي أن أقترن به... ولكن للأسف، أنا لا أفكّر بالزواج حاليًّا»؛ تأخذ نفَسا قبل أن تكمل:

«ثم نحن لا يعرف أحدنا الآخر جيّدًا. أنت لا تعرفني بما يكفي لأن تخطبني وتتزوّجني!».

«لكنّني متأكّد كلّ التأكيد بأنّني في غاية الانجذاب إليك، نتزوّج هذه اللحظة، أقول لك (إنّني تزوّجتك أمام الله والرسول، وتقولين الشيء ذاته فتصبحين زوجة لي وأصبح زوجًا لك».

تنفسَّت هدى الصعداء؛ لم تكن تظنّ أنّ خطّتها ستسير بسهولة وبهذه السرعة؛ إذًا هو زواج لحظات، ساعة من الزمن،

زواج ليوم أو اثنين!

«ماذا قلتِ؟ موافقة؟».

«موافقة».

أسرع يدير المفتاح بباب الغرفة يوصده ويأتي ببطّانيّة يعلّقها فوق ستارة النافذة المعدنيّة فيملأ غبارها الجوّ؛ يشدّها من يدها ويضع يده على سورة من القرآن، ويقول «تزوّجتك أمام الله ورسوله».

«متّعتكَ نفسي».

هل ما يجري معقول؟ وهل يجري فعلاً! هدى، المخرجة المسرحيّة التي اشتهرت في تورونتو بالمسرحيّات التي اتّسمت بالجرأة، واعتُبرت ثورة على تقاليدها وتعاليم دينها وحضارتها العربيّة، تنطق الآن بهاتين الكلمتين؟ كانت دائمًا ترى أنّ هذا النوع من الزواج مخصّص للنساء اللواتي كنّ يأتين لوالدها، رجل الدين وشيخ المنطقة، لاستشارته في شؤون زواجهنّ؛ مطلّقات، عانسات، أرامل ينشدْنَ زواج متعة موقّتًا من رجل متزوّج في غالب الأمر، ولا يريد زوجة جديدة أمام الناس، فيتزوّج امرأة تكون له كالعشيقة ولكنّها عشيقة بالحلال. إنّها الآن كفضيلة التي أدمنت على زيجات المتعة، والتي طلبت من والد هدى ذات مرّة أن يبارك لها، ويوافق على الحلّ الذي لا يُلزمها بالانتظار شهور العدّة قبل أن تقترن برجل جديد في زواج متعة أيضًا، فهي قطعًا لن تحمل إذ تجاوزت الخمسين من عمرها، ثم لتسأله بكلّ جرأة

(إن كان إتيانها من الخلف بدلاً من معاشرتها من أمام، مكروهًا في الدين!).

ينتفض هشام: «هل قلتِ (متّعتكَ نفسي)؟ أنتِ من الطائفة الشيعيّة؟ فهمت الآن سبب دفاعك عن حضرة ميرزا غلام؟

تسأل: «حضرة ميرزا غلام؟ من يكون غلام هذا؟».

«الدجّال الذي ادّعى أنّه الإمام الحادي عشر، المهدي المنتظر، في السبيكرز كورنر؟».

«آه، ذاك الهندي، نعم عائلتي من الطائفة الشيعيّة في لبنان؛ وإذا أردت أن تغيّر رأيك وتطلّقني لأنّي شيعيّة، فلا بأس عليك، فقد اعتدت على الردّ على كلّ من يسألني عن السبب في عدم زواجي حتى الآن بأنّني (ما زلت أنتظر المهدي المنتظر!)».

يهزّ هشام رأسه مستنكرًا والتكشيرة على وجهه:

«أعوذ بالله، ما هذه الهرطقة! أحيانًا أنا لا أفهمك أبدًا، آسف لأن أقول إنّ ما تقولينه ينمّ عن تفكير غير سليم».

«أظنّ أنّ من الأفضل لي ولك أن أغادر حالاً».

«هذا صحيح، مع سلامة الله».

نهضتْ على مهل، شبه مقتنعة بأنّ ما يجري نوع من اللعب بالنار، وعليها أن تتوقّف عن التفكير بأنّه المخطئ وأنّها على صواب، وإلّا تساوت به وحملت مفاتيح زنزانات العقل والحرّيّة، وعليها أن تحذر من غرابة أطوارها خاصّة بما يتّصل والعلاقة

الجنسيّة بين الرجل والمرأة.

«أخت هدى، أحيانًا لا أتمالك أعصابي، أنا أيضًا أتصرّف بشكل غير لائق، أنا آسف، أرجوك أن تعودي لأشرح لك موقفي؛ ولماذا تسبّب لي كلامك بضيق في صدري و..»..؛

تقاطعه هدى وتقول: «أعرف، أعرف، أنت ظننت أنّني أسخر من الدين».

«أرجوكِ أن تسمعيني، فما أزعجني أيضًا هو ردّك على عرضي الزواج منك بالقول (متّعتك نفسي)، الكلمة ذاتها توحي بالشهوة المحرَّمة. كلمة متعة توحي بأنّ الزواج لا هدف له سوى الاستمتاع بجسد المرأة، وهو شيء يمكن أن نشتريه بالمال كالطعام والفراش، ويعني أنّه قابل للمساومة. زواج المتعة ليس زواجًا حقيقيًّا، وحتى الطلاق من زواج المتعة ليس بطلاق حقيقي. إنّه زواج لإرضاء رغبة جنسيّة ومغلَّفٌ باتّفاق سرّي. إنّه حرام، وعندما سمح به رسولنا الكريم كانت الغاية منعَ الزنى في وقت الحروب وأثناء رحلات القوافل التجاريّة الطويلة».

تخاف هدى من الجواب الذي علق في زلعومها أن ينادي: (وماذا عن زواجك بي الآن؟ لا شهود ولا كتابة عقود؟) وتستذكر هدى ما كانت تشاهده في الأفلام المصريّة، حين كانت ورقة الزواج السرّي إمّا تلتهمها النار أو تتبلّل بالماء أو تُرمى بين القمامة عن طريق الخطأ، وبهذا تفقد بطلة الفيلم أيّ دليل على أنّها كانت زوجة البطل وليس عشيقة له أو بائعة هوى، وتفقد

بالتالي كلّ حقوقها كزوجة.

رغم اغتراب هدى في كندا وبُعدها عن الوطن سنوات طويلة، إلّا أنّها سمعت عن كلّ أنواع الزواج في كلّ الدول العربيّة حتى في تورونتو نفسها، الُعرفي، وزواج المسيار السرّي الذي لا نفقة فيه ولا مقدَّم ولا مؤخَّر ولا بيت، بل يتمّ في غرفة العروس في بيت أهلها، وزواج الويك إنْد والذي يبدأ يوم الخميس وينتهي يوم السبت ويتمّ في غرفة فندقيّة؛ والزواج العُرفي المصري، زواج المسفار إذا كانت الفتاة تعمل، أو تدرس في جامعة خارج بلدها، فعليها أن تتزوّج من شخص حتى يُقال إنّها متزوّجة وليست وحدها «على حلّ شعرها» كما يُقال. وهناك زواج السياحة والاصطياف الذي ينتهي مع نهاية الموسم السياحي، فيغادر الزوج عائدًا إلى بلده تاركًا عروسه تتدبَّر أمرها، بانتظار الموسم السياحي القادم، وعريس جديد. وهناك زواج الصحيبة، أي الصحبة، كزواج المعلّمات الثلاث لسائقهنّ الذي كان ينقلهنَّ إلى المدرسة فتزوّجهنّ حتى لا يقع هو أو هنَّ في الحرام، وصوْنًا لسمعتهنّ وسمعته. وكلّ هذا يهون أمام (زواج نكاح الجهاد) خاصّة في سوريا؛ ولا شكّ أنّ من أفتى بهذا الزواج لا يرى في المرأة إلّا ثقبًا أو مصرفًا صحّيًّا لا أكثر. فهو أقرّ بأنّ على المرأة، نظرًا لأنّها لا تقوى على القتال في الحروب، أن تساعد بما تستطيع، تلبيةً لاحتياجات المجاهدين، لكن ليس طهيًا للطعام وتضميدًا للجراح فقط، بل ترويحًا عن النفس أيضًا حتى لا يُصاب المجاهد في سبيل الله بالإحباط وتتردّى معنوياته القتاليّة،

وذلك بإمتاعه جسديًّا، انطلاقًا من نظريّة أنّ الفحولة الذكوريّة تثير العزيمة والإقدام ومشاعر الرجولة اللازمة في القتال. وبهذا تنال المرأة ثوابًا وكأنّها جاهدت في سبيل الله.

ثم تستذكر تلك الفتوى العجيبة بخصوص واجبات النساء اللواتي يعملن في المكاتب إلى جانب الرجال. فقد اقترح المفتي بأن تقوم الزميلات بإرضاع زملائهنّ الرجال حتى يصبحوا أبناءً لهنّ، وبهذا يصبح الجميع عائلة واحدة، ما يجيز للجنسين التواجد في الغرفة نفسها من دون أن يكون الشيطان ثالثهما. يومها علَّقت طبيبة في إحدى الصحف مستنكرة الفتوى، وقالت: (هل يريد منّي الشيخ أن أرضِّع خمسين طبيبًا حتى أصبح أمًّا أو أختًا محرَّمةً عليهم!! ستكون هذه عمليّة مرهقة!).

صمت هدى جعل هشام يلفّ ويدور حول موضوع الزواج.

«ربّما إنّني استعجلت في طلب الزواج منك، ولكن دافعي لم يكن سوى الابتعاد عن الحرام. خشيت من النفس الضعيفة؛ لقد أوشكت أن أضعف أمامك. يشهد الله أنّ هذا هو السبب».

تذكّرت هدى يوم قالت لأستاذ الدين في مدرستها بلبنان: «لا أفهم يا أستاذ، لماذا نسمح للشيطان أصلاً أن يهدّدنا ويتسلّل إلى عقولنا ويراودنا عن أنفسنا كي نرتكب الشرور؟! (لماذا نظلّ نخاف منه من يوم نولد وحتى آخر يوم في حياتنا؟ ولماذا لم يمحه ربُّنا من الوجود أصلاً يوم عصاه واستكبر ورفض السجود لآدم؟) ويجيبها المعلّم يومذاك: (طبعًا يا ابنتي، باستطاعة الخالق أن

يهلك الشيطان في لحظة، ولكنّ الله يريد امتحاننا نحن ليعرف أصحاب الإيمان القوي منّا).

وتردّ على أستاذها: (لكنّني لا أفهم يا أستاذ، معنى كلّ هذا التعقيد، فالله ليس بحاجة إلى رضى وحبّ مخلوقاته، بل هي التي تحتاج إلى رضى الله ومحبّته، فنحن نعرف أنّ الله وليس الشيطان هو الذي خلق السموات والأرض، ولهذا فإنّ التنافس بين الله والشيطان شيء غير منطقي!).

تذكّرتْ يوم جاءت إلى بيتهم في لبنان عجوزٌ وزوجها لاستشارة والدها حول رجم إبليس. فالزوج رفض رجم إبليس في منى، رغم توسّلات زوجته له ورغم أنّها التقطت الحجارة ووضعتها بين يديه، من دون أن يخبرها عن السبب.

ما زالت هواجس تلك العجوز ماثلة حيّة في مخيّلة هدى (أنا خايفة يا مولانا أن يكون الشيطان قد وسوس له واشتراه)؛ وعندما طلب والد هدى من الزوج تفسيرًا لفعلته أجابه الرجل: (لم يسبق للشيطان أن آذاني يا مولانا، وخفت إن رجمته أن يبدأ بملاحقتي والانتقام منّي، فقلت أتركه نائمًا). ليجيبه والد هدى: (رجمنا الشيطان الكامن في أنفسنا يحمل علامة التحدّي له، ونبرهن له مدى صلابتنا وعدم خضوعنا لوساوسه وإغراءاته، وعلى كلّ حال يمكنك رجم إبليس متى شئت وأينما أردت).

مع مرور الزمن تغيّرت هيئة الشيطان في ذهن هدى؛ لم يعد له وجهٌ وعينان تقدحان شررًا. أصبح الشيطان ظاهرة أو بالأحرى

عَرَضًا لحالة تردُّد، كما لو أنّها تنظر إلى السماء وتتساءل إن كان عليها أن تحمل مظلّة قبل أن تغادر البيت.

«أوكي، أوكي، فهمت» تجيب هشام، «هل زواجنا ساري المفعول وعلينا أن يطلّق أحدنا الآخر، أم أنّه كان باطلاً أصلاً لقولي (متّعتك نفسي)!»

«لقد أقسمت أنا القسمَ الصحيح، ولن أتراجع عن وعدي لك بالزواج؛ وعليك أن تردّي الآن (وأنا زوّجتك نفسي أمام الله ورسوله)».

«لا، لا، من الأفضل أن نفترق، إذا كنت تريد أن تتزوّجني فقط لإثبات شهامتك بأنّك لن تتراجع عن وعودك».

«لا، ليست المسألة كما تفكّرين! لقد وقعت صريع حبّك أخت هدى».

«ألا تكفّ عن مناداتي بالأخت هدى! أنا لا أريد أن أتزوّج من أخ لي». تطرق برأسها برهة ثم تقول:

«تزوّجتكَ أمام الله ورسوله»، ويردّ هو بالمثل:

«وأنا تزوّجتكِ أمام الله ورسوله».

وكأنّ جسديهما تلقّيا الأوامر وإشارة البدء من هذه الجملة، والمفروض أن ينطلقا كفرسين يعدوان في تلال وحقول من قصب السكّر؛ لكن هذا لم يحصل فهو لم يقبّلها ولم يتحسّس صدرها، لم يحاول خلع ملابسها أو ملابسه؛ ارتمى فوقها، وراح يفكّ

أزرار بنطلونه مخرجًا عضوه ثم يحاول إزاحة سروالها التحتي إلى جهة ويحشره فيها بالقوّة، من دون جدوى، عندها هنّأت نفسها؛ إنّه لم يخب ظنّها به، يراها كما توقّعت، مثله أقرب إليها من الآلة لا من الإنسان. هي بالنسبة له جسم من غير رأس. تساعده وتُنزل سروالها بيد واحدة. وهكذا تمكّن منها، ولم تستطع إلّا أن تفكّر وهي تريده أن ينتهي من أمره والسلام ـ بأنّ هذه هي المرّة الأولى التي يعاشرها فيها شابّ متديّن، ولا بدّ أنّ رجال عائلتها يضاجعون المرأة على هذا النحو!

وسرعان ما قذف فوق بطنها بكلّ صمت، عندها تذكّرت أن تصيح صيحة من يعاني من ألم مفاجئ، فصاحت بصوت خشي هشام أن يكون أحدٌ في الطابق السفلي من العمارة أو المارَّة على رصيف الشارع قد سمعه، فقام عنها وتوجّه إلى الباب، متحسِّبًا من مجيء أحد لاستطلاع سرِّ الصيحة الكبرى. عندها لاحظ الدم الأحمر القاني على عضوه وعلى الشعيرات السوداء التي بدت كَلِحْيَة علقت بها آثار الفراولة. هنّأت نفسها! ضحكت في قلبها، ولكنّها حوَّلت الضحكة إلى أنين خافت.

«لا أصدِّق» صاح في وجهها، «هل عدم مبالاتك بالدين أوصلتك إلى هذا الحدّ من الاستهتار في كلّ شيء؟ ألا تعرفين بأن عّليك ألّا تدعي أحدًا يقترب منك وأنت في فترة العادة الشهريّة؟ ألا تعلمين أيّتها المتحرّرة المتحضّرة، العصريّة الراقية، أنّ مضاجعة الرجل أثناء العادة الشهريّة تعرِّض الإثنين إلى الأمراض؟ فهناك جرح لا يجب مسّه إلّا حين يلتئم ويشفى!».

«هلّا ناولتني ورق كلينكس؟».

يهرع إلى الحمّام فترفع نفسها عن السرير، وما إن ترى بقعة حمراء حتى تبتسم خلسة، ذلك أنّ حبّة الفراولة أعادت لها عذريّتها. وحين عاد بورق التواليت وناولها إيّاه حتى انفجرت تصيح في وجهه:

ـ «ما بالكم أنتم المتديّنون! ألم تسمعوا بالعذريّة، وفضّ البكارة؟».

يعضّ شفتيه ندمًا على ما بدر منه ويرفع بوجهه نحو سقف الغرفة: «شكرًا لك يا ربّ، إنّك أنت الوهّاب، أنت الذي هديتني للزواج منها، أستغفر الله العظيم، من كلّ ذنب عظيم؛ لم أعرف أنّك عذراء!».

تردّ عليه بكلّ دلال وتواضع. تكرّر ما كانت تراه في الأفلام العربيّة:

«هذه حكمة ربّي». هي تعرف سبب سعادته؛ فالمرأة العذراء التي لم تنجب بعد ما زالت تحتفظ بخيرها. خيَّم الصمت والوجوم، وعندما لم يعلّق بشيء وكأنّه ما زال يشكّ في أمر ما، أخذت تؤنّبه:

«أيقنتَ أنّي لست عذراء، فقط لأنّني لست محجّبة أو منقّبة؛ أراهنك لو أنّني كنت مثل كيس من الفحم لما حاولت معي ولما تزوّجتني».

«أرجوك ألّا تطلقي هذه الصفات كالأجانب على أخواتك الفاضلات المحجّبات».

«الحقّ معك.. أنا اسمي هدى السليبي من البقاع في لبنان، أعمل مدرِّسة في كندا».

«وأنا هشام قاسمي، أمّي مصريّة ووالدي من الجزائر، أدرس الهندسة الكهربائيّة في معهد لندني إلى جانب عملي كبوّاب للعمارة».

وكأنّ جوابه هذا ذكّره بالبطّانيّة الصوفيّة التي سالت عليها دماء بكارة الفراولة، فسارع بسحبها عن السرير.

«سأرميها في صندوق القمامة، لا أريد أن يراها أحد فيظنّ بي الظنون».

«دعني أغسلها لك في الحمّام».

«لا لا، أنا سأغسلها».

تطوي البطّانيّة بطريقة تخفي البقعة الحمراء، وتناولها له:

«بلِّل البقعة بالماء البارد ثم ضع مسحوق الغسيل فوقها، وستزول آثار الدم».

«لا تفتحي الباب لأحد رجاءً».

«لا تخف». توصد الباب بالمفتاح، تسرع تُخرج علبة فراولة أخرى من شنطة يدها وتدفش حبّة في مهبلها وترمي العلبتيْن الفارغتيْن على ظهر الخزانة. تجلس على الكرسي وتستعرض ما

حصل حتى الآن، فترى أنّها كانت كالثعلب.

تسمع خطوات هشام عائدًا فتقوم إلى الباب تفتحه حتى قبل أن يدقّ، وتسأله بلهفة إن كان قد نجح في إزالة البقعة من البطّانيّة فيهزّ رأسه بالإيجاب، ويضع البطّانيّة فوق قضبان التدفئة المركزيّة.

صفّقت بيديها: «عظيم»؛ إنّها سعيدة بمفعول حبّة الفراولة التي لا تسبّب أيّ مشاكل، وتختفي من دون أن تترك أيّ أثر جانبي ضارّ. وكما تمنح الرجل الشعور بالمباهاة والاختيال كالطاووس، فإنّها تمنح الفتاة الشعور ولو بقليل من السطوة عليه.

«فعلاً عظيم»، تكرّر العبارة.

«ما هو هذا العظيم؟ لا عظيم إلّا الله؛ بالمناسبة، هل أنتِ جائعة؟ سآتي بالكسكس مع لحم أو مع دجاج من المطعم، فور انتهائي من الصلاة».

«صلاة العصر؟».

«لا، صلاة ما بعد الجماع»، يصلّي ضامًّا يديه إلى بطنه كما يصلّي السنّة من المسلمين، ولا تعرف سبب اختلافهم بهذا عن الشيعة. وما إن انتهى من صلاته حتى قالت «تقبّل الله صلاتك» تمامًا كما كانت تسمع والديْها يقولان لبعضهما بعضًا، ثم تسارع إلى فتح شنطة يدها وتخرج عشرين جنيهًا وتمدّها إليه بعد أن انتهى من انتعال حذائه.

«لا، لا، لن آخذ منك بنسًا واحدًا» ثم يقف عند الباب من دون أن يفتحه.

«ما بكَ؟».

«لا أخفي عليكِ، إنّ ما يشغلني هو أنّك لا تتصرّفين كمسلمة، فمثلاً لم تغتسلي بعد ما حصل بيننا، ومن واجبي أن أهديكِ إلى هذه الأمور».

إنّها لا تعترض الآن، لا تعترض أبدًا، لا توافق، ولا تنفي عندما كانت توضع في خانة «هل أنت مسلمة؟». فالقرآن كان بمثابة لغز بديع لها، يتحاور معها، ويجعلها تفكّر وتتأمّل وتستغرب، يضيء طريقها، يخيفها، بل ويقدّم لها التسلية وكأنّها تقرأ كتابًا ممتعًا. تحبّ الخيال والصور. كأنّ الله يدخل إلى قلبها في حبّات التين وعن طريق الزيتون. ترى نفسها في حقول شاسعة بين أشجار التين اللذيذ المليء بالآلاف من البذور، وزيت الزيتون الشهي، كأنّ الخالق فهم أنّ المتعصّبين سيلغون جمال الحياة، ومن أجل أن يبرهن لهم أنّ الشعور والخيال والحواسّ كلّها مهمّة كأهمّيّة العقل، فقد قال لهم «التين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين».

كانت تهمس: يا ربّي كم هي رائعة لغتك، لا مثيل لها. لذلك عندما كانت تصغي بكلّ حسٍّ مرهف إلى تفسير القرآن، سواء في البيت أو في حصص الدين بالمدرسة، وتتراءى لها عاديّة أرضيّة، لا إلٰهيّة، كأنّها أحاديث الناس في الحيّ. فكانت تعتذر للقرآن وخالق البشر. أخذها عقلها مع مرور الأيّام والسنين إلى مكان آخر. مكان بعيد كلّ البعد عن الكتاب وموضوع الدين. اتّجاهها في الحياة اتّجاه آخر. لذلك كانت تلوذ بالصمت ولا

تعلّق على أيّ موضوع ديني. ولكن بعد حادثة تفجير البرجين العالميين في نيويورك، أصبحت تستغرب كيف بدأت تثور وتغضب كلّما رأت أسياد الدين وهم يتحوّلون إلى وحوش، مستندين إلى دروع دينيّة مزيّفة، فتسارع بالاتّصال هاتفيًّا من تورونتو بأقرباء لها أو معارف عائلتها المتديّنين، وحتى برجال دين ممَّن كانوا يعرفون والدها، تحثّهم على أن يشكّلوا مع أمثالهم في لبنان وغير لبنان مجموعة لا تكتفي بالإدانة والاستنكار لما يحصل من جرائم وحشيّة باسم الدين، بل إدانتهم قضائيًّا على تحريضهم للشباب على الاستشهاد بحجّة أنّ من يحرص على الموت توهب له الحياة. لا بل إنّها ذهبت إلى أبعد من ذلك، ولم تتوقّف عند كتابة رسالة إلى طالبان باكستان بعد إطلاق النار على الطالبة ملالا التي لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، لا لذنب اقترفته سوى إصرارها على التعلّم وحثّ البنات جميعًا على المواظبة على الدراسة حتى النهاية. قالت في رسالتها إلى طالبان «هل غاب عن بالكم أنتم الذين أردتم قتل ملالا، بأنّ قتل الإنسان هو قتلٌ لنفس على صورة الخالق، وهل يسمح المؤمن لنفسه بامتلاك سلطة إلغاء الآخر حتى لو كان مخالفًا له في الرأي؟». ثم لتختم رسالتها قائلة «يبدو أنّكم غابت عن بالكم سورة العلق»، وأرفقت برسالتها نصّ السورة:

(إقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربّك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم...) وكتبت في رسالتها: «إنّ أوّل ما طلبه الوحي من النبي هو أن يقرأ، وليس أن يصلّي أو يصوم، أو يزكّي أو يحجّ أو يجاهد، بل

أن يقرأ وأن يكتب بالقلم وأن يتعلّم».

سلّمت هذه الرسالة إلى صديقة كنديّة من أصل باكستاني ذهبت لزيارة باكستان:

(لا يهمّ أن تصل الرسالة إلى طالبان، فقط ضعيها في صندوق بريد في باكستان، ولا بدّ أن يقرأها أحد).

ووقّعت الرسالة باسمها: (هدى، ابنة الشيخ... تفخر بأبيها الذي شجّعها على الدراسة ونهل العلم لتكون محاميّة، لكنّها اختارت المسرح).

البحر يدخل الغرفة الآن فرحًا. فالبحر لا الاستغفار ولا الصلاة، هو الذي قام بهزّها من كتفيها وقال لها «موت والدك ليس ذنبك» ولكن «لماذا مات في اليوم الذي رآني فيه بالمايوه؟! يجيبها» صدفة، صدفة، فوالدك كما تعلمين وكما يعلم الجميع كان يعاني من الأمراض القلبيّة، والخالق خلقني من أجل أن يعانقني البشر وينظروا إليّ فيهدأوا وتسكن أنفسهم، وخلقني من أجل أن تتمتّعوا بأسماكي وثماري.

البحر المتوسّط الذي التقت به لأوّل مرّة في الصيف الماضي وبعد غيابٍ طويل، وأثناء رحلتها مع إيڤون إلى الريڤيرا الإيطاليّة، وشوش لها من جديد (ليس ذنبك أنّك لبست المايوه وعانقتني وأنت في الخامسة عشرة، أنا أيضًا بحاجة إلى من يحبّني)، يذكّرها كيف تقاعد والدها من الحياة العامّة وتوقّف عن ممارسة أيّ نشاط فيها، بعد أن سيطرت عليه الهواجس من مرض القلب الذي كان يعاني منه فعلاً، وهجر حتى سريره قائلاً (الصعود إلى

سريري كتسلّق جبل) وأصبح ينام على فرشة وضعتها له والدتها على الأرض. وكان قد توقّف عن أكل البرغل والعدس خوفًا من تكوّن الرياح التي تضغط على صدره وقلبه.

تمدّ يدها الآن إلى البحر. ما زال فتيًّا لم يهرم، ما زال يلعب، يثور، يتوعَّد، يهدأ وينام غير مبالٍ بما يجري فوق اليابسة؛ يترك الأسماك في أحشائه تنهش بعضها بعضًا تارة وتتوالد تارة أخرى؛ ويسمح للقوارب بأن تشقّ عُبابه كما تهوى، بل إنّه يسامح من يسمحون لمجاري صرفهم الصحّي أن تصبّ فيه؛ ما أكبره هذا البحر وما أطيبه!

هدى ابنة شيخ من مشايخ الدين في لبنان، عاندت والدها وارتدت المايوه، رآها شبه عارية لكنّه لم يرَ تمزّقها وهي تشتهي الحياة بعيدًا عنه وعن أخيها؛ أو عند عائلة أخرى، ولو عند البدو الذين كانت تمرّ بمضاربهم كلّما ذهبت إلى بعلبك.

والدها لم يسمعها تقول: (لا، الدين لا يجري في دمي، ما يجري في دمي هي الكريات الحمراء والبيضاء من أجل أن أحيا). والدها لم يرَ معاندتها له خاصّة وهو يقدِّم فتاواه إلى الذين واللواتي يستشيرونه، فكلّما تسلّل صوته عبر باب غرفته المغلق أحيانًا، وأمام الحضور جميعًا في البيت، أحيانًا أخرى، كانت تعترض في داخلها: (كلّه كذب، كلّه كذب. لا حقَّ لك، أنت لست الله، أنت بشر والبرهان أنّك تعاني من مرض في القلب، ولا حقّ لك).

تبتهل إلى الله ألّا يقتصَّ منه: (سامحه يا ربّي، نيَّته صافية،

وأنت وحدك من يأمر وينهى ويضع الحدس في القلوب).

كم كانت تتمنّى لو تمتلك الجرأة لتنتقد فتاويه علنًا عندما ترى النساء خارجات من غرفته ووجوههنّ تطفح سعادة يشاركنَ فيها أمَّها والجالسات عندها، وكأنّه منحهنَّ الحياة من جديد! وحين كانت تسمع فتاويه للرجال الذين كانوا يصطحبون زوجاتهم في غالب الأحيان، كانت الزوجة تهرع عائدةً إلى غرفة النساء تذيع عليهنّ فتوى الشيخ كبيّغاء على عجلةٍ من أمره.

وهي لم ترهُ مرّة واحدة وهو يحاول الاتّصال بالله، بل وهو يعجِّل في تناول فطوره وارتداء عمامته الخضراء بلون الجنّة، ويجلس منتظرًا من يناديه بمولانا حتى يهديه. (لا يجوز أن تهدي، الله يهدي من يشاء).

تتذكّر هدى تلك المرأة التي جاءت لأبيها وقد رسمت حاجبيها بقلم الكحل حتى تزيد من حجم عينيها، وحين قدّمت لها أمّ هدى الشاي سالت دموع سوداء من عينيها وتمتمت: (فتوى مولانا هي التي ستحكم عليّ: أعيش أو أموت)! تواسيها أمّ هدى (أضمري الخير يا أختي وتوكّلي على الله). كانت تلك المرأة قد جاءت من أقصى الجنوب اللبناني، من الناقورة، لتستفتي الشيخ وتفعل ما يشير به عليها؛ فهي لن ترضى بأن يجحِّشها الفوّال ولو انتهى الأمر بأخذه لحياتها، بل أرادت اختيار رجل آخر. لم تفهم هدى آنذاك أنّ معنى كلمة التجحيش هو الجماع إلّا مع مرور الزمن؛ فزوج المرأة صاحبة الدموع السوداء الذي كان قد طلّقها ثلاثًا، ليس بإمكانه العودة إليها إلّا بعد أن تنام مع زوج محلّل

لليلة واحدة ثم يطلّقها في الصباح.

عندما جفّفت المرأة دموعها، بلعت ريقها وقالت بصوت سمعه كلّ من في البيت:

«ليس باستطاعتي يا مولانا أن أترك الزوج المحلّل يلمس شعرة واحدة منّي، فكيف يجحّشني ورائحة البصل والثوم تفوح منه وتقلب لي منافسي!».

هزَّ والد هدى رأسه متعاطفًا معها قائلاً: (النظافة سُنَّة، وقد كان النبي ﷺ يحرص دائمًا على نظافة ملابسه، وكانت تفوح منه دائمًا رائحة عطرة، وكان يقول (خذوا زينتكم عند كلّ مسجد) كما كان ينهى عن أكل البصل والثوم قبل التوجّه للصلاة في المساجد).

تذكّرت هدى أنّ والدها سرح قليلاً وحدَّق في سقف الغرفة، قبل أن يهتدي لفتوى عجيبة لحلّ مشكلة هذه المرأة. قال لها يومها من دون أن ينظر إليها: (قلتِ إنّكِ جئتِ من الناقورة، صحيح؟ الآن أريد أن أسألك، هل تستطيعين السباحة؟) ارتبكت المرأة وتلعثمت، فقد ظنّت أنّه سيشير عليها بأخذ الفوّال إلى مياه البحر المالحة لتغسل آثار الروائح الكريهة عنه. أجابت بأنّها (تتقن السباحة)؛ فقال لها (اذهبي مع شقيقاتك أو قريباتك إلى البحر وعرّضي نفسك للموج القويّ والزبد حتى يدخل فيك ليكون ذلك كالزوج المحلّل وبعدها يمكنك العودة إلى زوجك). فتوى عجيبة، فكأنّ والدها اعتبر هجوم موج البحر الهائج عليها بمثابة المضاجعة. هل كان حكيمًا بهذه الفتوى؟ هل كان فهمه للدين

عصريًّا أم عبقريًّا أم طبِّيًّا أم أنّه كان رجلاً واقعيًّا يتجنّب التعقيدات؟! والبحر مذكّرٌ طبعًا. هل فسَّر مقولة (الدين يسر وليس عُسرًا) على هذا النحو، يا تُرى؟ أم تُراهُ كان عبثيًّا ولامباليًا؟ كان يأتيه الناس لحلّ مشاكل تتعلّق بالشرع، فيهوِّن عليهم معلّقًا (هذه أمورٌ طفيفة يجب ألّا تشغل بالكم، ركِّزوا على جوهر الأشياء في الدين) فيخرجون من عنده راضين قانعين حامدين الله وشاكرين له فضله. كتلك المرأة التي وعدت الشيخ وعدًا أكيدًا بأنّها سوف تتوقّف عن السباب والشتائم التي اشتهرت بها عندما أجبرتها بناتها الثلاث بزيارته، ولم يقدّم لها أيّ نصيحة بل جاء بمرطبان فيه ماء ويضع يده داخله ثم ينتشلها، طالبًا من المرأة صاحبة اللسان السليط أن تغطس يدها بعده في المرطبان، وما إن فعلت هذا مستغربة موشكة التعليق بجملة سوقيّة، بادرها الشيخ «لقد تصافحت أيادينا الآن، ومعنى ذلك أنّك قد وفيت بوعدك بأنّك لن تعودي إلى استعمال لسانك للشتائم».

لتسرّ المرأة في أذن أمّ هدى قبل أن تودّعها «يا حرام عليكم، هل تتجامعان بهذه الطريقة في المغطس!».

«لم أشأ الاستحمام هنا» تقول هدى لهشام مبتسمة ومتصنِّعة الخجل؛

«لا بأس، أدخلي الآن، سوف أنتظرك»، يمدّ لها بمنشفة بالية نظيفة. تبلّ طرف المنشفة بالماء الساخن. تفرك بطنها، ثم وبيدها تفرك عانتها جيّدًا، ولا تجرؤ على تجفيف جسدها. تفتح حنفيّة الدوش عن آخرها، وعلى هدير تدفّق الماء تتّصل بإيڤون

التي تبادرها هامسة أنّها وقعت في حبّ رجل طويل القامة وفي غاية الجاذبيّة والذكاء؛ (طنجرة ولقيت غطاها).

تخرج لترى على وجهه تعبيرًا لا تفهم معناه؛ هل هي شبه ابتسامة، لأنّها في نظره التزمت بوصايا الدين بمحافظتها على عذريّتها حتى الآن؟

«لم تغسلي شعرك! ما لكِ أنتِ لا تتّبعين أصول الدين؟! الشعر أيضًا يجب أن يتطهّر بعد المضاجعة؛ من قمة الرأس إلى أظافر القدميْن!».

«أنتَ هنا وليس هناك في البلاد العربيّة، لذلك عليك أن تتوقّف عن انتقادي. لم أغسل شعري لأنّه يأخذ منّي الكثير من الوقت لتجفيفه ثم تسريحه».

تلعب بخصلات شعرها وتتساءل: لماذا يحرِّم الدين كشف رأس المرأة وإظهار شعرها! تجمع الخصلات وتعقدها وترمي بها على ظهرها. (ماذا في الشعر حتى تُحرَّم رؤية الناس له! أليس هو كحشائش البحر، وكخيوط على نول الحائك؟ هل هو مثير للفتنة كالنهديْن أو الفخذيْن؟ أم أنّ الشعر يذكِّر الرجل بالفراش والنوم والوسادة حين ينتثر فوقها؟ شعر المرأة ملك للرجل، يشدّه حين يغضب وحين يغازل وحين يضرب! الآن تشدّ المرأة شعرها تحت وطأة المسؤوليّة وحين تشعر بالقهر واليأس. ألم أشدّ شعر بنت الجيران ونحن نتعارك؟ ألم تشدّ لي أمّي شعري أكثر من مرّة!).

«هل صديقتك شقراء أم أنّها تصبغ شعرها؟».

«صديقتي إيڤون هي..». يقاطعها، «إيڤون؟ اسمها إيڤون! حسبت أنّها ليست عربيّة» يقولها مهنّئًا نفسه وكأنّه اكتشف مجرمًا.

«في لبنان نسمّي إيڤون ومادلين وحتى مدموزيل. وهي وُلدت شقراء خضراء العينين. الجميع يحسبونها أجنبيّة، وأنا بالمناسبة ضبطتك تنظر إليها!».

«صحيح، كنت أراقبها، ظننت أنّها تتجسّس علينا، على المسلمين، لأنّها بدت وكأنّها أجنبيّة ولكنّها تعرف اللغة العربيّة».

«لكنّها أعجبتك، أعرف أنّها مغرية، ورجال العرب يحبّون الشقراوات وذوات العيون الملوّنة»؛ تحرص هدى على عدم ملاصقة جسدها بجسده؛ تصمت برهة وتنظر إلى فمه:

«أعرف أنّك لا تحبّ التقبيل، هل لأنّك تعتبره اختراعًا غربيًّا!»

عندما تذوّقتْ طعم أوّل قبلة في حياتها في تورونتو ظنّت هدى أنّها الوحيدة من بين أفراد عائلتها، بمن فيهم أخوها، التي مارست التقبيل. كأن تبادل القبل بدعة عصريّة من اختراع مخرجي السينما ودُعاة الحرِّيّة. تقرّب شفتيها من شفتيه، فتفاجأ به يقبِّلها من دون أن يفتح فمه؛ ظلّت شفتاه مزمومتين وكأنّهما جيبتا فستان لم تُفتحا بعد. (أجمل القُبَل هي قبلات روبرتو، تفوح منها العطور الرومانسيّة). تتذكّره وتتذكّر الڤيلّا الغارقة في الشمس وفي العتمة، بينما عضو هشام تحوَّل إلى ورك غُرس في بطنها. وعدها بأن يتّصل بها، عندما اتّصلت به فور عودتها إلى تورونتو بعد

عطلتها، ولكنّها لم تسمع منه شيئًا ولا حتى رسالة خاطفة منه على الإيميل.

«سأتزوّج بكِ الآن أمام الله ورسوله».

«لماذا؟ هل إنتَ لحقت تطلّقني؟!».

«علينا تكرارها في كلّ مرّة لأنّنا ما زلنا من غير شاهديْن».

«زوَّجتك نفسي أمام الله ورسوله» تقول هدى.

وهو يدخل بها كانت هدى تحاول الدخول إلى أفكاره. (لا أصدِّق) تسائل نفسها (إنّك تضاجعين هذا المتعصّب). وتجيب نفسها (لن أفكّر إلّا في لعبة الفراولة، فتأبّط شرًّا هو الحائط، هو الممنوع، وهذا هو ما يغريني ويحمّسني).

هبط فوقها وكأنّه يركب درّاجة كهربائيّة؛ يسرع بها بعد أن أزاح سروالها التحتي جانبًا. تصدر عنها صرخة ألم كما في المرّة الأولى؛ وضع يده فوق فمها ليكتم الأنين والتأوّه، ومضى يعلو ويهبط فوقها إلى أن أتى بلذّته، كالمرَّة الأولى أيضًا، فوق بطنها. أغمضت عينيها تنتظر ردَّة فعله؛ وما إن نهض عنها حتى صاح مذعورًا: «ماذا يحدث، غريب غريب، اللهم لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم».

تزيح هدى جسمها لترى اللون الأحمر القاني مرّة أخرى.

«غريب، هل هذا لأنّكَ كنتَ عنيفًا في مضاجعتي؛ أم أنّه...؟ ولم تُكمل.

تجاهل ما قالته. «لا بدَّ أن يكون الدم شيئًا طبيعيًّا فهو من بقايا فضّ..». يخجل من ذكر كلمة بكارة.

«كيف تعرف كلّ هذه الأمور، أنت خبير مثلما أرى»، شاءت أن تكبِّر له رأسه وكأنّه زير نساء. «هل تزوّجت كثيرًا من قبل؟»، تبتسم وتستأنف: «يعني مثلما تزوّجنا نحن الآن!».

«أنا تائب إلى الله؛ لا أنكر أنّني كنت في الماضي في غاية الطيش والرعونة، لكنّني صحوت بمشيئة ربّي، لقد هداني ربّي إلى الصراط المستقيم؛ كنت أشرب الخمر الذي يتبقّى في كؤوس الزبائن حين كنت أعمل نادلاً في مطعم. وذات مساء، وبينما كنت أشرب من فم الزجاجة نفسها، سمعت أذان العشاء، فتخيّلت أنّ صوتًا يناديني، يعاتبني، فرميت الزجاجة وصحت (التوبة، التوبة يا ربّ)، ومنذ تلك الليلة وأنا أصلّي وأصوم وأقرأ الكتب الدينيّة».

«أين كان هذا، في الجزائر؟».

«أذان العشاء في لندن! كان تسجيلاً على هاتف خلوي لرجل من الخليج؛ إسمعي، سأقف مع البوّاب أشاغله لمدّة عشر دقائق حتى تدخلي الحمّام وتتطهّري، حاولي أن تغسلي شعرك هذه المرّة، ثلث ساعة وأعود بالكسكس من المطعم».

لم تكن البقعة الحمراء هذه عنيدة كبقع الدم الحقيقي الذي تتذكّره كلّ من فقدت عذريّتها، مع الألم الذي لم يكن ينسجم وطول فترة الانتظار ومقدار التحمّس للالتحام بجسد آخر.

تفرك عانتها وأعلى فخذيها من آثار الفراولة السابقة، وتسرع وتضع الفراولة للمرّة الثالثة هناك في المكان المعتم الذي يحفظ سرَّها، ثم ترى إبريقًا نحاسيًّا، لا بدّ أنّه إبريق الوضوء، فهو شبيهٌ بإبريق وضوء أبيها الذي كان دائمًا في زاوية الحمّام. تتخيَّل أنّ الإبريق ينظر إليها ويستغيث طالبًا إبعاده عن هذه البلاد. يسألها الإبريق ولو عن بعد (هل تذكرين تلك الأيّام أم أنّها لم تعد تؤثّر بك وكأنّها لم تكن؟)

مشاعر أيّام زمان، عنف واستقامة، عنف تخالطه العاطفة والكآبة في بيتهم، كانت شاهدة عليها رغم أنفها.

زُهْدُ والديْها في الحياة الدنيا، وتوقهما إلى الآخرة، حتى عندما كان والدها يلتذّ بأكل الفطائر بالسبانخ، كان يقول لأمّها (كأنّ حور العين هي التي حضّرتها والملائكة حملتها لنا!) هو ما كان يجلب لها الأرق ويوقعها في الحيرة ليلاً، والكسل والخمول نهارًا. في بعض الأيّام تتغيّب عن المدرسة وتقضي الساعات في أسواق الخضار واللحوم وبيع الدجاج والأسماك، ثم تعود إلى البيت وكأنّها عائدة من المدرسة. حين تكرّر ذلك، طلبت منها المديرة استدعاء والدها. كذبت هدى وادّعت بأنّ والدها هو الذي يمنعها من الذهاب إلى المدرسة، وأنّها جاءت هذا اليوم من دون علمه، إذ إنّه سافر خارج بيروت. والواقع أنّ مجيء هدى إلى المدرسة ذلك النهار كان بدافع اشتياقها لأسراب الحمام وكشّاش الحمام في المنزل المجاور للمدرسة، والذي كان ينادي كلّ حمامة باسمها. ظلّت هدى تتذرّع بشتّى الحيل والأكاذيب

حول انشغال والدها وعدم استطاعته الحضور إلى المدرسة لمقابلة المديرة، إلى أن قرّرت المديرة زيارة بيت هدى بنفسها. عندئذ انهارت هدى وصارحت المديرة: (لماذا أدرس وأتعب وأضيّع وقتي في هذه الحياة والمفروض أن أتوق للحياة الآخرة كوالديّ). تفهّمت المديرة التي كانت من أصل فارسي حجّة هدى، وبدأت تحنو عليها وتمشي معها معظم الأيّام حتى تصل إلى بيتها الذي لم يكن بعيدًا عن المدرسة، وفي الطريق تشتري لها غزل البنات والفستق، وتحدّثها عن الصوفيّة والصوفيين. جملة واحدة علقت في ذهن هدى، جملة أرادت منها المديرة أن تردّدها أمام والديْها: (من يزهد في الدنيا خوفًا من العقاب، مثلُه كمثل البخور، تفوح منه أحلى وأزكى الروائح حين تُشعل فيه النار، ثم ينتهي دخانًا ورمادًا).

(عندما وُلدت..) تحدِّث هدى نفسها وهي تنظر إلى الزهور الصناعيّة في غرفة هشام، والموضوعة في مرطبان قهوة النسكافيه: (كان لوني زاهيًا وليس كلون والديّ الداكن، لأنّني لم أكنْ أتغذَّى على ما كنت أسمعه منهما؛ كنت أقتات على الهواء الذي تفرزه رئتاي، ومع ذلك ضخَّا دماءهما في دماغي وقلبي وعينيَّ، لكن وبدلاً من الالتصاق بهما، وجدتني أقف قبالتهما، إنسانًا منفصلاً عنهما ولا يجمعني بهما سوى مبادلتي لهما الحبّ، ألتقطه من كلمة ومن رؤيتي لصنف الطعام الذي أُعدَّ من أجلي).

كيف يمكن للإنسان أن يفكّر نيابة عن إنسان آخر؟ هل بإمكان والدتها أن تتناول الطعام عوضًا عنها؟ هل يذهب والداها

إلى المدرسة بدلاً منها؟ هل قاست أمّها آلام العادة الشهريّة نيابة عنها، مع أنّها كانت تواسي هدى حين كانت تتلوّى كالثعبان من الألم: (ليت الوجع فيّ ولا فيكِ). كيف إذًا يتوقّعون منها تسليم عقلها والتخلّي عن التفكير! ورغم ذلك ما زالت تتشكّك أحيانًا فيما كانت تسمعه وهي صغيرة من مقولات، مثل: حبّ الحياة خطيئة؛ يجب أن يبقى جسمك متقوقعًا داخل ظلام الملابس حتى لا تلوّحه الشمس. (ابنتي ترتكب الآثام وترتدي رداء الفسق وأنا رجل الدين الذي يهدي الآخرين)! يولول والدها ويبكي، وتحاول أمّها أن تلتقط بشعيرات أنفها رائحة البحر عن ابنتها، بينما كانت هدى ما إن تضع رأسها فوق الوسادة حتى تشعر وكأنّه فوق الكرة الأرضيّة، يدور ويلفّ بها؛ يُريها القطب المتجمّد، والأسكيمو في أكواخ الثلج، وناطحات سحاب نيويورك حيث سافر قريب لها لتلقّي علومه، يريها في الصين منزل شخصيّات رواية (الأرض الطيّبة). وفي السرير فقط كانت هدى تغنّي الأغنية، التي لم تفهم لماذا طلبت أمّها من جاراتها منع بناتهنّ من غنائها: (عطشان يا صبايا دلّوني على السبيل). تسترجع في بالها بعض كلمات هذه الأغنية إلى أن سمعت نقرًا على الباب، تفتح ليدخل هشام ومعه تدخل رائحة طعام شهيّ، يفاجئها بقوله وهو يضع الطعام على الطاولة:

«سبحان الله، وجهك مشرقٌ كالشمس، أو كالقمر، ماذا أقول!».

مديحه هذا جعلها تنكمش كالحلزونة التي تُرشّ بالملح؛

شعرتْ بتأنيب الضمير؛ ترى أنّه صادق وأنّها منافقة كاذبة؛ تقرّر أن تغادر بعد تناول الطعام لأنّها غير جديرة بأيّ شيء حتى في مشاركته الأكل على مائدة واحدة.

عبارة مديح أخرى منه أعادتها إلى غزل خيوط حيلتها كالعنكبوت، الذي أحكم أحدهم على عينيه المغبّشتين نظّارة طبيّة.

«وجهك الجميل هذا سوف يزداد جمالاً إذا طرحتِ خمارًا فوقه».

يرى وجهها الذي قال له (هل مسّك الجنون).

«لماذا خفتِ؟ أنا لم أقل النقاب، قلت الخمار، وهو قطعة قماش خفيفة تضعينها فوق وجهك، وهو لن يعيق حركتك أو نشاطك، صدّقيني».

«لا أظنّ أنّني سأفعل ذلك، إنّه جنون؛ ولكن قل لي ما الفائدة من طرح الخمار على رأسي إذا ظلّت ملامح الوجه ظاهرة للعيان؟».

«الفائدة هي أنّ الخمار سيجعل الفتنة المشتعلة في وجه المرأة تخبو، أمّا النقاب فيظهر العينين فقط، وهنا تكمن الفتنة العظمى».

تقوم هدى عن المائدة لتجلب سترتها، تضعها على رأسها وتلفّ أنفها تاركة عينيها فقط غير مغطّيتين، وتدبّلهما وتنظر بهما إلى هشام وتسأله وهي تغنج:

«هل ترى فتنة في عينيّ أم في شيء آخر؟».

«طبعًا أرى فتنة!».

«غير موافقة، فهذا إغراء وإغواء وجاذبيّة وشهوة، وليس فتنة».

«الإغراء والشهوة هما الفتنة بعينها».

«الشهوة نهايتها معروفة، النوم في السرير، أمّا الفتنة فتنتهي بالحروب والقتل!».

«يبدو أنّكِ نسيتِ لغتك الأمّ، فما تتحدّثين عنه هي الفتنة التي هي أشدّ من القتل، وهي فتنة جمال المرأة، ألا نقول هذه امراة فاتنة أو فاتنة الجمال؛ ألا يُقال (من استعاذ فليستعذ من مضلّات الفتن؟)».

«ولكن لماذا تخشى الجمال بدلاً من أن تشكر الله عليه!».

ترفع السترة عن رأسها وتنفض شعرها، وتنظر إليه نظرة إغراء أخرى.

«هل نأكل؟».

«لحظة واحدة»، وينظر إليها قائلاً:

«زوّجتكِ نفسي أمام الله ورسوله».

«وزوّجتك نفسي أمام الله ورسوله»، تردِّد بعده رأسًا وتقول بلهجة تمنّعٍ أنثوي:

«هكذا إذن تجرّني إلى السرير وتريدني لحظة واحدة، وماذا عن «لحظتين بدلاً من واحدة»، تقول ضاحكة. ولم يجثم فوقها كالمرّتين السابقتين، ولدهشتها هبط هذه المرّة بيده إلى الأسفل مستأذنًا. إنّه فعلاً دمث الأخلاق، كأنّه يقول «هل بإمكاني يا سيّدتي أن آتي لك بلذّتك!»، ربّما إنّه ندم على أنانيّته في المرّتين السابقتين حين لم يفكر إلّا بنفسه ولذّته هو. غير أنّ أصابع يده لم تكن بدافع بعث النشوة فيها، بل بدافع التفتيش تمامًا كمفتّشات المطارات اللواتي يردْن التأكّد من أنّ المسافرات لا يخبّئن في صدورهنّ وبين أفخاذهنّ موادّ ممنوعة كالقنابل والمتفجّرات والمخدّرات، وهو أراد أن يتأكّد من عدم وجود الطمث؛ ولأوّل مرَّة تشعر بأنّه رجل. إنّه يفكّر بعقله ويتساءل ويقع في الحيرة بدلاً من أن يضع الدين فوق العقل. لكن هل هي التي تغيِّره من حيث لا يدري!

«بإمكانك أن تفحصني كالطبيب إذا شئت».

«هذا غير ممكن، إذ لا ينظر الرجل إلى فرج المرأة، فإنّ ذلك يورث العمى».

وإذ لم ينطلق صوت إنذار الأمان، ويوقن هشام بأنّه في مأمن من عواقب العادة الشهريّة عليه، يتحوّل إلى عدّاء رياضي في سباق المئة متر؛ ولدهشتها وجدت نفسها وقد استمالت له وأخذت تشعر بالشهوة هي أيضًا. بدأت تعتاد على وقع تحرّكه فوقها، وكأنّ وقع الأقدام على الرصيف تعجّلها للانتشاء، ولكنّه لم يكترث بالمرأة الجاثمة تحته، وكلّ همّه هو أن يسجّل رقمًا

قياسيًّا جديدًا في هذه الرياضة! وما إن قام عنها حتى صاح كالمرعوب:

«لا أصدّق أنّك ما زلت تنزفين!».

«من الأفضل أن تصدِّق، فأنا شعرت بالألم كالمرَّتيْن السابقتين تمامًا، لكنّي كتمتُ صرختي، ماذا يحدث! ماذا يحدث؟!».

«يمكن أن يكون هناك سببٌ آخر لهذا النزف!».

«ماذا تعني؟ ألم تتحسّسني قبل ذلك؟ هل وجدت نقطة دم واحدة؟».

«ممكن أن تكون العادة الشهريّة قد أتتك اليوم فقط!».

«لا أعرف ولا أفهم لماذا» تقول بصوت خافت. «لقد انتهيت من دورة عادتي الشهريّة قبل أسبوع واحد فقط».

«يا إلٰهي، هذا ما كان ينقصني، المنشفة، البطّانيّة، الشرشف، كلّ مرّة شيء جديد يحتاج إلى تنظيف».

تمسح بطنها وتعطيه المنشفة: «ضعها بسرعة تحت الماء البارد». وما إن يختفي حتى تُعدّ نفسها للمرّة الرابعة، من يدري؟ وتقذف بالعلبة الفارغة على ظهر الخزانة.

موضة شنط اليد الكبيرة أصبحت ضروريّة، لا لتشعر المرأة بأهمِّيّتها كما قالت بعضهنّ، بل لوضع خمسٍ من علب فراولة العذارى! ظلّت علبة واحدة في شنطتها، وباتت تخشى من كشفه لها.. فهو بدأ يشكّ في ظاهرة بقع الدم المتكرّرة. تخفي العلبة

الخامسة تحت سريره وتطرحها تحت الأحذية. تفكّر في فصل درامي جديد؛ تضع رأسها بين يديها وتحاول البكاء، وتنجح في استدرار دموعها التي راحت تنهمل كالشلّال.

«ما الذي جرى؟». يسألها حين عاد إلى الغرفة.

«أشعر بالألم كلّما نمتَ معي».

«تقصدين كلّما تزوّجتك».

«وأنت كلّ همّك البطّانيّة والمنشفة والشرشف».

«لم أكن أقصد ذلك، آسف».

يهرع إلى الحمّام، يغتسل ويعود ليراها تأكل، يصلّي ثم يجلس، تسمعه يبسمل قبل بدء الأكل كما تعوّدت هي في بيت أهلها: علّموها أن تشكر الله على هذه النعمة.

ما إن مدّت يدها إلى الطعام حتى أوقفها، ليس لأنّها لم تبسمل بل لأنّها لم تغسل يديها كما هو المفروض قبل الأكل، وخاصّة بعد المضاجعة. توقّف نَفَسها وحنقها وغضبها منه لأنّه يسمح لنفسه بتوجيه إصبع الاتّهام لها.

«أوه، آسفة، نسيت» تسرع إلى دخول الحمّام لكنّها، ونكاية به، لا تغسل يديها بل تعود وهي تتظاهر بأنّها تنفض يديها من الماء، وما إن مدّت يدها إلى الطعام حتى مدّ لها بالتين المجفّف: «الأفضل لك أن تبتدئي طعامك بالتين، فالمعدة لا تستطيع هضم الخضروات واللحم كما جاء في القرآن، إذ ذُكر التين أوّلاً».

وكانت جائعة، ينزل الطعام الشهي في المريء ككاميرا تسجّل فيلمًا وثائقيًّا. حبيبات الكسكس وقطع الدجاج والعظام الرقيقة هي ما يدخلها في قلب واقعها.

كيف استطاعت استدرار الدموع بهذه السرعة والعفويّة كما لو أنّها عذراء فعلاً، ومع ذلك طفح ثدياها بالحليب. تعرف أنّ المكر هو حيلة الضعيف، لكنّها ليست ضعيفة، فهي في الواقع تنتقم من هشام بهذه الصورة، إذ تستبيح لنفسها كلّ ما تفعله وكأنّ جسدها لوح من الخشب ولا علاقة له بخوالجها أو بأفكارها.

تُرى هل ورثت جينات التلاعب هذه عن جدّاتها؟ لكنّها تفوّقت على الجميع من سلالتها بالدهاء، وهذا هو ما يخيفها.

«لم أسمعكِ تحمدين الله وتشكرينه على هذه النعمة!».

«نحمد الله ونشكره كثيرًا وأصلّي له ليديم هذه النعمة»، تجيبه بالطريقة ذاتها التي كانت تجيب بها والداها.

يجمع هشام الأطباق الورقيّة الفارغة ويضعها في كيس بلاستيك ويخرج ليضعها في صندوق القمامة، وحين عاد قال لها بصوت أكثر حماسة «يمكنك الاستحمام الآن، البوّاب يأخذ غفوة».

تغسل هدى ما تحت إبطيْها والجزء الأسفل من جسمها وترشّ العطر على رقبتها وبين نهديها، رغم أنّ هشام لم يلمسهما ولم يطمر وجهه في رقبتها، ثم ترشّ عطرًا على شعرها الذي لم يعُد نظيفًا فوّاحًا. لا بدّ أنّ الهواء لا يتسلّل إلى هذا الطابق تحت

مستوى الأرض. والشعر هو أوّل ما تلتصق به روائح الرطوبة والهواء الفاسد. «كيف تستطيع المحجّبات حجب الشمس والهواء المنعش والريح والمطر عن شعرهنّ؟!».

«أشعر بالنشاط من جديد؛ الواقع أنّني لم أرِد إحراجك بالدخول إلى الحمّام والاستحمام، وربّما من الأفضل أن أذهب إلى بيت صديقتي، فأنا لم أعثر على هاتفي بعد».

«هل ستخبرينها بما حصل بيننا؟».

«لا، لا، إنّها مسيحيّة، وستظنّ أنّ ما اتّفقنا عليه هو نوع من الجنون».

«بالعكس، سوف تحسدك، لأنّ الإسلام دين مرِن بالنسبة للزواج والطلاق. ولماذا ستكون ردّة فعل صديقتك هي الاستهجان؟ ألم يؤمِّن زواجي منك الكرامة والشرف، وبهذا احترمتُ روحك وجسدك، ولم أعاملك كأنّك سلعة سائبة أو رخيصة!».

«لو كنت سلعةً سائبة لما كنتُ حتى الآن فتاة عذراء!».

«لماذا ما زلت عذراء حتى هذا اليوم؟ طبعًا لأنّك لم تجدي طوال كلّ هذه السنين رجلاً مؤمنًا صادقًا بحسب وصيّة والديْكِ؟».

«صحيح! ربّما عليَّ أن أذهب الآن».

«أين تسكن صديقتك؟ نأخذ الباص معًا».

«لا، آخذ تاكسي».

«كما تشائين».

«أوه، تلفوني، عليّ أن أعثر عليه، سأبحث في الحمّام، وأنت تسأل البوّاب فربّما وجده أحدهم وسلّمه له».

«دعيني أذهب وأسأله، دقيقة واحدة».

وما إن ذهب حتى سارعت إلى لبس سترتها وأمسكت التلفون بيدها، وتناولت علبة الفراولة الخامسة من تحت السرير ووضعتها في شنطتها، إلّا أنّها تتردّد، تغيِّر رأيها وتعيدها إلى تحت السرير.

يعود إلى الغرفة فتلوّح له بتلفونها.

«وجدْتُهُ بعد أن بسملتُ ثلاثين مرّة. لقد كان على الطاولة بجانب الكتب أمام الأعمى والبصير».

تتحدّث وهي تهرش وتحكّ صدرها، تُدخل يدها في فتحة بلوزتها.

«ما بكِ؟». يسألها بعصبيّة.

«آسفة، لكن، كأنّ شيئًا يلسعني».

الخوف من انفجار حبّة الفراولة الرابعة داخلها هو ما يلسعها. إذا انفجرت فإنّها ستلوث لها ملابسها. كم من الوقت يمكن لهذه الثمرة الحمراء، الثمرة المعجزة، أن تبقى في عالم الظلمة؟ هل تذوب تلقائيًّا إذا تركتها قابعة هناك بسلام؟ هل تستطيع إخراجها بنفسها؟ تحاول تهدئة أعصابها: (يمكنني الذهاب

إلى طبيب نسائي؛ أرتدي عباءة سوداء، أغطّي وجهي بالنقاب وأتوسّل للطبيب «أنا يا دكتور لست عذراء، وضعت حبّة فراولة داخلي كي أثبت لعريسي أنّي عذراء حين ينام معي أوّل مرّة. لكنّه اتّصل بي قبل قليل، وقال إنّه سيأتي في الأسبوع المقبل. ولهذا أريد منك أن تستخرج لي حبّة الفراولة، أخشى إن بقيت أن تتعفّن وتسبّب لي مرضًا!»).

وبدلاً من أن يتقدّم منها هشام ليساعدها وهي تخلع قميصها وتتفحّص صدرها وهي تحكّ رقبتها بشدَّة، أدار وجهه وتظاهر بتفقّد البطّانيّة الصوفيّة الملقاة فوق قضبان التدفئة المركزيّة. خلعت صدريّتها، اقتربت من المرآة الصغيرة المكسورة الموضوعة على الطاولة؛ ترفع يدها وتنظر تحت إبطها.

«ها هو، ها هو» تشير إلى النقطة السوداء التي لم تكن حشرة بل شامة بنّيّة اللون ولدت معها. تصيح وهي تتظاهر بأنّها تنفض شيئًا عن ثديها:

«برغوث، طار، برغوث صغير كرأس الإبرة، كان هنا» وتشير إلى ثديها، وحين نظر هشام إليها خبَّأت صدرها بيديها ثم أنزلتهما؛ «نسيتُ أنّنا متزوّجان!» وقفت أمامه مباهية بثدييها اللذين كانا في حجم تُحسدُ عليه: لا كبيران ولا صغيران. لم يعلِّق. بقي صامتًا.

غريب! ماذا جرى له. هل أكلت له القطّة لسانه كما يقولون؟ هذا اللسان السليط الذي كان يهدّد ويتوعّد في الصباح في السبيكرز كورنر، وهاتان العينان اللتان كانتا تقدحان شررًا، ماذا

أصابهما؟ لربّما كان هذان النهدان، بالنسبة له، مجرّد طابتين من اللحم وفوقهما حلمتان لإرضاع الأطفال فقط؟ لعلّها المرّة الأولى التي يرى فيها نهدَي امرأة. ربّما كان يشاهد تماثيل النساء ويخجل من النظر إليها. كيف يمكن له أن يكون عادلاً إن لم يجرِّب ويستطلع؟! أين الفضول وعشق المعرفة والاكتشاف؟ كيف يمكن له تقدير الإبداع في خلق الخالق إن لم يتمعَّن فيه؟ ألا ينظر إلى هذين النهدين ليرى كيف يقفان منتصبيْن من دون أن يستندا إلى شيء؟

«ما بك؟ ألستُ حلالك؟ أم أنّك لم تعُد تؤمن بقسم الزواج الذي ردّدته أمامك، والذي أشهدت عليه الله ورسوله؟».

«لا يعجبني أن تقفي هكذا عارية الصدر. احتشام المرأة واجب حتى أمام زوجها».

«إذا كنت لا ترغب في رؤيتي كما أنا، فأنت لا تريد التعرّف عليّ حقًّا».

«هذا الجسد فانٍ، أمّا الروح فهي الباقية، وأنا أحاول التعرّف على روحك».

«فانٍ، فانٍ، بل إنّه في أوج الحياة، هل ذكّرتني بما كنّا نفعل قبل قليل، لقد نسيت، غاب عن بالي!».

لم يجبها، واكتفى بأن ناولها صدريّتها وبلوزتها متحاشيًا النظر إليها، وبدلاً من لبسهما راحت تخلع ملابسها كلّها بما فيها سروالها التحتي وجواربها. إنّها الآن عارية تمامًا. تخلّصت من

حرارة قرن الفلفل إيّاه. تتمنّى لو أنّها تلعب لعبة النحلة والدبّور.

«هدى، أرجوك، الزواج يبطل إذا ضاجع الزوج زوجته وهي عارية».

«إذًا لن ننام معًا».

«أرجوكِ».

وقبل أن يسمع ردَّها، رأى أنّ كلّ ما بها يستصرخه ويستفزّه وكأنّها الأخطبوط، كلّما تخلّص من ذراع أمسك به آخر، إلى أن هجم عليها مهتاجًا. حاولت خلع ملابسه، لكنّه رفض وأبعد يديها عن أزرار قميصه بحركة عنيفة. يطرحها على الأرض منقضًّا عليها. تهمس له: «على مهلك، أرجوك، لا أريد أن أنزف هذه المرّة أيضًا».

يتوقّف، يزفر زفرة طويلة، ولمّا لم ينتشل نفسه منها، أدركت أنّ القبو المعتم الذي يسكن جسمها قد انتصر على أفكاره. وفجأة راح يتمتم: «زوّجتك نفسي أمام الله ورسوله، توكّلت على الله، بسم الله الرحمن الرحيم».

ولكن هل يستطيع مضاجعتها للمرّة الرابعة في غضون خمس ساعات؟ إنّه لم ينتظر منها أيّ موافقة لفظيّة على الزواج كما في المرّات السابقة. إنّه عطشه الشديد للجنس البهيمي، فجسده لا يلامس جسدها، لأنّه ما زال في ملابسه. ولكن هذه أوّل مرّة تسمع فيها التأوّه والآهات منه، عندها ندّت عنها صيحة لا كالصيحات الثلاث السابقات، بل صيحة أعلى جعلته يقفز كمن

أصابه تماسّ كهربائي:

«انهضي، انهضي» يطلب منها صائحًا وهو يحاول سحب الفراش من تحتها. البقعة الحمراء استوت هانئة على الفراش، ولوَّنت قضيبه. لهذه البقعة الحمراء طقوسها وتقاليدها، فإذا سالت الدماء رقص الأهل فرحًا ورفعوا رؤوسهم عاليًا، فهي الدليل الدامغ على أصالة ابنتهم. أمّا العريس فيفرح أهله لأنّه فحل وأتى بما لم يستطعه الأوائل!

لكن هشام يُصاب بالهلع، يرفع الفراش عن السرير ويرمي به على الأرض. ويأخذ برفسه كالمجنون.

«لن أنام عليه بعد اليوم، سأتخلّص منه».

ثم يأخذ رأسه بين يديه، يجلس على حافّة الطاولة، وما إن يلتفت ويراها ما زالت عارية حتى يصيح:

«هلّا ارتديت ملابسك، ماذا دهاكِ؟».

«أرجوك ألّا تستدر الآن» تعاين نفسها وتهمس (توقّف الدم)، ثم تسرع في ارتداء ملابسها، ويقوم هو بسحب البطّانيّة عن النافذة فتعجّ الغرفة بالغبار من جديد، يمسح وجهه بكفّيه، يهزّ رأسه وكأنّه يحاول اتّخاذ قرار صعب. (غريب) تحدّث نفسها، (ماذا يجري لي!). ثم راحت تتمعّن في السقف بكلّ خشوع. بدأت تجول في الغرفة الصغيرة وكأنّها تمشي حالمة أثناء نومها، على وجهها ابتسامة، وفي عينيها مسحة طمأنينة وسلام.

يكتفي بالنظر إليها.

«إنّ ما حدث لي أكثر من غريب، هل معقول أنّي..».

«إنّك ماذا؟».

لكنّها لا تلتفت إليه بل تواصل مشيها في الغرفة كأنّها لا تسمعه؛ تجلس على ركبتيها وترفع يديها وتتمتم كأنّها تصلّي وتدعو.

«اسمعي، أريد أن أقول لك شيئًا».

تجيبه بنغمة تشبه كلام السحرة حين يدجّلون على الناس المساكين: «صوتك يأتي مع صلوات آتية من بعيد، كأنّي أسمع صوت والدي، أستنشق رائحة لم أشتمّها من قبل وتجعلني سعيدة، هناك هواء يرفعني، لا بدّ من تثبيت نفسي». تمدّ يديها تتشبّث بالرفّ وتواصل:

«أرى حقولاً بلون جديد، لا أعرف اسمه: أبيض وليس بأبيض، إنّه كبياض عينيَّ، هل تراه يا هشام؟ إنّه يتحوّل إلى حقول خضراء، إنّي أسمع الهواء يتحدّث والصلوات تُقام».

«يبدو أنّك تعانين من حُمّى شديدة، الله يستر، فأنت تهذين، نعم، لا عجب! فقد كنت مريضة قبل ساعات».

«أبدًا، يمكن أن تحسّ حرارة جبيني، لست ساخنة، بل هي حرارة الإيمان كما أظنّ، أشعر بأنّني أطير، حاول أن تمسك بي، أرجوك».

تستأنف الدوران حول الغرفة وهي تبسمل وتنادي «ها قد حضرت، نعم نعم، أنا هي!» إلى أن يقف أمامها:

«ما بكِ؟ هدى!».

«أعرف ما تريد أن تقوله يا هشام، وأوافقك، لا بدَّ أنّها حوريّة من حوريّات الجنّة، سكنت فيَّ من أجل أن أعود إلى طريق الإيمان الصحيح بالله ورسوله، بعد أن كاد الكفر والإلحاد يسيطران على كياني وتفكيري، لكنّ الله شفع لوالدي الشيخ، ولهذا حافظت من غير أن أدري على عفَّتي طوال هذه السنين كي يشاء القدر أن ألتقي برجل مؤمن، وأراد الله مجازاتك ومكافأتك على إيمانك أوّلاً فجمعني بك، وعلى صنيعك معي إذ كنت سببًا في عودتي إلى الصراط المستقيم، فتحولت إلى حوريّة لا تهرم، وتتجدّد أعضاؤها وشبابها على الدوام، وهذا هو تفسير الأمور الغريبة التي حدثت بيننا اليوم؛ لقد نمنا معًا أربع مرّات، وفي كلّ مرّة كنت أرجع كما كنت، بنتًا بِكرًا، يا سبحان الله».

«ماذا تثرثرين، بل ما هذا الهذيان؟ هل جُننت؟ لا بل إنّك فقدت صوابك فعلاً؛ أم أنّك تستهبلين وتظنّين أنّي رجل أحمق؟ وإذا كنت تقصدين النزيف فلربّما كان عقابًا لنا على خطيئتنا؛ يريد الله أن يقول لنا إنّنا ارتكبنا إثمًا. وما فعلناه حرام في حرام».

«لكنّ الدماء خير وبركة؛ وعندما قطفت أمّنا حوّاء التفّاحة نزفت الشجرة دمًا، ولهذا تنزف الأنثى دمًا كلّ شهر منذ ذلك اليوم».

يتجاهل ما تقوله؛ ويمضي قائلاً:

«كان عليَّ أن أحضر شاهديْن؛ تبًّا لي من حيوان انساق وراء غريزته!».

«ولكن هل هناك من شاهد أفضل من الله تعالى ورسوله ﷺ؟

«كلّ زواج يجب أن يتمّ بوجود شهود. هناك من يقول إنّ الزواج بين المرأة والرجل قد يصحّ بدون شهود في حالات نادرة عندما يستحيل العثور على شهود فيتزوّجان كما فعلنا نحن. كان عليّ أن آتي بشاهديْن، فنحن لا نعيش في صحراء أو غابة، نحن في لندن التي يزيد عدد المساجد فيها عن أيّ عاصمة عربيّة أو إسلاميّة».

«لكن لو شاء الله تعالى معاقبتنا لجعلني أظلّ أنزف حتى أفارق الحياة، ولجعلك تفقد رجولتك أو لأصابك بنوبة قلبيّة. على كلّ حال، أليس عجيبًا أن تتزوّجني أربع مرّات في غضون ساعات قليلة! بتلك القوّة والبأس! لا بدّ أنّ حوريّات الجنّة أنفسهنّ يلقّنني درسًا. أذكر أنّي قلت لأستاذ الدين إنّي لا أصدّق أنّ القرآن الكريم قد أتى على ذكر الأوصاف الحسّيّة الشهوانيّة وهو يصف الجنّة».

يسدّ أذنيه بيديْه: «لا أريد أن أسمع ما تقولين» وينظر إليها نظرة تأنيب تحمل كلّ اللوم والغضب، وكأنّها أغوتْه وجرّته إلى الإثم رغمًا عن أنفه.

«لماذا لا تجرّب للمرّة الخامسة! وعندها نكتشف؛ فإذا تكرَّر ما حصل فمعنى ذلك أنّي حوريّة، وإذا لم يحصل فمعناه أنّ الله يعاقبنا فعلاً».

«عُدتِ إلى الشعوذة والكلام الفارغ، بصراحة أنا أتبرّأ من كلامك هذا. إنّه كفر؛ وحتى لو شبّهتِ نفسك بهنّ فأنتِ تظلّين

من نساء الطين، من الأرض».

«أنا أعتقد أنّه لا يوجد شابّ يستطيع مضاجعة امرأة أربع مرّات في غضون خمس ساعات إلّا إذا شاء الله أن يكون من وراء ذلك حكمة ومثلٌ يضربه للعباد».

«قلت كفى أرجوكِ، هذه هرطقة تحمل سخرية من ديننا؛ كلامك يخلو من كلّ منطق، بل أكثر من ذلك، كلّا، لن أجرّب، لا أريد إضافة إثم على إثم، لقد أخطأت، ولا أريد أن يبدو ما حصل بيننا وكأنّه دعارة أو زنى».

«دعارة؟ كانت هذه إذن دعارة بدون أجر، إذ لم أقبض منك بنسًا واحدًا! آسفة، باستثناء وجبة الكسكس».

«أنتِ إمّا أنّك تهذين، أو أنّكِ بلهاء؛ اسمعيني جيّدًا يا بنت الناس، أنا أعترف بأنّي تلاعبت بالدين وابتعدت عن الله ونبيّه، وأنّ غضب الله قد نزل عليّ»، يضع رأسه بين يديه ويلوّح به كأنّه يريد أن يخلعه عن باقي جسمه.

«لكن كنت دائمًا على يقين من أنّك لا تفعل إلّا الصحيح والذي يُرضي الله، ونيّتك حسنة و..».

يقاطعها: «هل توقّفت عن هذه التعليقات وكأنّك لا تعرفين غيرها!».

بلى، إنّها تعرف غيرها، تعرف قصّة زوج خالتها. ذات يوم تلقّت هدى مكالمة من ابنة خالتها في بيروت لتخبرها كيف أنّ والدها الممرّض أخذ يسأل الشابّ الذي نُقل إلى المستشفى بعد

أن فجّر نفسه، وكان يئنّ زفرات الموت الأخيرة: «(دخيلك أخبرني دخيلك، عم تشوف حور العين، عم تشوفهن؟)».

كان الشابّ قبل أن يفجّر نفسه قد حمى عضوه الذكري بحزام من حديد كي يبقى سليمًا حين يلاقي الحور العين في الجنّة. ولمّا لم تصدر عن الشابّ سوى زفرات الموت، تخيّلَ خالها أنّ الشابّ يجيب عن سؤاله، ليسأله خالها (كم حوريّة ترى، كم حوريّة ترى؟).

وكم تتمنّى لو تقول له (أنظر، أنظر، هشام، إلى السماء، هل ترى العذارى السابحات بين الغيوم؟ لقد فضّلن الهرب من الجنّة والنزول إلى الجحيم أو الأرض كيلا يضطررن إلى مجالسة الاستشهاديين ذوي اللحى الطويلة!) لتقول له:

«هشام، هشام إنس ما قلته لك، إنّي أعتذر. نعم كنت أهذي.. واسمع الآن ما أودّ أن أقوله لك؛ أعرف الآن ما جرى؛ سمعت بأنّ حوريّات الجنّة قد قلّ عددهنّ من كثرة الاستشهاديين، وربّما لهذا السبب بالذات جرى ما جرى لي، فحوريّات الجنّة لم يعدن يسكنَّ الجنّة فقط، بل هنّ على الأرض أيضًا!».

يصيح بها صيحةً مدوّيةً وكأنّ تمساحًا أجهز على نصفه؛ يثب باتّجاهها ثم يغيِّر رأيه ويسرع في الخروج من الغرفة وكأنّ حريقًا قد شبّ فيها. بينما تسرع هدى إلى حذائه تحت السرير تأخذ منه حبّة الفراولة، تعيدها إلى شنطة يدها، ثم تجلس لانتعال حذائها بكلّ بطء إلى أن عاد إلى الغرفة، وضع الفراش على الرفّاص:

«أريد أن أصلي».

«وأنا سأدخل الحمّام، عندك مانع؟».

«تشهَّدي وأنتِ تغتسلين. هل فهمتِ؟».

كان أستاذ الدين يصف للتلميذات الحياة في الجنّة: (لا عمل ولا شقاء؛ لا مرض ولا آلام ولا فقر؛ حياة كلّها رفاه ورخاء، وطعام شهيّ وشلّالات من خمر، وليموناضة يصبّونها في أفواه الناس والمطاعم الكثيرة ورائحة الشواء في كلّ مكان، وفيها الرجال يجالسون الحور العين تحت الأشجار وتحت النجوم الخافتة والساطعة؛ كانت تقول في نفسها: لماذا كلّ شيء محلّل ومسموح به في الجنّة، بينما كلّ هذه الأشياء ممنوعة أو محرّمة على الأرض! (إذًا لا تكاليف عرس ولا استئجار بيوت وشراء غسّالة ولا أجرة للقابلة القانونيّة ولا أقساط مدارس، ولا ثمن أدويّة. الجميع سواسية. هل سيفهمني الياباني؟ وهل سأفهم اللغة الروسيّة)؟

رفعت يدها، وكانت في الثالثة عشرة من العمر، لتسأل أستاذ الدين: (إن كانت الحور العين جزاءً للمؤمنين، فما هي مكافأة وجزاء المؤمنات، يا أستاذ؟) أجابها الأستاذ يومذاك: (الراحة، جزاؤهنّ الراحة يا ابنتي، راحة الضمير والروح والجسد، فالمؤمنة في الجنّة لن تكون مسؤولة عن شيء، تتمدّد في حدائق الجنّة تتدلّى عليها كلّ أنواع الثمار من دون أن تكلّف نفسها القيام لقطفها، ولن يكون عليها أن تغسل أو تجلي الصحون أو تكوي الملابس أو تطبخ وتكنس البيت بالهوفر؛ باختصار يا بنيّتي،

ستكون المؤمنة في الجنّة أميرة). لتردّ عليه بأنّها لا تعتقد بأنّ زوجة خالها ستسمح لزوجها أن يجلس مع حوريّة لأنّها تغار عليه كثيرًا، ويكاد الأستاذ ينفجر من الضحك، ولكنّه يتمالك نفسه وردّ عليها وهو يبتسم (زوجة خالك سوف تزداد حلاوة ورشاقة في الجنّة وترجع شابّة قويّة رشيقة لطيفة ملساء كالرخام).

لم تقتنع بكلامه، فالله يعلم كلّ شيء، ويعرف أنّ هناك الكثير من الناس يصلّي ويصوم ويلتزم بأوامره كي يدخل الجنّة بدلاً من نار جهنّم، فطاعته لله إذن قائمة على خوفه على نفسه، أي أنّها الأنانيّة والنفاق. إنّ على البشر جميعًا أن يحذوا حذو رابعة العدويّة، التي قالت (أنا ذاهبة إلى السماء ألقي بالنار على الجنّة وأصبّ الماء في جهنّم فلا يعودان سببًا لعبادة الله بسببهما).

تعود إلى الغرفة، تتظاهر بأنّها تصلّي بينما هي في الواقع تفكّر بالانصراف. تنتظر حتى يكمل هشام صلاته بالسلام لتقول:

«لكن من الممكن ألّا تكون هناك عذارى وحورٌ عين في الجنّة! ربّما كان علماء وفقهاء العرب المتخصّصون في اللغة العربيّة على حقّ عندما شكّكوا بوجودهنّ في الجنّة»؛ ولم يعلِّق إلّا بنظرة أحسّت بها تخترق عينيها كخنجر؛ ولم تتراجع ومضت تقول: «أجمع اللغويّون على أنّ معنى الحور العين في اللغة العربيّة: العنب، أو عناقيد العنب من شتّى الألوان والأنواع، تتدلّى من العرائش في طول الجنّة وعرضها، فيأكل منها المؤمنون والمؤمنات و..».

يقف ويقاطعها، ولو أنّها كانت الطاهر أو أيّ رجل آخر في

السبيكرز كورنر هو الذي قال ما قالت لضربه وربّما قتله: «تقولين عنبًا؟ يأكله أهل الجنّة ويبصقون بذوره أو يبلعونها؟ ما هذا الكفر والجنون؟». تودّ هدى لو أنّها تواصل وتقول له (إنّ العنب مقوٍّ للدورة الدمويّة أيضًا فهم يصنعون منه النبيذ الذي كنت تشربه قبل أن يهديك الله).

يعود لتأنيبها «لا بدّ أنّ هؤلاء العباقرة أساتذة اللغة العربيّة يعيشون في الغرب، وينشرون أكاذيبهم في الصحف الغربيّة ليشاركوا في الحرب على الجهاد والشهادة في سبيل الله. على كلّ حال، بات واضحًا الآن أنّ الحياة على هذه الأرض هي لغير المسلمين، وهم يريدوننا ألّا نطمع في نيل الآخرة أيضًا».

«أردت أن أصدِّق هذا لأواسي نفسي وأرغمها على أن تصدّق ما قاله علماء اللغة العربيّة، كي أتخلّص من هاجس كوني حوريّة، وبأنّه تمّ اختياري لأكون عذراء الجنّة على الأرض كبرهان للمتشكّكين في وجود الجنّة والنار، أو لأنّني كنت قد ابتعدتُ عن الدين! لكنْ هل يمكنك أن تفسّر لي ظاهرة تجدّد بكارتي التي فضضتها أنت أربع مرّات وعادت والتحمت كما كانت؟».

يضرب الطاولة بقبضة يده:

«ألا توقّفتِ عن هذا الهذيان والجنون!».

«بدلاً من هذا الغضب، الأفضل أن تسمعني وتناقشني وترشدني.. وقد تهديني؛ فأنا أؤمن بأنّ الله اختار مسلمة لتعيش في الغرب حتى تعبده وتطبّق فرائض دينه».

«تعرفين؟ معك حقّ، فعلاً عليّ ألّا أغضب بل أضحك، فكلامك فعلاً مضحك لأنّه ساذج بل تافه! تعرفين، سأهبط إلى مستوى كلامك، وأقول لك إنّ رائحة الملائكة هي دائمًا على أيدي حور العين وأنا لا أشتمها الآن».

«أريد منك أن تصبر على تفاهاتي وتعطيني سببًا واحدًا يدعوني إلى تصديق القصص الدينيّة والمعجزات التي هي أقرب إلى الخرافات؛ إنّ عقولنا ترفض تصديقها ولكنّنا مطالبون دائمًا بإلغاء عقولنا وتصديق كلّ ما يقال لنا، على أساس أنّ العبادات والمتطلّبات المتعلّقة بها، لا تُعلَّل! ثم وعندما تحدث معجزة أمام أعيننا، فإنّ عقولنا لا تصدّقها لأنّنا جميعنا نؤمن بقاعدة (لكل سببٍ مسبّب)، فالرعد يحدث من جرّاء البرق، والشمس تحوّل الماء إلى بخار والبخار يصبح غيومًا والغيوم تهطل أمطارًا».

يعود ويضرب الخزانة هذه المرّة وبكلّ عنف، كأنّه آلة تغلي، تعطّلت، فأخذت تتآكل، تندلع بها النار. تتجاهل غضبه هذا وتقول بصوت هادئ عادي:

«هل أخذتني إلى طبيبة نسائيّة لتكشف عنّي وتخبرني بما يحصل معي؛ أعتقد أنّ هذا الحلّ جيّد لنا نحن الإثنين».

«مع ألف سلامة! اذهبي الآن إلى قسم الطوارئ في المستشفى! ولا تنسي أن تقولي للطبيب أو الطبيبة بأنّك حوريّة من حوريّات الجنّة».

يسرع بفتح الباب.

«اصبر عليّ وأجبني، لماذا تصدّق ما حدث قبل ألف وأربعمئة سنة، ولا تصدّق بأنّ شيئًا مماثلاً قد يحدث هذه الأيّام؟».

يشيح بوجهه عنها، فتواصل:

«أليست الدنيا هي الدنيا، والله هو الله، والدين هو الدين، والإنسان هو الإنسان؟ أليس الإنسان هو من قسّم الزمن إلى أيّام وأسابيع وشهور وسنين، واكتشف ظواهر الكون فوق الأرض وفي السماء، وصعد إلى القمر واخترع الأدوية للتخفيف من معاناة البشر؟ على كلّ حال دعنا من هذا النقاش وقم معي إلى الطبيب».

يعود هشام لغلق الباب، يوصده من الداخل ويجلس على حافّة الطاولة، ويحدّثها بصوت منخفض وبهدوء مصطنع وكأنّها مجنونة فعلاً، إذ كان همّه أن تسمع لا أن تفهم:

«نعم إذهبي إلى الطبيب، وأنا على يقين أنّه سيقول لك إنّك فقدت عقلك، سيوصي بتحويلك إلى مستشفى الأمراض العقليّة. ولكن قبل الطبيب، سنذهب إلى الجامع في ريجنتس بارك. سأحمل معي هويّتي الجزائريّة وتبرزين له جواز سفرك اللبناني أو الكندي، ليعقد قراننا أمام شاهديْن».

تُصاب بدوار، يغوص قلبها. شرقت وجفَّ ريقها. عليها أن تهرب هذه اللحظة. ستحتال عليه وتهرب.

«أوّلاً: هل تعرف كم عمري؟ أنا في الثامنة والثلاثين وأنت في الخامسة والعشرين!».

«لا، أنا في السابعة والعشرين، والعمر غير مهمّ، السيّدة خديجة بنت خويلد كانت تكبر النبي ﷺ بأكبر من الفارق بيني وبينك، ولم يحبّ امرأة قدر ما أحبّها».

تقول له: «لقد تزوّجنا وأكملنا ديننا أمام أفضل شاهديْن حتى لا نرتكب معصية، ولا أفهم لماذا نُشهد آدميّيْن على زواجنا؟ فما حدث قد حدث ولا أظنّ أنّنا سنجامع بعضنا مرّة أخرى».

«هذا هو قرارك إذن؟ تقرّرين وحدك من دون استشارتي أو مناقشة الأمر معي؟».

«أنت الذي ترفض النوم معي مرّة خامسة! ثم أنا خائفة جدًّا على وضعي الصحّي، من هذا النزيف الذي يتجدّد مع كلّ جماع! وقد سخرت منّي وتخلّيت عنّي حين طلبت منك أن ترافقني إلى الطبيب».

«زواجنا في الجامع وبحضور شاهدين والتوقيع على عقد النكاح يثبت أنّنا لم نكن منافقيْن، بل كنّا صادقين مع الله ومع نفسينا».

«آسفة، أنا لم أعد أصدّق شيئًا» وتأخذ بالبكاء وكأنّ الدموع كانت جاهزة في عيْنيْها لتكمل:

«لقد خدعتني، غرَّرت بي وتحايلت عليَّ، ولو كنت سألتني بأنّ علينا أن نسجّل زواجنا في الجامع لما قبلت في الأصل. أنا أعيش في كندا وظروفي لا تسمح لي بالزواج منك الآن، أو الانتقال للعيش هنا في بريطانيا!».

كأنَّ ما قالته مدَّها بالثقة. تواجهه من دون أيّ ضعف أو دموع.

«ثم كيف تقبل الزواج من امرأة تتأرجح بين الإيمان وعدم الإيمان؟ من امرأة تعتقد بأنّها حوريّة من حوريّات الجنّة العذارى؟ أليس هذا نفاقًا؟».

«أرجوك أن تتوقّفي عن هذا الكلام، وإلّا..»، يقف بطوله أمامها وتجحظ عيناه كأنّه يهمّ بضربها.

«وإلّا ماذا؟». تردّ بصوت عال مستجمعة ما تستطيع من الشجاعة.

«تريد أن تطبّق المثل الذي سمعته منك هذا الصباح في السبيكرز كورنر، حين قلت (لا بدّ من ذبح الدجاجة إذا علا صوتها على صوت الديك)، هل تظنّ أنّني لم أفهم ما قصدته من عبارتك هذه!».

«لا أطلب الآن شيئًا سوى أن يمنحني الله صبرًا كصبر أيّوب».

صوته المتهجّد الضعيف جعلها تهدأ، شعرت بأنّها يمكن أن تملك هي القرار؛ لقد استعادت قوّتها.

«أنا لا أفهمك، إنّك غير معجب بشخصيّتي، ومع ذلك تصرّ على الزواج منّي بشكل رسمي؛ تريد شاهدين ومأذونًا وعقد نكاح! تخيّل أنّني وافقت ـ قل لي ماذا ستفعل بعد ذلك! أعيش معك هنا في هذه الغرفة وأقول باي باي كندا، حيث مصدر رزقي؟».

«أنا لا أطلب منك عدم الرجوع إلى كندا، أو العيش معي هنا! كلّ ما أريده هو أن أستغفر ربّي وأطلب منه عزّ وجل أن يسامحنا. أنا أعرف نفسي جيّدًا، فلن يغمض لي جفن، ولن أستريح قبل أن نسجّل زواجنا وبأسرع وقت».

أوشكت أن تقول له إنّها إذا وافقت على الذهاب إلى الجامع فلن يتسنّى لها الزواج من شخص آخر في المستقبل، إلّا بعد معاملة طلاق!

«متى تريد أن نسجّل الزواج؟».

«الآن، حالاً، نذهب إلى المسجد ونخبر الشيخ بما حصل بيننا ونطلب مشورته، ونفعل ما يشور به علينا».

«الآن؟ الساعة الحادية عشرة، والجميع نيام؟ على كلّ جواز سفري ليس معي! الغد، الغد، الصباح رباح، شرط أن أخبر الشيخ بأنّني أعيش في كندا، وبأنّ الزواج لم يكن فكرتي، وإنّما أفعل ذلك من أجلك أنت، لأنّك خائف من عقاب الله».

«نخبره بكلّ شيء؛ أنتِ تشرحين له وجهة نظرك طبعًا».

«أريد أن أفعل الصواب من دون ضرر أو إضرار».

«الصواب هو أن نذهب معًا الساعة الحادية عشرة صباحًا بإذن الله».

«سأغادر الآن، ونلتقي صباح الغد؛ فقط أريد عنوان الجامع».

«الأفضل أن تأتي إلى هنا ونتحرّك الساعة الحادية عشرة».

«اتّفقنا؛ قبل أن أذهب، هل تريد أن تجرِّب حتى نتأكّد أنّي لست حوريّة؟». تقول في نفسها لربّما غيّر رأيه حول تسجيل زواجهما في الجامع. «أرجوك؛ أنت تعرف أنّه إذا دعت الزوجة زوجها إلى الفراش وأبى وغضبت فقد لعنته الملائكة»؛ تتذكّر كلام أمّها وهي تحاول أن تنصح شقيقتها التي كانت تكره النوم مع زوجها. يقاطعها هشام: «ممكن أن تتّصلي بهاتفي حتى أسجّل رقم تلفونك؟».؛ تضرب رقمه وهي ترتعش، خاصّة بعد أن ابتسم وقال «ها هو رقمك!» وكأنّه يقول (لن تفلتي منّي، لقد وقعتِ في الفخّ). تسجيل رقمها الموقّت في تلفونه سبّب لها الاضطراب.

تدخل الحمّام من جديد، تفتح الحنفيّة من دون أن تستعمل الماء؛ تُنزل ماء السيفون من دون استعمال المرحاض، وكلّ ذلك وهي تتحدّث مع إيڤون وتأخذ منها رقمًا تحفظه من دون أن تسجّله، وهي ما زالت ترتعش.

توقف تاكسي؛ يصرّ هشام على مرافقتها. تنطلق بهما السيّارة. تعرف أنّه يريد معرفة عنوان سكنها مع إيڤون. يتوقّف التاكسي عند العنوان الذي أعطته للسائق. يترجّلان. تدفع الأجرة للسائق. تضرب رمز فتح الباب بسرعة فائقة حتى لا يحفظه. تسمع أزيز الباب فتدفشه.

«لا تنسي الساعة الحادية عشرة ومعك جواز سفر».

تدخل. تشير له مودِّعة. تصعد بالمصعد إلى الطابق الأخير ثم تنزل على الدرج إلى الطابق الأرضي. تتّصل بإيڤون من جديد. لم تخبرها بشيء ممّا حدث. تفتح الباب ببطء وتستكشف الطريق، وتتأكّد من أنّ هشام قد غادر بالفعل. توقف تاكسي وتعطيه عنوان بيت إيڤون. تمسك يدها بيدها، تطمئن نفسها بصوت سمعته لندن كلّها.

القسم الثاني

الفصل الثالث

لم تتوقّف إيڤون عن النظر إلى فستانها وهي تقود سيّارتها باتّجاه كنيسة St. Ethelburga في شرق لندن، لحضور حفلة زفاف جارها الذي لم يتحوّل إلى عشيق بل إلى صديق حميم. هل أخطأت في ارتداء هذا الفستان الأصفر اللون بدلاً من الأزرق الفيروزي الذي حمَّستها هدى على ارتدائه؟

أرادت الهرب من اللون الأزرق وخاصّة في هذه المناسبة. اللون الأزرق ومشتقّاته يذكِّرها بالذكور الرضَّع، وجواربهم وكنزاتهم الصوفيّة الزرقاء التي كانت النساء في بلدتها يحكْنها بالصنّارتيْن، تفاؤلاً بأن يكون المولود صبيًّا. أمّا إذا لم يواتيهنّ الحظّ وأنجبن البنات، فكُنَّ يضفن وردة بيضاء أو زهريَّة على كلِّ ما هو أزرق.

وإيڤون اليوم، باختيارها اللون الأصفر، كانت كمن تذيع على الملأ أنّها لا تبالي بالزواج أو الإنجاب، بل هي كالنرجس الكاذب الذي يتفتّح بدفء حرارة الشمس.

توقف سيّارتها في المرآب الذي كان على بُعد عشر دقائق من الكنيسة. تدخل ممرًّا ضيّقًا لا يوحي بحقيقة ما ينتظرها. باحة وحديقة خلف الكنيسة حيث انتشر المدعوّون في كلّ مكان. هنا إذًا ستصطاد رجلاً. لا، لن تصطاد، فالطريدة لن تفرح متى سقطت في يد الصيّاد؛ إنّها ستشبك رجلاً. فهي توقّفت ومنذ الصيف الماضي، عن الوقوع في الحبّ. حتى إنّها لم تحاول التعرّف على أحد كما كانت تفعل من قبل في كلّ المناسبات: في الجنائز، وعيادات الأطبّاء، في الاجتماعات، وفي السوبرماركت، وحتى في الأندرغراوْند حين بدأت تستقلّها من حين لآخر بدلاً من التنقّل بسيّارتها، ولن تعدِّد النوادي الرياضيّة ونوادي الهوايات وأماكن تعليم الرقص.

تتظاهر إيڤون بأنّها مهتمّة بكلّ ما تراه في باحة وحديقة الكنيسة، ما عدا الرجال.

تتأمّل الغرسات الخضراء، الشجيرات القليلة، وكأنّها تقف أمام كلّ شيء نادر ولافت، حتى أمام التمثال الذي لم يهمّها أمره، وهي تلاحظ من طرف عينيها أنّ أنظار النساء تلاحق فستانها. اطمأنّت، فالرضّع الذكور في لبنان لم ينتقموا من فستانها رغم أنّه ليس أزرق، فجماله أصبح بمثابة درع الوقاية يمدّها بالثقة. ابتسمت، وتحدّثت مع الكثيرين. قالت لبعضهم إنّها

مطلَّقة. عيناها تلاحقان الرجال، تحوَّلتا إلى آلتيْن تفرِّقان بين العزّاب والمتزوّجين والذين يحبّون المثليين أيضًا. تنحني وتحمل بين ذراعيها طفلة من دون أن تعرف أمّها. تدور بالطفلة وكأنّها في لعبة الدوِّيخة، محاولة إضحاك الطفلة لتلفت الأنظار إليها، فهي تعلّمت من أخطائها وأخطاء كلّ امرأة لم تتزوّج، أن تبدو طبيعيّة وسعيدة ولو أنّها من غير رجل أو ولد. ولَّت الأيّام التي كانت تتبادل فيها الرسائل الإلكترونيّة مع صديقات ومع مجهولات عن الحبيب المرتقب، فتفرح وتوافق التي كتبت: (لا تجعلوا اليأس يدبّ في نفوسكنّ! من يدري! فلربّما لمع البرق عمّا قريب!).

طوت تلك الساعات والأيّام عندما كانت تحتفل بها مع الأخريات في عيد ميلاد إحداهنّ، لتتحوَّل هذه المناسبة السعيدة إلى ما يشبه المأتم، وجميعهنّ يندبن حظوظهنّ ولتنهمر الدموع بالبكاء، خاصّة عندما علت صادحةً أغنيةٌ من الستّينيّات لكوني فرنسيس:

(تُرى أين هم الشباب

لا بدَّ أنّ هناك من هو بانتظاري

بوجهٍ باسم، بعناق دافئ

بذراعين تحضناني بكلّ حنان)

لتعلّق إحداهنّ: (هل تُرِدْنَ أن تعرفن من ابتكر إضافة الملح إلى الشوكولا؟ «إنّها دموعي المالحة المتساقطة عليها»).

حتى العالمة البيولوجيّة انضمّت إلى حلقة المتحسّرات

الخائبات في الحبّ؛ حاولت أن تحيي الأمل في نفسها وفي قليلات الحظّ أمثالها، فشرحت لهنّ كيف أنّ الحبّ كالبكتيريا، مفيدة وضارّة؛ فهي تساعد طبعًا في تخمير الأجبان وتحوّل الحليب إلى لبن؛ تضخّ النبات بالڤيتامينات، ولكنّ البكتيريا في الوقت ذاته قاتلة للإنسان والحيوان والنبات. نعم، العشق يلحس الإنسان كما يلدغه البرغش.

حتى هي، إيڤون المتميِّزة المتعالية، أخذت تدلق كلّ ما في جوفها من لوعة وازدراء ممّا حصل لها في الريڤيرا الإيطاليّة في الصيف الماضي. تكتب بالتفصيل، يومًا بعد آخر، رحلتها مع وحدتها من غير رجل. وبكلّ ما مرَّت به من أجل أن تعوم على السطح من جديد، بعد دخولها متاهة خلف أخرى، من كثرة ما جرّبت من حلول وعملت بنصائح حتى لو اتّسم بعضها بالغرابة والحماقة، كآخر محاولة لها من أجل شفائها من كلّ ذاك السواد الذي قبع في قلبها، عندما أدخلت إلى قفص كبير بحجم غرفة صغيرة. (القفص!) قالت لها المرأة التي لم تكن محلّلة نفسيّة أو مُصْلحة اجتماعيّة أو خبيرة تداوي بالأعشاب أو التنويم المغناطيسي، أو التنجيم، بل (ساحرة لديها قوّة خارقة)، هكذا وصفها لها الـ Osteopath وهو يقنع إيڤون باستشارتها.

(القفص هو قفصك الصدري، وأنتِ رمز للقلب)، ثم، وقبل أن تسألها إيڤون أيّ سؤال، بل وقبل أن تنظر إليها نظرة امتنان، هبطت العتمة الحالكة عليها وسمعت المفتاح يُدار في باب القفص:

(أرجوكِ، لحظة أرجوك) تنادي إيڤون المرأة، «لقد بدَّلتُ رأيي» ولكنّها لم تسمع جوابًا. تكوَّمت إيڤون في زاوية من القفص على الأرض الذي امتدّ فوقها فراشٌ مريح. القفص هو قفصي الصدري وأنا قلبي. ولا يمرّ الوقت لأنّها لم تستطع أن تراه في ساعة يدها. تحاول الاتّصال بهاتفها الخليوي وبالآيفون، لكنّهما أصبحا سوداويْن كأنّهما توفيا. يمضي الوقت ببطء زحف السلحفاة. تتحلّى بالصبر طويلاً قبل أن تنادي، تهزّ القضبان. تعطش، تبكي، تخاف، تنادي، تهزّ القضبان. لا تتوقّف. العرق ينزّ منها ولا يجفّ. تصيح تصيح تصيح. وما من مجيب! أخيرًا تسمع حشرجةً قرب القفص. أُدير المفتاح بباب القفص، وما إن تنطق المرأة حتى تُضاء الأنوار. (مبروك: أنت الآن امرأة جديدة. لقد دُستِ على كبريائك وتجرّدْتِ من الأنا). لم تُبالِ بصياح إيڤون وتهديدها بأنّها ستبلّغ الشرطة، بل واصلت كلامها: (لقد عدْتِ إلى الغريزة. أصبحتِ حيوانًا يحاول النجاة بنفسه بدلاً من هوسك ولهاثك وراء الكماليّات والمال والسلطة والرجل).

(أنتِ المحظوظة كوني لا أعاني من مرض القلب وإلّا قُضي عليّ. والآن يجب أن تعيدي لي ما دفعته لك).

(مستعدّة أن أفعل ذلك بعد شهر، إذا لم تشعري بتحسّن).

تُعيد إيڤون الطفلة إلى أمّها. تنتقل للتحدّث مع رجل مسنّ وكأنّه شابّ. تلمع عيناها وتبتسم له. تهرع إلى العروس كي تقبّلها، فتتراجع هذه وترمي لإيڤون بقبلة في الهواء هامسة «أخاف على المكياج».

«إذن سأقبِّل غلام قبلتين».

لو أنّها ما زالت إيڤون القديمة لكانت أجابتها: (ولو، لماذا تخافين على المكياج، ألم تشبكي رجلاً وها أنتِ عروس!).

زوجان يهرعان مع طفلهما، يتنفّسان الصعداء لأنّ مراسم الزواج لم تبدأ بعد. يقولان للعروسيْن إنّ القطار توقّف قبل أربع محطّات فاضطرا لركوب الباص.

(عليّ أن أكون ممتنّة جدًّا لحسن حظّي في الحياة؛ السيّارة أفضل لي من أن يكون لي طفل أجرجره في الباصات والأندرغراوْنْد!) لكنّها سرعان ما تنتقد تفكيرها هذا فتتهكّم على نفسها: (وأنتِ، هل ركبت سيّارة قبل أن تصبحي في الثانية عشرة من عمرك!).

تخلع حذاءها قبل أن تدخل الخيمة التي يسمّونها (خيمة جميع الأديان). كلمة (السلام) على باب الخيمة، مكتوبة بلغات عدّة: الإنكليزيّة، العربيّة، العبريّة، الهنديّة، وترافقها شعارات الأديان المختلفة. تركن حذاءها كالآخرين خارج الخيمة، كما طُلب في بطاقات الدعوة. تفرح حين ترى أنّ لونه قد طغى على ألوان الأحذية الأخرى. كانت صرفت زهاء ساعة وهي تختار، بمساعدة هدى، حذاءً وجواربَ لافتة جميعها للأنظار.

(حذاء ساندريلّا)، هتفت هدى وقتها وهي تمسك به. لقد اشترته إيڤون من الصين. كان مصنوعًا من قماش حريري أخضر كالعشب. فوقه أعشاب وأسماك مطرّزة بالخيط البرتقالي. (من يراه يا إيڤون سوف يهرع باحثًا عن صاحبته).. وهذا هو ما حصل.

جلست إيڤون في الخيمة الفسيحة المُحاكة من وبر الجمل. خيمة قيل إنّها بدويّة أصيلة. وبدلاً من رؤية شيخ العشيرة وضيوفه في ملابسهم البدويّة كما كانت تُرى في الكتب المدرسيّة، حيث يتولّى أحدهم دقّ حبوب القهوة في المهباج قرب الخيمة، محدثًا الصوت الرتيب في هدأة الليل وسكون الصحراء، حتى إذا ما سمعته القوافل المسافرة عن بعد، ابتهجت قلوب المسافرين واقتربوا من إيقاع المهباج إلى أن يصلوا إلى الخيمة، فإنّ أفراد عشيرة هذه الخيمة كانوا يخوضون عراكًا مع أطفالهم وأولادهم الذين لم يكفّوا عن التمرّغ على السجّادة العجميّة، والقفز على الوسائد والطراريح، برؤوسهم الشقراء والسوداء، يمرّون بأيديهم على رسوم القمر والشمس فوق زجاج نوافذ الخيمة الملوّن.

وأخيرًا، وعندما عمَّ هدوءٌ نسبي في الخيمة، تعالى الصخب في رأس إيڤون وهي تتساءل: (لماذا لم يفكّر لبناني واحد من الذين عارضوا الحرب الطائفيّة، بنصب خيمة كهذه تدعو إلى السلام والحوار والتفاهم بين العقول المتحجِّرة، بدلاً من الفرار إلى بلاد أخرى، أو الاختباء والتقوقع في الملاجئ كالجرذان!) لتستهجن أسئلتها هي نفسها: (خيمة سلام في قلب الحرب)، كانت القذائف ستنسفها بعد لحظات من رفعها، ولكان خرّ صريعًا من فكّر بإقامتها، والتهمت النيران كلّ عبارات السلام ومحبّة الأديان المرفوعة على مدخلها، خاصّة أنّ البارحة بالذات عاد لبنان يتصدّر الأخبار العالميّة من جرّاء ما يحدث في سوريا. سيّارات مفخّخة؛ اغتيالات؛ مقاتلو القاعدة؛ حزب الله؛ الأسد؛ المعارضة؛ إيران..

كأنّ خالة العروس التي كانت تجلس على يمينها حدست ما كانت تفكّر به إيڤون، فسألتها إن كانت صديقة للعروس أم العريس. وعندما عرّفت إيڤون عن نفسها، سألتها الخالة إن كانت مئة بالمئة لبنانيّة! إذ يبدو عليها وكأنّها أجنبيّة.

«هل تزورين لبنان؟».

«نعم أزور لبنان، مرّة كلّ عام أو عامَيْن».

«الأحوال هناك...؟».

«الأحوال هناك تثير في نفسي الاشمئزاز والغثيان. الأديان هي التي تترعرع وتشبّ وتأكل الشعب بعد شيّه!» تجيب إيڤون بهذه النبرة العصبيّة التي لا تماشي أجواء هذه المناسبة السعيدة أو أجواء السكينة في هذه الخيمة.

ترتبك خالة العروس وتعلّق:

«آه من الأديان، ألا ترين معي أنّ فكرة زواج صوفي وغُلام في هذه الخيمة فكرة رائعة؟».

«تمامًا!» تجيب إيڤون مبتسمة، رغم أنّ جوزة حلقها تكاد تطقّ من حيرتها التي عادت تطفو وتظهر مؤخّرًا.

(هل أنا لبنانيّة؟ أو هل ما زلت لبنانيّة؟ هل أطوي صفحة لبنان وعائلتي؟ ربّما إنّني طويت حتى الآن نصف صفحة، فأنا لا أتّصل بهم سوى بضع مرّات في السنة، وأزور لبنان مرَّةً كلّ سنتين أو ثلاث سنوات. هل انتمائي هو لهذه البلاد، أم أنّني أنتمي إلى شقّتي وشركتي فقط؟ لو أنّي بقيت في لبنان لما بقيت وحيدة حتى

الآن، ولكنت قد تزوّجت! وإن لم أتزوّج هل كنت سأعيش في بيتنا أصارع أمّي، أم كان راودني هاجسٌ آخر كالهرب من البيت أو ربّما السفر؛ ربّما لو بقيت في لبنان لكانت أمّي قد اعتادت عليّ بأنّي قويّة وأخت الرجال؛ ولكنت أنا قد اعتدت على كلامها لدرجة أنّي لا أعود أسمع ما تقوله، وحتى إذا سمعت، ضحكتُ وهززتُ كتفيَّ لامباليّة، بدلاً من الشعور بأنّها لا تحبّني لأنّ شقيقيّ لم ينجحا في الحياة. لو بقيت في لبنان لكانت الأيّام تراكمت على الماضي، فنسيتُه ولم يعد يشتعل بي كما يفعل الآن، لأنّي عندما تركت، كأنّي تركت كلّ شيء كما هو من غير زيادة أو نقصان). (هل كنت تزوّجت ورأيت نفسي وكأنّي عروس يحشوني أهلي بالطعام كالإوزّة البيضاء كي يأكل عريسي الغول شخصيّتي؟).

كانت إيڤون تسمع قصّة الغول الذي خطف فتاة، وأخذ يأتي لها بالطعام والمزيد من الطعام، وعندما سألته مرَّة: (لكنّك أيّها الغول عكس ما أسمعه عنك، فها أنت تطعمني بدلاً من أن تأكلني، بل تطعمني أكثر ممّا كان يطعمني أهلي)، ليجيبها: (طبعًا، أنا أطعمك حتى أسمِّنكِ وأستمتع بعد ذلك بأكلك، فأنت الآن نحيلة وأخاف على أسناني من قرقشة عظامك).

دخل الخيمة شابٌّ طويلُ القامة بنّيّ الشعر، أزرق العينين. يتردّد في الجلوس بين الصفّ الأوّل والصفّ الثاني حيث تجلس. هتف قلبها. فرحت في داخلها حين جلس إلى جانبها. (أشكر الله أنّي لم أبقَ في لبنان) وهتفت في قلبها (هويّتي هي الكون كلّه

وعلى رأسه هذه البلاد). التفت إليها الشابّ وكأنّه شعر بما قالته لنفسها:

«طول ساقاي سيعيق حركة المرور إذا جلست في الصفّ الأوّل»، مشيرًا إلى المقعد الذي أمامها. هل يعتذر لأنّه لا يريدها أن تشعر بالغرور كونه اختار الجلوس قربها!

تحدّث نفسها (الحمد لله أنّ ساقيْك طويلتان. لطالما أحببت حشرة فرس الشيطان وحاولت التقاطها، وساقاك يذكّرانني بها).

دخل العروسان ومن خلفهما رجل لا يرتدي أيَّ زِيٍّ ديني، وهو حائز على دكتوراه في اللاهوت، حسبما أشير في برنامج مراسم حفلة الزفاف.

ابتدأ بتلاوة الآيات القرآنيّة بلغة عربيّة ثقيلة، وردَّد أكثر من مرّة كلمة (نيكا، نكا)، ولم تفهم إيڤون ماذا يقصد: هل هي كلمة أجنبيّة؟ فوقع هذه الكلمة باللغة العربيّة يوحي بالمجامعة، ولكن كشتيمة سوقيّة. تتذكّر ما قاله الطاهر الظريف في السبيكرز كورنر عن تحريم انتعال أحذية Nike الرياضيّة. دارت إيڤون عينيها بالموجودين، ولمّا لم تجد أحدًا من أقارب غلام الإيرانيين يبتسمون أو يستهجنون، أخذت تقرأ في الكتيِّب، فإذا بها تجد الكلمة وهي النكاح أي المضاجعة. وكونها مسيحيّة فإنّها لم تكن تعرف أنّ كلمة النكاح مرادفة لكلمة الزواج، وأنّها تُقرأ فعلاً وتُكتب، وبأنّها مذكورة في القرآن.

كلمة النكاح هي خيط العنكبوت، تمدّه إلى فرس الشيطان، تُظهر له أنّها تغالب ضحكة عظيمة، تخفي عينيها بكفٍّ وفمها

بالكفّ الآخر. لكنّ الضحكة تهرب منها وتهزّها، وإيڤون تتصنّع بأنّها ما زالت تحاول كتمها من دون جدوى. نكزها فرس الشيطان هامسًا:

«ما الذي يضحكك؟» وتوشوش له في أذنه التي لم ترها من قبل، ولكنّها تحبّها حبًّا شديدًا:

«إنّه يردِّد مصطلحًا قديمًا مرادفًا لكلمة الزواج».

«ما هو؟».

«النكاح، إنّه العمليّة الجنسيّة: SCREWING, FUCKING.

«لكن كيف اتّفق أنّك تعرفين الفارسيّة؟».

«إنّها كلمة عربيّة، إنّه يقرأ من القرآن».

«هل درست العربيّة؟».

«أنا لبنانيّة».

«نيكا، نيكا».

تمدّ بخيط آخر.

«نكاح».

«نكاخ».

تقرِّب فمها من أذنه وتردّد «نكاح ححح» جاعلة حرف الحاء كفحيح ثعبان.

«نيكاخ خ خ تكاد تشبه ما تدلّ عليه، لكنّي أفهم تمامًا أنّه

يحافظ على اللغة المتوارثة».

«هششششش»؛ هناك من يحاول إسكاتها.

ما هذا الحظّ العظيم! الذي أتى لها برجل يقطر جاذبيّة، وفي مثل عمرها تقريبًا، يجلس إلى جانبها ويستفسر عن الكلمة المرادفة لفعل الحبّ، للوصال، وليس للحبّ العذري الذي لم يعد موجودًا حتى عند من هم في الثالثة عشرة! لا بدَّ أنّه خطرت بباله للتوّ صورتهما معًا فوق سرير أو وقوفًا. لكن هل يطير الآن عطرها الذي كان من العنبر، فيدخل شعيرات أنفه ويصعد منها إلى عقله فيسدي الأمر إلى عضوه كي ينهض من نومه ويفرك عينيه؟ توقّف نفسها عن الانجراف مع ما تشتهيه. لعلَّه كان يستفهم ليس أكثر. لعلَّ فضوله للتعرّف على اللغات وتعدّد الثقافات هو الذي يسأل وليس رغبته فيها.

لم تعُد تسمح للأوهام أن تتلاعب بها. هي إليزا دو ليتل تغنّي في فيلم سيّدتي الجميلة (لا أريد كلمات حبّ ولا كلامًا عن النجوم، أريدك أن تُظهر لي هذا الحبّ).

سئمت إيڤون من التحليل والتفسير! (هل تصرَّف الرجل معي هكذا لأنّه...؟ هل كان بتصرّفه هذا يعني شيئًا آخر؟ هل خجله هو ما يمنعه من الإمساك بيدي، أم أنّه يشعر بالقرف من الشعرة السوداء عند ذقني والتي نسيت التقاطها! ذهبتْ بعيدًا لتوهم نفسها بأنّ الرجال يهربون منها خوفًا من أن تضع رجولتهم تحت عدسة المجهر، فيخشون ألّا يتمكّنوا من تلبية رغباتها أو أن تتملّكهم وتذيب شخصيّاتهم!

شعاع ذهبيٌّ يدخل الخيمة، كذلك الهدوء التامّ. صوت من يُجري مراسم الزواج الرتيبة جعل الصغار يخلدون إلى النوم. إيڤون دخلت فقّاعة دافئة، خطفتها من واقعها. تشعر بالسعادة؛ بالثقة بالنفس؛ بالنشاط يتدفّق في حياتها من جديد. لم يكن سبب هذا التغيّر هو الساعات التي قضتها مع المحلّلة النفسيّة، كما أشارت عليها هدى أن تفعل طيلة الأشهر السابقة بدلاً من دلق ما كان يعذّبها على صفحات الإنترنت، بل كان السبب هو خفضها لوزنها؛ انكماش فخذيها وذراعيها وبطنها وخصرها؛ كأنّ هذه الكيلوغرامات التي طارت في الهواء، زادت من كِبَر ووُسع عينيها، ومطّت رقبتها، وشدَّتها طولاً، فهي دخلت حلبة الريجيم، فنقص وزنها وهي تصارع وتسدّد اللكمات إلى نَهَمِها وشراهة الأكل عندها، والتي كانت نتيجة شعورها باليأس والوحدة.

غُلام، عريس هذه الليلة قال لها مرّة عندما رآها تصعد درج البناية التي تسكن فيها، سيرًا على الأقدام، أنّ شقيقته في إيران قد أنزلت ما يقارب الثلاثين كيلوغرامًا لأنّها طبّقت على نفسها مقولة: (كوني كالنحلة، إذا أكلتْ أكلت طيبًا، وإذا وضعت وضعت طيبًا، وإذا وقعت على عود لم تكسره)؛ يُدوِّنها لها على ورقة كما طلبت منه، فتنسخها وتعلّقها في أكثر من مكان حتى إنّها ألصقتها على هاتفها الخليوي. وما إن تخلّصت من الخمسة كيلوغرامات الأولى حتى أحاطت نفسها بأقوال أخرى مثل (من قلَّ أكله، صفا فكره)؛ (من كانت همّته ما يدخل بطنه، كانت قيمته ما يخرج منه)؛ (قلّة الأكل من العفاف، وكثرته من الإسراف)؛ و(المعدة بيت الداء والحمْية خير دواء).

ولم يكن الطعام فقط هو ما تجنّبته، بل الرجال أيضًا.

شراهتها وشهيّتها للطعام هما ما حدَّ من رغبتها في الرجال. فغريزتها الجنسيّة لم تكن تعرف الخجل أو العار، تغدقها على من معها من غير عدٍّ أو حساب، ولم يكن يميّزها عن الحيوان شيء سوى التفنّن في إسعادهم، فقد أرادت أن يُدمنوا عليها كالمخدِّر.

أجبرت نفسها كلّما دخل على جليدها ذرَّة من الدفء أن تخمد الشهوة، محاولة تطبيق نظريّة خالها الخوري في الكنيسة الذي أجاب أمَّها عندما سألته بصراحة إن كان يشتهي النساء أحيانًا:

«إذا ترك الإنسان جسمه يا أختي، نسيه جسمه بعد حين، وماتت شهوته إلى الأبد».

لا بدَّ أنّ خالها كان يكذب. فقد تركت إيڤون جسدها طيلة عام، لكنّها لم تتخلّص من هوسها بالرجال. وصلت إلى قناعة بأنّ توقها لعلاقة مع رجل هو من فعل الطبيعة، فحيث يوجد رجلٌ توجد امرأة، كما حيث يوجد بحر توجد أمواج.

عقلها وجهازها التناسلي هما السبب والمسبِّب. حاول الآخرون إقناعها بأنّ المرء الذي يقع في الحبّ والشهوة يتعذَّب. السعادة والألم مجبولان معًا. ولكنّها وبدلاً من أن تقي نفسها راحت تتغنّى بالرجل كما تغزّل أبو نواس بالخمرة:

دع عنك لومي فإنّ اللوم إغراء / وداوني بالتي كانت هي الداء.

هل هي كأفعى الكوبرا التي لا تتمايل في الحقيقة على أنغام الناي، إذ إنّها صمّاء في الواقع، وحين تتلوّى تفعل ذلك احتراسًا من الحاوي، لذلك نراها تتمايل مع كلّ حركة تصدر عنه، وتعدّ نفسها للسعه إذا اقتضى الأمر؟ (هل أنا الحاوي أم الثعبان يا تُرى؟) تسأل نفسها وتزداد حيرة.

تغوص بين الوسائد. ما زال العروسان ينصتان إلى من يزوّجهما كأنّهما تلميذان أمام أستاذهما. تُرى هل يسمعان ما يقولُه؟ بينما أنصت المدعوون لسماع مراسم هذا الزواج الديني وغير الديني في الوقت نفسه، فهو يتحدّث الآن عن دوْر المرأة في طاعة زوجها، وعن الرابط الذي يجمعهما وهو المودَّة الثابتة التي لن تتبدّل أو تتغيّر على مدى الدهر!

تتأمّل ساقيّ جارها الطويلتين، ترتعد خوفًا، لا لأنّه المارد في قصّة الأطفال (بين ستوك) Bean Stalk بل لأنّها تتدهور وتغوص في غرابة الأطوار، فما تطمح له الآن هو ساقاه فقط. وتحاور نفسها (كفى، أرجوكِ لا تلعبي معي هذه الألاعيب، لقد طوينا معًا صفحة الماضي، واليوم هو بداية عهد جديد. أنتِ تشتهين فرس الشيطان هذا، وليس ساقاهُ فقط)؛ وتدافع عن نفسها (ساقاه هما ما أحبّ. ساقاي القصيرتان هما الحشيش، وساقاهُ جذعا شجرتيْن. ترفعانني عن الأرض. أريد أن أجلس مع ساقيْه، أحضنهما، أحدّثهما؛ سأكلّمه سائلة ملهوفة: هل أرى ساقيْكَ هذا المساء؟ هل هما مشغولتان؟ أرجو أن تسألهما عن الزمان والمكان، تخبرني أين سيقودانك وسأسارع إلى لقائهما).

يصفّق الحاضرون وينحني غلام ليقبّل صوفي بعد أن تبادلا حشر خاتمي الزواج الواحد في أصبع الآخر. تتعالى الزغاريد من الحناجر الإيرانيّة، بينما يعلّق رجل إنكليزي متقدّم في السنّ قائلاً لزوجته «هذا زواج غريب، لم أفهم نصائح الرجل الذي كان يعقد قرانهما: هل هما لصالح حبيبتنا صوفي أم ضدّها! عليها الاحتراس!».

تغادر إيڤون الخيمة مع الآخرين. تتلكّأ في انتعال حذائها الصيني؛ تبحث عن فرس الشيطان، وعندما بدأ يدبُّ اليأس في نفسها فاجأها بقوله:

«ها، إذن أنتِ صاحبة هذا الحذاء الرائع! الوحيد الذي لا يعلو عن الأرض، من أين أتيتِ به؟

«من شنغهاي».

«هل يتحدّثون العربيّة هناك؟».

«طبعًا».

يقول لها بنظراته إليها (أنتِ خفيفة الظلّ، مرحة وواثقة من نفسك، ولا يبدو أنّ هناك ما يشغلك).

سارا معًا إلى الباحة حيث وقف العروسان يتقبّلان التهاني. يتوقّف فرس الشيطان ويتحدّث مع آخرين. لم تقف معه كما كانت عادتها من قبل. واصلت سيرها تبتسم وتلقي التحيّة على بعض من تعرفهم ومن لا تعرفهم. تدور وتحور إلى أن عرفت اسمه؛ جيمس ف.، تبحث عن الصالة التي ستقام فيها حفلة العرس بعد

قليل. تبحث في الورقة التي عُلِّقت على بابها عن اسمه واسمها في لائحة المدعوّين ورقم طاولة كلّ منهما. تدخل الصالة التي ما زالت خالية إلّا من بعض السقاة. تستبدل بطاقة تحمل اسمًا من إيران كان على يمينها ببطاقة جيمس ف.، وحين شعرت بوخز الضمير خطر لها المثل القائل: (الحظّ لن يسعدك إلّا إذا تعاونت معه).

تهنّئ العروسين قبل أن تقف أمام الملصق الكبير من أجل أن تقدّم لهما كلمات التهنئة، لكنّها أرادت أن تفعل ذلك بالرسم وليس بالكلمة كما فعل الكثيرون. جعلت طول الملصق بطول طرحة العروس، وزيّنته بالعصافير والورود والفراشات وبأكثر من قوس قزح، ليجيء توقيع اسمها وكأنّه جناح لإحدى الفراشات. ستفعل المستحيل من أجل أن يرى جيمس ما رسمته. ولّت الأيّام التي كانت تحاول فيها جذب الرجال إليها بإهدائهم القمصان وربطات العنق والمشالح، وبالتباهي بشكل محرج بأنّها صاحبة شركة! وبالإصرار على الدفع في المطاعم ودور السينما والنوادي الليليّة.

اقتربت لتستقرّ قرب فرس الشيطان، فهتف:

«ساندريلّا إيڤون! لا أصدّق، نجلس معًا في الخيمة ونجلس معًا في الحفلة!».

«لقد حاولت المستحيل كي أجلس قربَك، لقد بدَّلت ترتيب الأسماء!».

«طبعًا، طبعًا، أصدِّقك!».

ولن يصدّقها أيضًا إذا قالت له إنّها تخيّلت نفسها في الخيمة عروسًا له.

ألحان موسيقى التكنو تصدح! التكنو، لأنّ رأسه سيتلقى الإيقاع أفضل من معتدلي أو قصار القامة.

يستهلّ الرجل الذي يعقد قرانهما (مرحى، مرحى بالعروسيْن إيڤون وفرس الشيطان، هي من البحر المتوسّط، وهو من نهر التايمز، وقد التقيا فوق هذه الجزيرة!).

«هل كتبتَ شيئًا على ملصق التهنئة؟ لقد رأتني أمّ العريس أرسم العروسيْن فأصرَّت على أن أجعل غلام أطول ممّا رسمتُه، ففعلت ذلك، لكنّها رجتني من جديد ألّا أبخل عليه ببضع سنتمترات أخرى، وعندما شرحت لها أنّ من الصعب تقنيًّا فعل ذلك، اقترحت أن أجعل العروس أقصر قامة ممّا هي في الواقع».

ضحك جيمس وأسرع تاركًا مكانه من غير أن يعتذر أو يعطي سببًا. تحمد الله أنّهما جالسان حول مائدة، وإلّا كان تذرَّع بأنّه سيملأ كأسه، ثم لا يعود.

رجع إلى الطاولة ووجهه يتهلَّل انشراحًا.

«أوه، يبدو غلام وكأنّه مارد أمام صوفي. أحببت الرسم كثيرًا، هل أنتِ رسّامة؟».

«أعمل في مجال الدعايات» تقول، وهي مستبشرة فرحة لأنّ ما رسمته قد لفت نظره، ومعنى ذلك أنّه قد جُذب إليها.

عندما قلتُ لوالدته إنّ غلام يبدو أطول من صوفي بكثير، مع

أنّ صوفي هي في الحقيقة أطول منه، أجابتني بأنّ ابنها أطول ممّا هو، لكن طريقة وقوفه وجلوسه ومشيه هي التي تجعله يبدو أقلَّ طولاً، وطبعًا صوفي ليست قصيرة!».

يضحك جيمس «هل تراكِ أمّك أطول ممّا أنتِ؟».

«عندما بلغت السادسة عشرة من عمري وطلبت منها أن تشتري لي حذاءً عالي الكعب، أجابتني ساخرة بقولها أن (أبقى كما أنا في حال وقعت منّي بيضة فإنّها لن تنكسر)».

يقاطعها جيمس بضحكة قبل أن تكمل:

«وما كان منّي إلّا أن أخذت بيضة من الثلّاجة وأسقطتها على أرض غرفة الجلوس!».

ولم تكشف له عمّا قالته لها أمّها بعد أن ضربتها: (خيرٌ صغير وشرٌّ عظيم).

«عليك أن تشكري أمّك، فالنساء اللواتي ينتعلن الأحذية عالية الكعب يمشين كالزرافة التي تعاني من آلام الظهر، بينما حذاؤك الرائع هذا يجعلك رشيقة. هل تظنّين أنّ ساندريلّا كانت رشيقة؟».

«طبعًا! لكن هل تريد أن تأخذ حذائي وتقدّمه هديّة لصديقتك؟».

«أنتِ شيطانة، تريدين أن تعرفي إن كان لديّ صديقة أو زوجة ربّما!».

«تمامًا، فأنا في عجلة من أمري، لأتزوّج وأستقرّ وأنجب منك عشرة أطفال».

«أعرف، المرأة تقول إنّها لا تودّ شيئًا سوى الزواج، ثم، وبعد أن تتزوّج تريد كلّ شيء».

«بينما الرجل يتردّد ما بين أن يدقّ وشمًا على جسمه، أو يتزوّج امرأة ممشوقة القدّ! شقيقي الأكبر مثلاً أحبّ مغنّية لا صوت لها ولكنّها في منتهى الجاذبيّة. ظهرت في أكثر من كليب تلفزيوني، وعندما تزوّجها وعاشا معًا بضعة أسابيع، لعن اليوم الذي اشترى فيه التلفزيون!».

«صحيح كلامك هذا؟ أم أنّك تمزحين؟».

«هذه نكتة قرأتها. على كلّ حال لم أسألك ماذا تعمل، كي أقرّر إن كنتَ أهلاً لي أم لا!».

«أعمل ناقد طعام».

«عظيم، إذًا لن أجوع أبدًا في حياتي».

وكأنّ السقاة كانوا ينتظرون جملتها هذه، إذ أخذوا يفرشون الموائد بأطباق المأكولات، ويفتحون زجاجات النبيذ، لينكبّ جيمس والآخرون على الصحون يأكلون بكلّ نهم، بينما أخذت هي تأكل بكلّ تأنٍّ، تمامًا كجارهم زوزو الذي اشتهر بالمزمزة، فكان يأكل قرص الكبَّة على أكثر من عشرين لُقمة!!

«أنتِ تنقرين الطعام كالعصافير».

«أوه، لا، هل تراني سمينة؟».

«قلت كالعصافير».

«سمعتك، لكن هل تعرف أنّ العصافير نهمة في الأكل، إنّها لا تتوقّف عن نقر الطعام والبحث عنه طول النهار وحتى تخلد إلى النوم».

يضحك ويغصّ بالضحك. حالفها الحظّ من جديد.

«أوه، أحبّ هذا. أنتِ خفيفة دم. ذكيّة وفستانك رائع، رائع!».

«شكرًا».

«لماذا تعيشين هنا وليس في بيروت؟ أوه كم أتمنّى أن أزور بيروت، تبدو لي مدينة ساحرة!».

وقبل أن يتحوّل ضيقها إلى عدم ثقة بالنفس، لأنّه يتمنّى لها أن تكون في بيروت بدل لندن، قالت:

«أفضِّل العيش هنا، لأنّي سمعت بأذني، قبل أن أفرَّ من الحرب، مقاتلين في صفوف الميليشيا المسيحيّة يتشاورون فيما بينهم إن كان باستطاعة رصاصة واحدة أن تقتل ثلاثة من المخطوفين بدلاً من ثلاث رصاصات، إذ تخترق جسم الأوّل وتعبر إلى الثاني فالثالث!».

تتساهل معه ومع نفسها.. فلقد حدثت الحرب قبل سنوات طويلة وباتت تقبع الآن في ملفّات التاريخ.

«أوه، أرى أنّك لم تتصالحي مع آفات الحرب بعد، أنا لا ألومك أبدًا، فحروب هذه الدنيا هي الجحيم نفسه».

ينهمك من جديد في سكب الطعام لنفسه، وفي محادثة مع الرجل وزوجته الجالسين إلى يساره وقبالته، ويتبادل المعلومات حول لعبة الكريكت. وعندما مضت الدقائق، والربع ساعة والنصف ساعة من دون أن يخصّها بالحديث، نهضت وتوجّهت إلى طاولة العروسين، تضع ذراعها على كلّ منهما، وفكّرت بالخروج إلى الباحة، والحديقة، لتتحدّث في هاتفها، عملاً للمرّة الأولى بنصيحة المحلّلة النفسيّة: (كلّما شعرتِ بالضيق، اتّصلي بي أو بأحد قريب منك، اتّصلي بـ ١٢٣ لتستمعي إلى تسجيل الساعة، وسيؤكّد لك ذلك أنّ كلّ شيء يتبدّل ويسرع، وما من شيء يدوم على حاله، وهكذا العلاقات؛ تذكّري دائمًا أنّ الرجل يعاني أحيانًا من الارتباك والخجل ولا يقصد التجاهل أو التحقير. لا تنسي أنّ العقل يقرّر ويتصرّف أحيانًا من دون استشارة صاحبه).

(وأنت يا ستّ إيڤون) تخاطب نفسها، (تذكّري أنّه لم يمض أكثر من بضع ساعات على تعرّفك عليه، فلماذا العجلة وضيق الصدر هذا؟)

ما إن تتناول شنطة يدها وتهمّ بمغادرة القاعة إلى الباحة، والحديقة، حتى ينادي جيمس وهو يلحق بها:

«لا تقولي إنّك مغادرة!».

«أغادر من غير أن أودّعك؟ حتى تقدم على الانتحار!».

يضمّها إليه بكلّ فرح، تحبّ جسمه ورائحته، وتتمنّى لو أنّه

يضمّها إليه مرّة أخرى، وسرعان ما تكتشف أنّها وقعت في حبِّ صوته أيضًا. يسير معها خارج الصالة إلى الباحة.

«أنتِ فعلاً شيء آخر. لم أسألكِ عن طبيعة عملك؟».

لو حدث أن سألها رجل في العام السابق ماذا تعمل للمرّة الثانية لكانت أنَّبتْه (ألم تسألني قبل قليل؟ هل نسيت لأنّك غير مهتمّ بما أقول أم أنّك أبله، شيء غير معقول).

«أنا أعمل في الإعلانات، وأنت تعمل ناقدًا للطعام، ولهذا فأنت لست بحاجة إليّ وأنا لست بحاجة إليك، وما يجمعنا الآن هو هذه المناسبة السعيدة، وجمال هذا المساء».

ناطحات السحاب العملاقة المحيطة بهذه الباحة تتوهّج بالأنوار. تطلّ بوجوهها على رجل وامرأة التقيا في عُرس. تحاول المرأة أن تخدش قشرة حياء الرجل الذي لا يدري ما الذي يفعله! وهي لا تعرف لماذا لم تعد خائفة. هل يقصّ الخيوط التي بدأت تنسجها حوله ويولي هاربًا؟

«لقد شربتُ كثيرًا، لا أعرف لماذا يزداد شربي في الأعراس!»

«لا يبدو عليكَ أنّك سكران. لم تقل لي، في أيّ مجلّة تكتب؟».

«مجلّة اسمها سلو Slow. ليست معروفة طبعًا كالمجلّات الأخرى. لكن لنا رسالة: نحاول أن نعيد الناس إلى الطعام البيتي».

«أعرف المجلّة جيّدًا. النمل المقلي وصراصير الغابات المشويّة والجنادب. لقد استأذنت منّي المجلّة، أظنّ في العام الماضي، لنشر إحدى رسوماتي، و..».

«قولي لي إنّك وافقت من أجلي!».

«طبعًا من أجلك، فأنت تحبّ اللبنة اللبنانيّة على شكل كرات صغيرة كالبنغ بونغ».

«لا، لا أصدّق، هل هو الرسم الذي كأنّه لوجوه نساء ورجال وكان معلّقًا في مطعم لبناني اسمه (يا زمان)!».

«أيّام زمان، نعم هذا الرسم لي!».

لا أصدّق، لقد لفت نظري حين ذهبت إلى المطعم وأعجبني، وطلبت من مساعدي الاتّصال بصاحب الرسم كي يسمح لنا بنشره في المجلّة، رغم أنّ المطعم أكّد لي أنّني لا أحتاج للاستئذان!».

«أكاد لا أصدِّق».

لحظات من الصمت والتحديق بها قبل أن يعود إلى الحديث:

«بما أنّك صاحبة ذاك الرسم ستتفهّمين لماذا أنا في غاية السكر؛ لقد هربت زوجتي من البيت منذ شهرين، ولكنّني اكتشفت حكاية هروبها البارحة فقط».

«كيف حدث ذلك، هل كنت مسافرًا؟».

«لا، لا.. أبدًا».

«إذًا زوجتك جاءت بشقيقتها التوأم!».

«لا، لا تتعجّلي الأمور... لقد أوهمتْني أنّها لا تزال تعيش معي في البيت، بينما كنت في الحقيقة أعيش مع روبوت نسخة طبق الأصل عنها».

تبتسم بارتياح.

«لا، أرجوكِ ألّا تضحكي، أنا في منتهى الجدِّيَّة؛ كنت في غاية السعادة في زواجي، إلى أن وقعت في غرام زميلة لي بعد أن انضمّت إلينا في المجلّة. ظننت في بادئ الأمر أنّ هذه الزميلة ستكون كالكثيرات اللواتي أدعوهنَّ إلى العشاء من أجل أن أجرِّب طعام هذا المطعم أو ذاك؛ لكنّ حبّي لها أصبح أقرب ما يكون إلى الهوس. استشرت أكثر من صديق حتى إنّي أوهمت زوجتي بأنّي أقصّ عليها ما حدث مع صديق لي وكيف أنّه وقع في حبّ امرأة غير زوجته، وكيف أنّ الحيرة تكاد ترغمه على أن يترك زوجته وولديْه ليعيش مع الزميلة».

«هل لديك أولاد؟».

«لا أعرف، لكن اسمعي ما اقترحته زوجتي؛ نصيحتها أن يترك صديقي البيت لأنّ الحبّ لا يطلّ إلّا نادرًا، وأن يلحق بحبّه وقلبه. نصيحتها تلك كبّلتني بالمزيد من الجنازير. تأنيب الضمير كاد يميتني لأنّها كانت في غاية البراءة، وغافلة تمامًا أنّ باستطاعتي أن أكون صديقًا أمينًا للشرّ والخيانة. لم يعد

باستطاعتي النوم أو تذوّق الطعام إلى أن ظننت أنّ ساقيًا في مطعم قد أسعفني وقام بنجدتي عندما طلب منّي أن أكتب عن روبوت قام هو بصنعه، حيث إنّه يعمل في النهار لدى صانع روبوتات في منطقة وندزوورث. وكان الروبوت الذي أنتجه على هيئة ساقٍ مثله، ومن الصعب على أيّ أحد أن يميّزه عن الساقي الآدمي. أوهمته طبعًا بأنّي سأكتب عن روبوته هذا، واتّفقنا على اللقاء في المصنع. ذهبت قبل الموعد، وأخذت أبكي وأنا أخبر صانع الروبوتات عن حالتي وطلبت منه أن يصنع لي روبوتًا طبق الأصل عنّي، إذا أمكن ذلك، حتى أضعه في بيتي ليعيش مع زوجتي الغافلة عمّا يجري، بينما أعيش أنا مع حبيبتي من دون وخز وتأنيب ضمير. لم يستغرب صاحب المصنع الأمر، وأشار إلى عشرات الروبوتات أمامه وقال (كلّ هذه الروبوتات التي تراها أمامك هي طبق الأصل عن أشخاص حقيقيين وقد حصل معهم مثل ما يحصل معك وفكّروا بالحلّ نفسه. لكن دعني أقترح عليك أمرًا مهمًّا. أنصحك بأن تترك لزوجتك مصروفا كلّ ستّة أشهر بدلاً من الذهاب إليها شهريًّا لزيارتها وإعطائها المصروف، فأنا اكتشفت من واقع خبرتي بأنّ الروبوت بخيل جدًّا، ربّما لأنّه لا عواطف عنده ولا حبّ ولا يتمتّع بالمشاعر النبيلة تجاه الآخر. إنّه روبوت). وافقته على اقتراحه فهو أخبر منّي في هذه الأمور. وتذكّرت كيف أنّني لم أعدْ كريمًا مع زوجتي كما كنت قبل أن أتعرَّف على حبيبتي.

وقبل التعاقد معه ودفع القسط الأوّل، نظر إليّ وقال: (هل لي أن أسالك لماذا لم تترك زوجتك بل لجأت إلى وسيلة

الروبوت هذه؟) وأجبته (بأنّي رغم توقي الشديد للعيش مع زميلتي إلّا أنّني أريد أن أحفظ خطّ الرجعة، في حال غيّرتُ رأيي بعد فترة من الزمن، فنحن أحيانًا نتوهّم أنّنا وقعنا في الحبّ فنسارع إلى الهجر والطلاق لنُصاب بخيبة أمل وندم شديدين، ولكن بعد فوات الأوان وحين لا ينفع الندم. ونكون قد دمّرنا حياتنا وحياة من نحبّهم من دون أن نجني شيئًا؛ وافقني الرجل واتّفقنا على أن يتّصل بي حين ينتهي من صنعه؛ وفعلاً اتّصل بي بعد شهر واحد طالبًا منّي الحضور فأسرعت إليه، وما إن دخلت المصنع حتى أصابني الذهول وأنا أرى روبوتًا طبق الأصل عنّي، جالسًا هناك في المصنع يتحدّث إلى العمّال ويمازحهم؛ وضعت يدي على فمي لأحبس شهقة استغراب وإعجاب، ففعل هو الشيء ذاته. لقد أتقن الصانع صنعه بشكل رائع، حتى الشعر كان مثل شعري البنّي، ويتخلّله القليل من الشيب. فرحت بالنتيجة).

(لكن ماذا عن فعل الحبّ؟ هل يشتهي الروبوت ذلك؟) سألت الصانع وأنا في أشدّ الحيرة.

(يتمكّن من فعل كلّ شيء ما عدا المضاجعة! ولكن أستطيع أنا أن أضيف برنامجًا خاصًا يمكّنه من ذلك، غير أنّه سوف يستغرق الكثير من الوقت ويحتاج إلى الكثير من المال. إنّه برنامج معقّد) ثم يُكمل:

(لكنّني استنتجت من كلامك أنّك توقّفت عن مضاجعة زوجتك بعد أن وقعت في حبّ أخرى!).

ومضى يشرح لي الفارقَ الآخر بيني وبين الروبوت وهو عبارة

عن رنين خافت يصدر عن إحدى أذني الروبوت، لأسأله وأنا في غاية القلق (هل هذا الرنين الخافت سيظلّ يرنّ طوال الوقت؟ فحاسّة السمع لدى زوجتي قويّة كالخُلد!).

(لا تخف، هذا لن تسمعه زوجتُك إلّا إذا وضعتْ أذنها فوق أذنه اليمنى تمامًا، وحتى لو فعلت ذلك فستظنّ أنّ هناك خللاً في أذنك أو أنّ هذا الرنين صادر عن الثلّاجة).

أجبته بأنّني (لديّ فكرة: لماذا لا آتي بسمّاعة هذه الليلة موهمًا إيّاها بأنّ سمعي قد خفّ في الفترة الأخيرة، فتطمئنّ بأنّ صمتي مؤخّرًا ناتج عن ضعف سمعي)؛ ضحك صانع الروبوتات وقال (لقد غلبتَني!).

ثم سألتُه السؤال الأخير (لكن لم تقل لي كيف يتوقّف الروبوت عن الحركة والكلام) فأجابني (أثناء النوم، مثلنا).

(لا، قصدتُ ماذا أفعل إذا أردت الاستغناء عن خدماته؛ كيف أقتله؟) قال (بشدِّ أذنه اليمنى، وإذا أردت إحياءه من جديد، تضغط على الأذن ذاتها مرّة أخرى، تمامًا كالكومبيوتر).

تسرع إيڤون للاقتراب من جيمس، تضع أذنها على أذنه:

«آه، لا أسمع رنينًا، أنت الأصل، هيّا أخبرني حالاً كيف تركتك زوجتك إذن؟».

«لن أكمل قصّتي قبل أن أتأكّد من أنّك حقيقيّة ولستِ روبوتًا؛ لربّما أرسلتكِ زوجتي لتتجسّسي عليّ»؟ يضع فمه على أذنها اليمنى فتسمع لهاث شفتيه. هل يقول لها إنّه متزوّج؟ لا

أهمِّيّة لذلك، فهو مثير للجاذبيّة ومسلٍّ. ألم توشك هي على إقامة علاقة مع ساقيْهِ فقط؟

«اسمعي يا صديقتي ما حصل في اليوم الذي قرّرت فيه ترك البيت وزوجتي. قمت من سريري بهدوء تامّ أنتظر مجيء الصانع عند الفجر حاملاً توأمي الذي يرتدي بيجامة مثل بيجامتي، وما كان عليّ إلّا أن أشدّ أذن الروبوت حتى أبثّ فيه الحياة، فيتوجّه إلى غرفة النوم بدلاً منّي ويكون كلّ شيء على ما يرام؛ لكنّني تذكّرت فجأة أنّني تركت آيفوني على الطاولة قرب سريري. فدخلت من جديد إلى غرفة نومي لتسألني زوجتي (ماذا جرى؟ لقد سمعتُ جلبة) فقلت لها (آسف كنت في المرحاض مدّة طويلة، لا أعرف ما الذي أكلته الليلة الماضية، أعاني من ألم خفيف في أمعائي، أخذت حبّة دواء). عدت مكرهًا إلى فراشي وتصنّعت النوم، ولكن وجدتُني وهي تتململ في النوم، أقرّب نفسي منها، ألتصق بها حتى تعود إلى النوم مقلّدًا كلبنا الذي فقدناه منذ عام، والذي كان يلتصق بي أو بها من أجل أن نغطّ في النوم من جديد. زوجتي تتململ مرّةً أخرى. هل فسَّرتْ التصاقي بها ببدء رغبتي في مطارحتها الغرام؛ أشدّها إليَّ أكثر فأكثر، خوفًا من أن تقوم من السرير وتنزل إلى المطبخ وترى الروبوت. أنفاسي على رقبتها؛ إنّها تتململ؛ ألصق وجهي بوجهها؛ أسمع رنينًا خافتًا يصدر عنها؛ أم أنّني تصوّرت ذلك؟! أقفز مذعورًا فتسألني:

(هل تعاني من الألم؟) فأقول (قليلاً، دعينا ننام). امتنعتُ عن الحركة بعد أن حضنتُها من جديد. كتمتُ أنفاسي، أريدها أن

تغطّ في النوم حتى ألوذ بالهرب، فإذا بي أسمع الرنين من جديد؛ قرَّبتُ أذني من أذنها اليمنى فإذا بالرّنين يزداد؛ فجأة ضغطت على أذنها بكلّ ما أوتيت من قوّة، فإذا برنينها يتوقّف، ويتوقّف كلّ شيء بها. رحتُ أهزّها أصيح بها، أضربها على الوجنتين، أحاول فتح عينيها، من دون فائدة!

أخذ جيمس رأسه بين يديه ثم رفعه ليسأل إيڤون:

«هل سبقتني في الاحتيال من أجل عشيق؟ أم أنّ صانع الروبوتات أسرَّ لها بما كنت أنوي عليه؟ أين هي يا تُرى؟ لا أريد شيئًا سوى معرفة الحقيقة!».

«لكنّك تحرَّرت منها، من مسؤوليّة تركها، وبإمكانك الآن أن تعيش مع زميلتك، حبيبتك، بدون شعور بالذنب أو تأنيب الضمير، بينما زوجتك هي التي تقضم أظافرها حيرةً وربّما ندمًا على ما فعلت».

«لكن أريد أن أعرف من هو الذي وقعت في غرامه، ومتى حدث ذلك؟».

تضمّه إيڤون، تواسيه، وكأنّه طفلها وتقول: «ربّما إذا جعلت روبوتك وروبوت زوجتك يعيشان معًا، فهذا في رأيي هو الحلّ الأفضل، ما رأيك؟».

«لكن لماذا أتعذّب يا تُرى؟ هل ما زلت أحبّها؟ وكيف أحبّ من خانتني؟ هل هو الفضول لمعرفة ما حدث؟ أم أنّ ثقتي بنفسي تزعزعت؟».

«لكنّكما تعادلتما. لا تنس أنّك أنت أيضًا خنتها. هلّا أخذتني إلى صانع الروبوتات؟ أريده أن يصنع لي واحدًا طبق الأصل عنّي حتى يداوم في المكتب بدلاً منّي أحيانًا. لم تقل لي ماذا فعلت بالروبوت خاصّتك، هل أستطيع استئجاره، فأنا أحبّ أن يأتي للسكن معي».

يقترب من أذنها: «أوه، كم رنينك جميل بحقّ، خاصّة أنّه يفرز عطرًا، اسمه مخزونٌ في ذاكرتي ولكن لا يحضرني الآن».

كلامه اللذيذ لا يسدّ جوعَها بل يزيده. «إنّه.».

«لا لا، لا بدّ من الحذر. مسك وصندل؟ أم ياسمين وعنبر؟».

«إنّه عنبر وفانيلّا».

«طبعًا أنت تشنّين حربًا كيماويّة لاصطياد الرجال».

ينحني فوقها خافضًا رأسه وصدره؛ ما إن يصل إلى شفتيها ويلامسهما بشفتيه حتى تحدث معجزة: يتحوّل عقلها إلى صفحة بيضاء، مُحيَ منها الماضي والمستقبل؛ طالت القبلة الشهيّة بينهما إلى أن احتاج كلّ منهما للتنفّس.

«أحبّ قبلة الروبوت هذه، هل هي ألسنة العصافير؟ مع السمّاق والصعتر؟».

«من أعدَّ لك هذا الطبق؟ لا تقل لي إنّها خالتي!».

«طبعًا خالتك، في آخر زيارة لي إلى لبنان».

«هل أخبرتْكَ كيف فكّرت بهذه الطبخة؟».

«لم أسألها، كنت منشغلاً بالأكل والنظر إلى ساقيها؛ كانتا رائعتين».

«خالتي هي التي اخترعت هذه الوصفة في ليلة زفاف ابنها، حتى إذا ما اختلى بعروسه فضَّ بكارتها وكأنّه شمشون الجبّار، و..».

«من هو شمشون الجبّار هذا؟ رافع أثقال لبناني؟».

«لا، إنّه وزير الدفاع اللبناني الذي يعرِّف نفسه دائمًا بأنّه (وزير البوم بوم). المهمّ أنّ خالتي ذهبت إلى الحقول تصطاد العصافير بدلقها الصمغ على أغصان شجر قطعتها ورشّت عليها حبوب اللوز والصنوبر والسكّر حتى إذا جاءت العصافير لتنقرها، التصقت أرجلها الصغيرة بالصمغ فتسرع خالتي تقصّ ألسنتها ثم تطلق سراحها. وأعدّت طبقًا شهيًّا لدرجة أنّ ابن خالتي نسي وجود عروسه التي تنتظره، وطلب من أمِّه طبقًا آخر من ألسنة العصافير؛ وفي اليوم التالي خرجت العروس إلى شرفة البيت تتمطّى سعيدة كلّ السعادة بليلة دخلتها، فعريسها لم يتوقّف، ولم تخر عزيمته طوال الليل. وفجأة سمعت عصفورًا يخاطبها: (سو، الهيئة مبثوطة يا ثرموطة)! وهو يرمقها بنظرات الاشمئزاز والغضب. ويمرّ عصفورٌ آخر ويقول لها الشيء ذاته، وثالث ورابع وخامس؛ سرب من العصافير يسألونها (سو، الهيئة مبثوطة يا ثرموطة)!».

يضحك جيمس، يشدّها إليه، يقهقه عاليًا، يقبِّلها من جديد،

هبطت عليها قبلته هذه المرّة كفراشة تهبط فوق وردة، ثم تطبق جناحيْها فتبدو كمكواة تكوي الحرير. يقبّلها مرّة أخرى، يعضّ أذنها:

«ها أنا قد أوقفت الروبوت؛ أستطيع أن آخذك وأفعل بك ما أشاء».

أصبحا كقِدر يغلي فوق النار فيرتفع الغطاء بقوّة البخار مرَّةً ثم يهبط مرّة. تشدّه إيڤون إليها، يستجيب لها، يشبكها بفخذيه وساقيه، ولكن ظهور بعض المدعوّين الذين خرجوا لتدخين السكائر جعل إيڤون تنسحب من العناق؛ لم تشأ أن تحسدها أعين الآخرين، وهي التي دأبت على حسد كلّ أنثى تراها مغمضة العينين وفي حالة ذوبان تامّ وهي تتلقّى قبلة، أو تسمع همسة، متمنّية لو تنغزها بإبرة منوِّم فتحلّ محلّها ولو للحظة. إنّها تتذكّر كيف تسمَّرت ذات مساء أمام شابّ وشابّة كانا يصدحان بحوار غنائي أوبرالي في الشارع الذي تسكن فيه؛ زميلان يتمرّنان على دوريْهما؟ أم عشيقان وهبهما العشق حلاوة الصوت؟ تحدِّق بهما، فلربّما ألقى عليها الشابّ نظرةً وهو يبثّ كلّ عشقه وولهه للفتاة، فتحلّ عليها نعمة الحبّ هذه وتغدق عليها النشوة.

تمنّيها لهذا النعيم جعلها تستأجر رجلاً فرنسيًّا ليرافقها إلى حفلة. اشترطت عليه ألّا يكفّ عن النظر في عينيها، ومسْك يدها، وضمّها إلى صدره بين الحين والحين، ومراقصتها بل تقبيلها أيضًا. وكانت قد أوهمت كلّ من تعرفه من موظّفين وأصدقاء وغرباء أنّها وقعت أخيرًا في حبّ هذا الفرنسي، رغم أنّ

قبلاته لها لم تقرِّبها منه، بل إلى بعض الرجال في الحفلة، الذين انتبهوا لها فجأة. أمّا الذي أجّج رغبتهم فيها فهي روح التحدّي والمنافسة، إضافة إلى أنّ (الممنوع دائمًا مرغوب)، خاصّة أنّ (العشيق) فرنسي، والفرنسي معروف بعشقه الرومانسي، يطوي بين ضلوعه الحاسّة السادسة فيعرف ما تريده المرأة تمامًا كمعرفته بأصناف النبيذ. اختارته فرنسيًّا حتى تقف اللغة حاجزًا بينه وبين الآخرين، خوفًا من انكشاف أمرها؛ ولكنّه أراد أن يحوِّل هذه السهرة إلى وزَّةٍ تبيض له ذهبًا؛ فما إن غابت عنه إيڤون لحظة في آخر الحفلة لجلب معطفها، حتى فشى بالسرّ لإحدى النساء وأعطاها بطاقته.

عادا إلى الطاولة ليجدا أطباقًا من المأكولات الإيرانيّة. يأكل جيمس والآخرون الجالسون حول الطاولة بشهيّة ومتعة، ما عداها هي، ظلَّت كالكلب الذي يتلذّذ بما يشمّه، تراقب ساقيْه خلسة.

«لماذا لا تأكلين؟».

تحدّث نفسها (تأمّل بي ولا تطعمني). ثم تقول له:

«دعني أخبرك بقصّة الفتاة التي ما إن أعلنت خطوبتها يومًا حتى أخذ خطيبها يرسل لها الطعام والحلوى صباحًا وظهرًا وعشاء؛ لم يفتْهُ إرسال وجبة واحدة، حتى أصبحت ما إن ترى ما يرسله لها من خضار ودجاج وأسماك حتى تنسدّ منافسها؛ ووصل الأمر إلى فسخها لخطوبتها؛ وعندما سألها عن السبب أجابته بأنّ (العشق الذي يتكوّن في القلب يفيض من كثرته إلى الكبد ثم يقبع سعيدًا في الأحشاء، أمّا حبّه هو فلم يتجاوز المعدة)!».

«لم أفهم شيئًا».

«من الصعب أن تفهمه، إذ لن أتمكّن من ترجمته حتى يصبح منطقه إنكليزيًّا».

«حاولي».

«سأحاول بعد قليل؛ بالمناسبة، هل تكتب عن كلّ ما تأكله؟ حتى في الحفلات الخاصّة كهذه الليلة مثلاً؟».

«طبعًا، سأكتب كيف تذوّقت شفاهًا لبنانيّة، وكيف سمعت من هذه الشفاه قصّة ألسنة العصافير؛ وأنتِ؟ هل استوحيت شيئًا من هذه الليلة؟».

«قصّة الروبوت، لقد تأثّرت بها كثيرًا».

استوحت قصّة أخرى لم تخبره بها؛ رأت نفسها تقف إلى جانبه، والرجل الذي يعقد قرانهما ينادي: (مرحى مرحى بالعروسين إيڤون وجيمس، هي من البحر المتوسّط، وهو من بلاد التايمز؛ التقيا على هذه الجزيرة، وهما يكمّلان بعضهما: هو يأكل ويكتب عمّا يأكله، فيقلّده الآخرون، وهي تبيعهم كلّ شيء حتى النجوم في السماء؛ معًا يدخلان حواسّ الناس وجيوبهم).

في اللحظة التي ينشغل فيها بالآيفون، تصلها رسالة؛ إنّها ليست من هدى كما توقّعت. تقرأها (أنا سعيد بالتعرّف عليك، جيمس). تُرى، لماذا يتّصل بها جيمس المحامي! أم أنّ هذا جيمس الذي يعمل في المطبعة؟ ثم تصفّق من هوْل المفاجأة: «كيف أتيت برقمي؟».

«حفظته منذ دهر!».

«أوه، لحظة، لحظة» رسالة أخرى عبارة عن ثلاث صور: الأولى لها وهي تقرأ الرسالة؛ الثانية وهي تتحزّر عمّن يكون جيمس؛ والثالثة وهي تصفق ضاحكة من شدّة المفاجأة. تمسك بيده فيمسك بها ثم ينحني ويقبّلها.

«والآن أخبريني كيف أسّستِ شركتك؟».

«شاهدت برنامجًا تلفزيونيًّا حول سمك الغْروبر grouper الذي تعيش إناثُه داخل الكهوف الصخريّة والمرجان والحشائش، بينما تعيش الذكور خارج هذه الصخور لحراسة وحماية الإناث، إلى أن يأتي من يفترسها؛ وحينئذٍ تبدِّل الأنثى صفاتها، فتستبدل لونها الأحمر بلونٍ بنفسجي داكن، وتتحوَّل إلى ذكرٍ يُلقّح الإناث. وقد قمتُ أنا بتقليدها، لقَّحتُ نفسي، واجتهدتُ وعملت حتى أصبحت لي شركة!».

«هل جئتِ مع عائلتك هربًا من الحرب؟».

«لا، إنغمار بيرغمان هو الذي همس في أذني بأنّ عليّ أن أرحل عن لبنان».

«إنغمار بيرغمان بنفسه!».

«نعم، نفسه! كنت أشاهد قناة تلفزيونيّة قبرصيّة بعد أن مدّ شقيقي الذي كان يحارب في صفوف الميليشيا المسيحيّة شريطًا كهربائيًّا من القصر الجمهوري نفسه. لم أكن قد شاهدت فيلمًا غير أميركي من قبل؛ أخذت اللغة السويديّة تهمس في أذني وأنا

أرى الشخصيّات من نساء ورجال تتعذّب بصمت؛ تشكو همومها للغيوم وللسماء التي بدت قريبة من البحر؛ الأضواء الخافتة في الفيلم بدلاً من لمعان عيون القطط التي كانت النور الوحيد لنا في الظلام الدامس في بلدتنا، والأجواء جعلتني أستأنس وأشعر للمرّة الأولى بالأمان وأنسى الحرب المشتعلة في لبنان. فكّرت بالسفر إلى السويد».

«وهل سافرتِ إلى السويد، فعلاً؟».

«لا، جئت إلى لندن مباشرة مع عائلة سياسيّة في منطقتنا في شمال لبنان كمربّية لطفلتهم، رغم أنّي كنت في السابعة عشرة من عمري، لأكتشف بعد عاميْن أنّه بإمكاني أن أعمل وأدرس في الوقت ذاته. فالتحقت بكلّيّة الفنون؛ والباقي أصبحت تعرفه».

«الباقي أعرفه عدا شيئًا واحدًا: هل عُدتِ أنثى، أم أنّك لا تزالين ذكرًا كسمكة غروبر!؟».

«لماذا لا تكتشف هذا بنفسك؟».

«سأجرّب بعد أن ألبّي نداء النيكوتين، إنّه يستغيث بي!».

يسرع في الخروج من دون أن يطلب منها أن ترافقه؛ لا بدّ أنّه قصد دورة المياه.

غريبٌ كيف سمحت لها أمّها بالسفر؛ هل أرادت التخلّص منها؟ أم أنّها أرادت إرضاء الرجل السياسي؟ أو ربّما تمنّت لها النجاة بجلدها، فقد آمنت بقوّة شخصيّة ابنتها وذكائها، بدلاً من العيش متطفّلة على الغير! لا بأس إن كانت أمّها تطلب المزيد من

المال لها والروب الحرير لشقيقها. كان من الممكن أن تقف في طريق سفرها، أو أن تطلب منها العودة إلى لبنان حتى تسهر عليها في سنّها المتقدّمة.

تأخّر جيمس في العودة إليها. الهديّة التي فازت بها وأرادت فتحها، اختفت فجأة. تجبر نفسها على التحدّث مع أقارب غلام، رجلٍ وزوجته. تصلها رسالة على الآيفون. إنّها من جيمس. يقول:

إنّه (يُمضي أجمل اللحظات معها). تحدِّث قلبها (ليس هناك حبالٌ أو سلاسل تشدّ بقوّة وسرعة كما يفعل العشق والشهوة بخيط واحد). ثم تكتب له (وأنا أيضًا) ثم تزيد (هل سمعت بالهمستر الذي دفنه صاحبه في الحديقة بعد أن ظنّه ميتًا، ثم نهض بعد أن تسلّل الدفء إلى تراب قبره)! وسرعان ما تندم لتسرّعها في الضغط على زرِّ الإرسال. لقد تناست وعدها لنفسها بأنّها لن تشكو للرجال فقرها العاطفي، خاصّة أنّ جيمس يعود من غيبة التدخين مع امرأة ذات شعر أسود كأنّها من إيران. حنطيَّة البشرة وعيناها مكحّلتانْ. يا إلٰهي لا تقل لي إنّه يحبّ نقيضه، وأنا شقراء مثله.

يتوقّفان. إنّهما منهمكان في الحديث. تهزّ المرأة برأسها. هل تُراه يحكي لها قصّة الروبوت، أم قصّة ألسنة العصافير. يسيران ثم يتوقّفان من جديد. هل تخبره المرأة بقصّة حياتها؟ يتوجّهان إلى طاولة المرآة. تمسك إيڤون بقلبها: هل سيجلس معها ويرسل أحدًا مكانه. (آه من عصفور يتفلّى وصيّاد يتقلّى!).

كان الرجال في بلدتها يشبِّهون منشغل البال بالصيّاد. بينما الآخر بالعصفور، يفلّي ريشه بهدوء وسكينة.

يعود جيمس إلى مكانه فيفرح كلُّ ما في داخلها. ربّما كانت المرأة الإيرانيّة هي الصيّاد وجيمس هو العصفور.

«هايْ همستر؛ هل رأيتِ المرأة التي كنتُ أسير معها هناك قرب تلك الطاولة؛ لقد ذكّرتني بالمرأة التي كنت أحبّها».

«الروبوت».

«تمامًا».

«إذًا الروبوت حقيقة!».

يصمت قليلاً «لقد افترقنا قبل عامَيْن. ماذا أخبرك! مطارحتنا الغرام كانت خرافيّة؛ التفكير بذلك يطيِّر لي صوابي».

«هل حاولت الاتّصال بها؟».

«هي، مرّة واحدة وبالخطأ!».

تقرص إيڤون فخذها؛ تشدّ عضلات أسفلها بتلقائيّة كعادتها كلّما واجهت موقفًا محرجًا أو يبعث على القلق. كأنّ بطنها وأسفلها هما أنفاسها، ونقطتا الارتكاز بها. تشعر الآن بالعار والخجل من نفسها؛ توهّمت أنّ المغناطيس قام بجذب أحدهما إلى الآخر، وأنّ الباب الذي أدمنت على قرعه، وأوشك أن يُفتح لها، عاد وأُغلق في وجهها.

«لمَ لا تعودان لبعضكما؟ هل هي أيضًا ما زالت تحبّك؟».

«العشق أحيانًا يجعل الناس وحوشًا. دعينا نغيِّر الموضوع».

«يرعبني الشعور بأنّ علينا نسيان الشخص الأهمّ لدينا. الأوكسجين الذي كنّا نتنفّسه، بتره من حياتنا كبتر عضو في جسمنا أصيب بالغنغارينا. أليست هذه خيانة للنفس! كيف نتنكَّر لحقبة مهمّة من العمر ونضيّعها، نتوهَّم بأنّ علينا العيش بعيدًا عمَّن منحنا عمق التجربة، حتى لو كانت مجبولة بالمرارة والأسى».

يقرِّب يدها من فمه ويطبع عليها عشرات القبلات. «يبدو أنّك تلوّعت في الحبّ مثلي».

تهزّ رأسها موافقة، رغم أنّ كلامها لم يكن عن حبيب، بل عن الماضي وعائلتها ولبنان.

«والآن أريد وصفة طبق لبناني لم أتذوّقه أو حتى أسمع به في حياتي».

«لكن، ماذا حدث بينكما، هل تركتكَ لأنّك كنت البادئ في اللعب بذيلك؟».

«هل قلتِ إنّي البادئ في اللعب بذيلي!؟».

«بالضبط؛ هكذا نقول في لبنان عندما يقْدم الرجل على استحسان امرأة أخرى».

«إذا كنتم تسمّون عضو الرجل: (ذيل)؟ ماذا عن المرأة، بماذا تلعب؟ آه بالبقلاوة، هناك قطعة بقلاوة تشبه عانة المرأة».

يضحكان ويتعانقان؛ يتعانقان ويضحكان.

«نقول: المرأة دايرة على حِلّ شعرها؛ أي أنّها تترك شعرها سائبًا، ترخيه على ظهرها ولا تربطه بعقدة، فتكون سائبة كشعرها، لا رادع لها ولا مانع».

«ظننت أنّ المعنى هو أنّها تضاجع رجالاً بعدد شعرات رأسها، فأشفقت عليها».

«إذن أخبرني بما حدث بينك وبين حبيبتك»

«حدث الذي حدث كي أقع في حبّ اللبنانيّة الدايرة على حِلّ شعرها». ماذا عن وصفة الأكلة اللبنانيّة؟

«طبق الفاصوليا البيضاء. نسمّيه لوبياء بادريّة، على اسم الراهب الإيطالي، الأب بادروس Padros فهو الذي أوّل من زرعها في حديقة الدير الذي كان يسكنه في جبل لبنان. نغلي اللوبياء البيضاء هذه ما بين ساعة وساعتين على نار معتدلة إلى أن تستوي، ثم نصبّ عليها قليلاً من الماء البارد ونصفّيها من الماء ثم نهرسها أو نفعصها بالشوكة ونضيف إليها الثوم والملح والحامض وزيت الزيتون».

أرادت أن تخبر جيمس بقصّة شقيقها الكبير مع اللوبياء البادريّة لكنّها غيّرت رأيها. إنّها حكاية معقّدة ولن يفهمها. عدا أنّ قلبها أخذ يبكي.

صبّ الماء البارد على اللوبياء البادريّة في نهاية سلقها كان يسمّى تنقيز. وكانت أمّها قد طلبت من ابنها أن ينقّز اللوبياء التي كانت تغلي على النار. ولم يكن شقيق إيڤون يعرف ما معنى تنقيز

اللوبياء، فذهب وأطلق رصاصة من مسدّسه في وعاء الطبخ، فذعر الجميع واختبأوا حين سمعوا الدّوي وظنّوا أنّ القتال تجدّد.

«لكن هذه اللوبياء البادريّة ليست طبقًا غريبًا كألسنة العصافير!».

«ما رأيك بطبق فرس الشيطان مع الثوم والكمّون؟».

«فرس الشيطان؟ الحشرة الخضراء ذات رأس إي تي ET؟ هل تأكلونها في لبنان؟ لا بدَّ أنّكم تأكلون الأنثى انتقامًا للذكر، فهي كما تعرفين، تلتهم الذكر بعد جماعهما؛ هل تنوين فعل هذا معي الليلة؟».

«هذا يتوقّف عليك».

إذا حدث أن بقيا معًا هذه الليلة، ستجعله ينسى حبيبته. ولكن هل تُراه اخترع قصّة حبيبته هذه؟

يقبّلها قرب شفتيها ويقف؛ يريد أن يملأ كأسه بعد أن فرغت زجاجات النبيذ المصطفّة فوق طاولتهم.

«هل أملأ لكِ كأسَك؟».

«أجل، شكرًا».

هل هو حلم هذا الذي يحدث! إنّها هي دودة القزّ التي غزلت حولها خيوط الحرير وأصبحت شرنقة حبست نفسها في داخلها وعاشت شهورًا طويلة، بلا طعام تتلذّذ به أو نبيذ يعشقه لسانها ورأسها، ومن غير هواء يداعب خدّها، إلى أن لم يعُد

باستطاعة الشرنقة أن تسدّ انطلاقها؛ مزّقتها وخرجت منها فراشةً خفيفة حتى تجامع الذكر الذي انتظرت إطلالته مع كأسيْن من النبيذ حتى يعود ويعيدها معه إذ توقّفت هي عن النبض. كلّ ما حولها أصبح بلا معنى. الزوجان الإيرانيّان يدعوانها للرقص معهما. ربّما لاحظا أنّها وحيدة؛ تحاول الاعتذار، تتلكّأ؛ لا تريد أن يعود جيمس فلا يجدها. تلبّي دعوتهما. ترقص ولكن عينيْها على الطاولة. لم يعُدْ. تتلفّت حولها بعد لحظات فإذا به وراءها يرقص وحده. هرعت إليه، تمدّ إصبعها إلى بطنه؛ تنغزه؛ يفتح عينيه، يبتسم ويحضنها. يواصلان الرقص معًا؛ أحاطت خصره بيديها وقالت إنّ قريبيْ غلام أصرّا عليها أن ترقص معهما، وإنّها خافت أن يعود ولا يجدها.

«لكنّي لم ألتقِ بكِ من قبل؛ اسمي جيمس، وأنتِ؟».

يحضنان بعضهما، تمنحه شفتيها، وكانت قبلة طويلة. لقد عاشت عامًا من الجفاف، والآن يعود النبع يتفجّر بالماء العذب. عندما فكّت القبلة نفسها من أجل أن تأخذهما إلى حيث يريدان، بقي جيمس في مكانه يرقص وهو مغمض العينين، وهي ترقص وعيناها لا تفارقانه.

ولّت الأيّام ذات السيناريو بأنّ الرجل يخاف منها لأنّها ليست قطّة أو أرنبًا، بل كلب حراسة. تقرص جيمس من يده، يفتح عينيْه، يضمّها إليه قبل أن يعود إلى الرقص.

الجميع يرقصون؛ الكلّ عاشق لآخر يعرفه أو لمجهول، أو للموسيقى أو أيّ شيء آخر. العشق يتنقّل قافزًا من شخص إلى

شخص، كالنحل يمتصّ ويلقّح؛ يلتصق جيمس بها عندما تلتصق به.

جفونُهُ مغلقةٌ على فصّيْن من الفيروز؛ صوته يتسلّل إليها كالهمس، ربّما لأنّه طويل القامة! همسُه يرتخي ويتهالك على دقّات قلبها. يكفي كلّ هذا الانتظار، أم أنّها تتلذّذ بتعذيب نفسها! لكنّه يلتصق بها مع أنّ عينيه مغمضتان. عيناه هما اللتان تقومان باضطهادها. إنّهما تحبسان داخلهما شخصًا غيرها. لا يهمّ ماذا ومن! لا تتوقّف عن الدوران حول نفسها كالحشرة قد يحرقها النور بين لحظة وأخرى!

الموسيقى هي المنطق الآن؛ تملي عليها بأنّها إيڤون التي لم تجرؤ إلّا على عناق من كانوا أصغر منها سنًّا. لا زواج ولا أولاد ولا مسؤوليّة. تلتقي الآن بمن هم في عمرها أو ربّما يكبرونها بعام.

«كم عمرُك؟».

«ماذا؟».

«كم عمرُك؟ أنا لم أسألك كم عمرُك!».

«سبعة وثلاثون عامًا».

«أنا عمري ستّة وثلاثون» تبلع سنتيْن. يضمّها إليه، يقبّلها قرب عينيها وكأنّه يودّ امتصاصها. لا بدّ أنّه يتعب من الإنحناء للوصول إلى فمها. لعلّه يعاني من آلام الظهر. (تُرى هل عدد فقرات ظهره أكثر من فقرات ظهرها)؟

«جيمس، إنّهم يقدّمون الحلوى المصنوعة من عسل اليمن!»

«عسل اليمن له نكهة خاصّة؛ تُرى ماذا يمتصّ النحل في اليمن؟ ربّما زهر الحنّاء.. الكستناء!»

ويمضي في الرقص، ساقاه ترقصان؛ هل هما اللتان قرّرتا المضيّ في الرقص، أم عقله؟ تحاول من جديد:

«هل نعود إلى الطاولة، نأكل الحلوى!».

لم يجبها؛ ستجرِّب من جديد؛ إنّها ماسوشيّة؛ نعم ماسوشيّة؛ من فسّر مصطلح الماسوشيّة المتعارف عليه وقع في الخطأ. الماسوشيّة هي رفيقة من يودّ التلذّذ وإسعاد نفسه؛ يثابر على الالتقاء بالحبّ، بدلاً من اليأس والتأسّف. محلّلتها النفسيّة صاحت بها مرّة: (أنتِ تفضّلين الغير على نفسك؛ خطأ؛ عليك أن تكوني الرقم واحد). تصيح إيڤون الآن بأعلى صوت بالعربيّة «عندما أجد نصفي الآخر أصبح واحدًا».

هل تعود وحدها إلى الطاولة! تنتظره حتى يتعب من الرقص ويعود إليها. لكنّها تتسمّر في مكانها قبل وصولها إلى الطاولة، وكأنّ عقلها حشر نفسه ليتّخذ القرار نيابة عنها ويذكِّرها بقصّة الرجل الذي (وعد جاره بثمرة من نخلة داره، وعندما أثمرت جاءه جارُه ليأخذ الثمرة الموعودة، فقال له صاحب النخلة، (الأفضل أن تنتظر حتى تصير بلحًا)، حتى إذا صارت بلحًا قال (دعْها حتى تصير رُطبًا)، ولمّا رطبت قال له الرجل (انتظر حتى تصير تمرًا)، ولمّا صارت تمرًا تراجع صاحب النخلة عن وعده ولم يعطِ جاره شيئًا).

عادت إلى ضجيج الموسيقى وحلبة الرقص. تقف أمامه. وجهه منقبض كأنّه يقاوم ألمًا. يميل برأسه على كلّ الجهات كأنّه يريد التخلّص منه. هل تُراه يبكي في صمت! وصلت إلى صدره وحضنتهُ، وعندما لم يضمّها إليه أو يفتح عينيه همست في سرِّها: (كيف باستطاعتك إعطائي شيئًا لا تملكه!).

تسرع إلى الطاولة تأتي بشنطة يدها، تستوقفها إحدى النساء المدعوّات: «فستانك رائع، تبدين فيه كالنرجس الكاذب»؛ تشكرها إيڤون وتمضي في طريقها. (يبدو أنّ الرضَّع والمواليد انتقموا منّي أخيرًا).

تقود سيّارتها وصورته الأخيرة وهو يرقص وحيدًا لا تفارقها، وستعلق طويلاً في مخيّلتها.

فرحت لأنّها لم تودِّعه، حتى إذا ما تذكّرته يومًا وتذكّرت هذا العُرس ابتسمت بدلاً من أن تتشنّج وتندب حظّها. جيمس هو كالرجل الذي مرَّ بقربها وهي ممدّدة فوق الرمال تأخذ حمّامًا شمسيًّا، ليعانقها خياله ولو للحظة مرتميًا عليها كلّها.

لقد نجت من الاحتراق؛ تمضي الآن بسرعة تسابق النهر الذي يعاني من الأرق لكثرة ما تلألأت وتوهّجت أضواء الأبنية والمراكب الراسية على وجهه.

كلّ ما تريده متوافر لها.. معدة، قلب، أمعاء، وقدمان، ولها شقّة وسرير ووسادة؛ صديقاتٌ وأصدقاء؛ أساور ذهبيّة وبروش من العاج الأبيض؛ لو اتّفق أن جاء جيمس معها الليلة، فإنّه في نهاية المطاف سينام وتغفو هي وحيدة حتى لو كانت في

حضنه. لكن، حتى النملة لا تستطيع أن تعيش بمفردها، وإذا وجدت نفسها وحيدة ذات يوم، أضربت عن الطعام مفضّلة الموت على الوحدة، فتموت في غضون أسبوع، وعندها يتجمّع حولها باقي النمل لتشييعها، يشتمّون ما أفرزته من مادّة كيماويّة فيعرفون أنّها ماتت بداء الوحدة وليس بأيّ علّة أخرى.

فجأة تجهش إيڤون بالبكاء. ثم بالضحك. تتذكّر قول جارتهم لزوجها الذي اعتذر منها بخجل شديد لأنّه ضرط على مسامعها لتجيبه: (لا بأس، أنا سعيدة لأنّي، وأخيرًا، سمعت منك شيئًا). فقد كان قلّ حديثه معها لدرجة أنّه توقّف عن مضاجعتها.

تضحك إيڤون من جديد. تغرق في الضحك. تفتح جميع نوافذ سيّارتها. يلعب الهواء ويرتع وهي تصيح: (وجدتها، وجدتها. أنا جائعة. هذه هي المسألة. تجوع معدتي فتأكل. تجوع عيناي لتريا، وما إن أغمضهما حتى تأكلا العتمة؛ تجوع أذناي لتسمعا كلمات مؤنسة؛ تجوع قدماي لتأكلا من حذائي ومن الرصيف. يجوع ما بين الفخذين ليأكل)... تضحك (كلّ ما بي يريد أن يأكل ويشبع. ذراعاي يجوعان ليتّكئا على ذراعين آخرين).

رسالة على الآيفون. تتمنّى أن تكون من جيمس لتكرّ راجعة إليه. إنّها هدى. (عظيم، عظيم، هدى في البيت، لن أكون وحيدة، لكن لماذا لم يتّصل جيمس! لا بأس، في حوزتي حبّتان من الأرزّ منه، ولن أجوع).

تعلّمت في المدرسة أنّ النبي سليمان سأل نملةً حين رآها تعمل وتجدّ ليلاً ونهارًا: (لماذا كلّ هذا الكدْح ليلاً نهارًا؟ هلّا

أخبرتني عمّا تأكلينه طوال عام كامل؟) فأجابته (خمس حبّات من الأرزّ)؛ فما كان منه إلّا أن منحها الحبّات الخمس ثم قام بحبسها عامًا، ليكتشف بعد مرور العام بأنّها لم تأكل سوى حبّتيْن فقط؛ وعندما سألها عن السبب قالت له: (خشيتُ أن تنساني، فأمَّنت حاجتي للسنة القادمة).

تصيح: (وأنا لديّ حبّتان من جيمس تكفياني لبعض الوقت).

يرنّ الآيفون. إنّها هدى أيضًا وأيضًا.

القسم الثاني

الفصل الرابع

يرنّ هاتف إيڤون المحمول وهي في المصعد، يأخذ قلبها بالخبط ساحبًا المصعد بسرعة جنونيّة. لم يكن جيمس! إنّه صوت هدى.

«أين أنتِ، أين أنتِ».

«في مالطا! أنا في المصعد!».

ترى باب شقّتها فتنقبض حنجرتها، عندما افترقتا ظهرًا كانت في أوج الترقّب والحماسة، يملأها يقين بأنّها سوف تتعرَّف في العُرس على رجلٍ وتأتي به إلى شقّتها ـ تحت إصراره هو طبعًا، ولذلك قامت بترتيب صالة الجلوس والمطبخ قبل أن تخرج.

تسرع هدى إليها باكية صائحة:

«إيڤون لازم هلّق أهرب! هلّق بدّي أنزل وآخذ اليوروستار لباريس، ومن هناك أطير؛ راح موت خوف.. إيڤون، راح موت خوف».

وبدأت تخبرها بما حدث بينها وبين تأبّط شرًّا مبتدئةً بمظاهرة السفارة الأميركيّة مرورًا بحوريّة الجنَّة، وانتهاءً بالاتّفاق على تسجيل الزواج في الجامع!

«روّقي هدى، خذي نفس، يريد أن يتزوّجك هذا المعتوه، وغصبًا عنك، وفي لندن؟!»

«لا، لا، إفهميني إنّه يريد أن يسجِّل زواجنا في الجامع، في ريجنتس بارك، فقط من أجل أن يرضى عنه الله وليس طمعًا في أن نعيش معًا ـ هكذا، أنا حرّة، وهو حرّ؛ لكنّ كيف أكون حرَّة! كيف إذا وقّعنا الأوراق في الجامع، حتى وإن لم يسجِّل الزواج في الدوائر المدنيّة هنا!».

تصيح بها إيڤون «لماذا لم تقولي له إنّك متزوّجة؟».

تجهش هدى بالبكاء مرّة أخرى.

«لا أعرف، لا تسأليني، لا أعرف، خفت أن يتحقّق من ذلك ويعرف الحقيقة ويكتشف أنّي أكذب! يا ألله كيف أوقعت نفسي في هذا الشِّرك! ومع منْ؟ مع متعصِّب، وكأنّنا في برج بابل لا يفهم أحدُنا لغة الآخر! لا أعرف.. إيڤون، ماذا دهاني حتى فكَّرتُ بإيهامه بأنّني حوريّةٌ من حوريّات الجنّة! ما هذه البلاهة والسذاجة؟ كيف لعبتُ بالنار مع النار نفسها؟!».

«اسمعي هدى، لا تخافي، نحن لسنا في بلاد الماو ماوْ، ولن يستطيع إجبارك على فعل أيّ شيء فنحن هنا يا صديقتي»، مستعرضةً عضلات يدها.

«المهمّ أنّني وضَّبت حقيبة السفر وحجزت في فندق ملاصق لبناية محطّة اليوروستار، يا ألله! نسيت اسمها».

«سانت بانكراس. لكن لا، لن أدعك تنامين في الفندق، لا تخافي؛ دخيلك لا تتركيني هذه الليلة!».

«لا، عليَّ أن أهرب الآن، لربّما تعقّبني إلى هنا من دون أن ألاحظ ذلك! لكن، لماذا لا تمضين أنتِ هذه الليلة معي في الفندق، فغرفتي لشخصين».

«لا.. هدى! أرجوكِ ألّا تتركيني هذه الليلة وحدي!» وأخذت تبكي.

«ماذا حدث إيڤون؟ ماذا حدث؟».

«وقعتُ في الحبّ هدى، لكنّه يحبّ واحدة أخرى، كنّا بالعرس، وطنجرة ولقت غطاها، لأكتشف أنّه ما زال يحبّ حبيبته التي افترق عنها».

تستجمع نفسها قبل أن تسمع ردّة فعل صديقتها وتسألها:

«هل أعطيتِ تأبّط شرًّا رقم تلفونك الخلوي؟».

«الإنكليزي، وقد رميت الشريحة بالتواليت».

«إذن.. خلص وين بدّو يلاقيكِ!».

«معك حقّ، لكن قد يأتي إلى مكتبك في الغد، وربّما بعد الحادية عشرة ليبحث عنّي؛ آسفة إيڤون، كانت غلطة منّي ولكن هو الذي أصرَّ أن يرافقني، ومع أنّني حاولت قدر المستطاع أن أتجنّب ذلك، لكنَّه أصرّ، وكأنّه أحسّ في داخله بأنّني لن أفي بوعدي له كما اتّفقنا!».

«لماذا لا تتّصلين به وتخبرينه بأنّك متزوّجة! هذا أفضل من التهرّب، فأنتِ تكلّفتِ ثمن تذكرة من تورونتو إلى لندن كي تمضي معي هنا ثلاثة أيّام فقط!».

«لا.. مستحيل أن أبقى إيڤون، فهذا الشخص يستطيع أن يعثر عليّ حتى لو اختبأت داخل حبّة جوز! لماذا لا تسافرين معي إلى باريس ونمضي يوميْن هناك؟ يخالجني شعورٌ بأنّه سيلاحقك ويضايقك!».

«يضايقني؟ أضايق أبو أمّه! لا تخافي عليّ؛ يللا قومي وإلغي حجزك بالفندق، وتتركين الشقّة من دغشة الصبح!».

«معك كلّ الحقّ».

تتعانقان في فرح المنتصر، وتبدو إيڤون في أسعد حالاتها لأنّ صديقتها ستبقى معها هذه الليلة.

هل تذهب معها إلى باريس، حتى إذا ما اتّصل بها جيمس أجابته بكلّ خفّة (هاي جيمس، إحزر أين أنا؟ في باريس!).

تسرع هدى، تلغي حجزها في الفندق، وتصفّق لهذا الإنجاز، غير أنّها تلمح الحزن في عينيْ إيڤون، فتتراجع عن

هيجانها وتُبدي اهتمامًا بالغًا بصديقتها، وتسألها:

«يا الله، إيڤون، جاء دورك الآن لتخبريني بما حدث في العرس وبالتفصيل!»

تقصّ إيڤون حكاية لقائها مع جيمس، ويأخذ الدفء والحبّ والحنان الذي حوّلها إلى شعلة من النار وهي في العرس، ينطفئ شيئًا فشيئا، ولو أُخذت لها أشعّة سينيّة الآن لأظهرت كيف تحوّل داخلها من لون النار إلى لونٍ أزرق كالمياه الباردة!

«لا أعرف هدى، ماذا أفعل، فقدت من وزني، بُدِّلت شخصيّتي، باختصار: تحوّلت إلى فأرة، ومع ذلك كان حظّي بوش مع نينكس!».

تحاول الصديقتان الضحك من غير فائدة.

«اقتربتْ شربةُ الماء من فمي، ثم ابتعدت عنّي كالمدِّ والجزر، ربّما كان عليَّ الآن أن أشتري بويضات، وأن أحمل بطفل، وأن أنسى الرجال. ربّما إنّ عليّ أن أتذكّر دائمًا ما كانت جدّتي تقوله: يا مؤمِّن للرِّجّال مثل مؤمِّن الميّه في الغربال).

«إيڤون، خلص، لا تعملي من الحبّة قبّة. أكيد ستمرّين بباله عاجلاً أو آجلاً؛ ومن يعرف، ربّما كلّ ما في الأمر أنّه تذكّر حبيبته بشكل عابر عندما رأى شبيهة لها في العرس، فتوهّم بأنّه ما زال يحبّها. فأنا أذكر أنّني تعرّفت بوالدة إحدى الممثّلات العربيّات في كندا، فأخبرتني عن عشقها لمطرب، وكيف أنّها تسمع صوته يصدح باستمرار في رأسها حتى أثناء النوم، فإذا به

المطرب عبد الحليم حافظ. وعندما قلت لها إنّه مات قبل عشرين سنة، أجابتني والدموع في عينيها ـ أعرف، أعرف! ولكنّني ما زلت أحبّه، وهو دائمًا معي وما زلت أتذكّر كلّ لحظة من لقاءاتنا!».

«لا، الأفضل لي ألّا آمل بشيء، لا أريد العودة إلى إيڤون القديمة؛ وأنت هدى، لا تخافي، نامي ليلك الطويل وأنت مطمئنّة، وسأحميكِ منه ولو جاء معه ليس الشيخ المأذون فقط بل الجامع كلّه!».

«كيف عرفتِ بما أفكّر به؟».

«ألا تعرفين أنّ الصديق الوفيّ يسمع ما يريد صديقه أن يقوله من دون أن يقول!».

«أحبّ أمثالك الجاهزة دائمًا وتخرجينها كما يخرج الساحر الحمام من تحت أكمامه؛ وأنتِ أيضًا استمتعي بذكرى لقائك مع جيمس لتسعدي بها طوال حياتك كذكرى حلم جميل، وشعور طائر، بدلاً من علاقة مصيرها الفشل!».

«تريدينني أن أكون كأمّ الممثّلة التي ما زالت تقوم وتنام مع صوت عبد الحيم حافظ؟».

تضحكان، ثم تسرع هدى وتأتي بمفتاح الشقّة من شنطة يدها، وكذلك العلبة الخامسة من فراولة العذريّة وتضعها على الطاولة.

«لا أصدّق هدى، أربع مرّات في أقلّ من ستّ ساعات!! آلة

أوتوماتيكيّة! أم أنّها كانت ڤياغرا!؟»

«لا، هو عبارة عن خزّان ماء، يجمع ماء المطر في الشتاء لاستعماله في فصل الصيف».

«وأنتِ، هل شعرتِ به؟».

«كلّما أوشكت أن أشعر به، كان عقلي يوقفني، فألجأ إلى التمثيل والصراخ!».

«هل أتّصل بالمحلّلة النفسيّة وأخبرها بما حدث لي في العُرس؟ ربّما إنّني أخطأتُ بأن غادرتُ من دون أن أودِّعه!».

«بالعكس، مغادرتك العرس كان منتهى العظمة؛ فقد أظهرتِ أنّك يمكن أن تستغني عنه!».

«لكنّني لا أريده أن يفكّر بأنّني أحبّ اللهو والمزاح واللعب مع الجميع. أريده أن يعرف أنّي قد جُذبتُ إليه!».

«هو مش حمار! سيعرف تمامًا ما حصل».

ولم تنم هدى؛ أخذت تنهض كلّ ساعة، تنظر إلى عقارب الساعة، تتأكّد من آيفونها مُترمًا لإيقاظها، بينما راحت إيڤون تقرأ الرسائل التي بعثها جيمس إليها أثناء العرس، لربّما إنّها لم تلحظ كلمة أو حرفًا يعبِّر عن دفءٍ أو مشاعر حبّ أكبر، ثم تُغمض عينيها، ترسل له رسائل ذهنيّة، تمامًا كما أشارت عليها وعلى كلّ النساء الوحيدات، المنجِّمة قارئةُ الغيب، حين قالت لهن: (عليكنَّ قبل أن تخلدْنَ إلى النوم بالتفكير بالعصفور الطنّان، من أجل أن تحذو أذهانكنّ حذوه، فهذا العصفور لا تغيب عن ذهنه

ولا ينسى الوردة التي امتصّ رحيقها؛ فإذا أرسلتنّ رسائلكنّ الذهنيّة إلى من ذاق طعم قبلاتكنّ، ولامس جسده أجسادَكنّ، فلا بدّ أن يعود إليكنّ طالبًا المزيد).

استغرقت إيڤون في النوم على غير عادتها ولم تنهض قبل التاسعة صباحًا. ماذا حصل حتى إنّها لم تتقلّب في الفراش وتُصاب بالأرق! فعلاً إنّ الليل هو جنّة الهارب أحيانًا.

فجأة تتذكّر صديقتها هدى فتسرع إليها في الغرفة المجاورة، فترى أنّ الشراشف قد رُفعت عن السرير ووضع فوقها بطاقة شكر. تغرورق عينا إيڤون بالدمع!

(أنا وحيدة)، تهدس إيڤون لنفسها، (لو أنّ هدى أو أيّ إنسان آخر يشاركني العيش في هذه الشقّة لهانت عليّ الأمور).

تسرع إلى آيفونها لتقرأ رسالة من هدى: (المهمّة تكلّلت بالنجاح، أنا في القطار).

(بينما شيرلوك هولمز ما زال نائمًا، عظيم حبيبتي هدى).

(طبعًا شيرلوك هولمز يحلم بعذارى الجنّة؛ على فكرة إيڤون، هو لا يعرف اسم عائلتي الحقيقي، في حال جاءك للسؤال عنّي).

(لا تخافي حبيبتي، اعتبري المسألة منتهية؛ قبلاتي).

(لا أستطيع الانتظار طويلاً قبل أن أراك في ظروفٍ أفضل)!

ترتدي إيڤون ملابسها بسرعة؛ عليها أن تنجز ملصقًا سيلفت أنظار لندن كلّها؛ ستجعل جيمس يزحف على ركبتيه ساعيًا إليها؛

النجاح هو أفضل انتقام؛ كان من المفروض أن يكتب إليها البارحة ولو ثلاث كلمات (كيف حالك إيڤون؟).

تحاول أن تعمل بنصيحة المثل اللبناني ـ (الباب اللي بجيك منه ريح، سدُّه واستريح). تسرع إلى كتاب الأمثال العربيّة حتى تستمدّ منها بعضَ التفاؤل. تفتح صفحة بشكل عشوائي فتقرأ: (الشجرة التي تُقطع بالفأس تعود وتنبت من جديد)، عظيم؛ وبدلاً من أن تغلق الكتاب تعود وتبحث عن أمثال وأقوال أخرى ـ (الصبر دواء الحزن)؛ (الزمن مرهم الجراح) ـ تهزّ رأسها موافقة، لكنّها تقرأ بعد ذلك: (دواء العشق هو الوصال).. ترمي الكتاب على الأرض، ثم تعود ترفعه وتعيده إلى مكانه.

القسم الثاني

الفصل الخامس

تستأنس إيڤون لأوّل مرّة منذ البارحة بالسير في الشوارع المزدحمة بالناس وبالسيّارات والضجيج، وما إن تدخل مكتبها وترى الملصقات المعلّقة على الجدران والتي قامت بتصميمها على مرِّ السنين، حتى تشعر بالزهو والثقة بالنفس.

تمرّ الساعات ولكن عينها على الآيفون باستمرار ما شغلها عن تصميم ملصق مستوحى من ليلة العرس، والأفضل أن يكون موضوعه الطعام حتى يلفت نظر جيمس!

تسمع رنين الإنترفون أكثر من مرّة، وتسمع موظّف الاستقبال في شركتها يجيب (آسف لا يوجد لدينا هنا شخص اسمه هدى). تُسرع بانتشال السمّاعة من يده:

«هل تسأل عن هدى؟».

وحين أتاها صوت الشابّ الصحراوي «نعم هدى»، أجابته «لحظة، انتظرني لحظة واحدة».

ولم تستطع وهي قُبالته إلّا أن ترى فيه رجلاً طويل القامة بالغ الجاذبيّة؛ (إنّه العدوّ، إيڤون، تذكّري إنّه العدوّ).

«أين هدى!؟ أين هي؟ أرجوك أخبرني، طمئنّي!» فاجأته بأسئلتها.

«أنا هنا لأسألكِ عنها؛ المفروض أنّها ضيفتكِ، أليس كذلك؟».

«سمعت منها آخر مرّة عندما اتّصلت بي وهي معك، كان المفروض أن نلتقي في شقّتي البارحة لكنّها لم تأتِ، لم أنم طوال الليل وأنا أحاول الاتّصال بها من دون جدوى، إلى أن أقنعت نفسي بأنّها نسيتني، لأنّها كانت في منتهى السعادة معك وأنّها..».

يقاطعها بعصبيّة: «لكنّني أوصلتها الليلة الماضية بنفسي إلى شقّتك، وكانت الساعة العاشرة مساء!».

«غريب! هل قلت إنّك أوصلتها بنفسك؟ فأنا كنت في البيت في حدود التاسعة! يا إلٰهي، ماذا حدث لها؟ علينا أن نبلّغ البوليس، هل تصعد معي!».

«لكنّني رأيتها بعيني تدخل هذا الباب بعد أن ضربتِ الرقم السرّي، حتى إنّها أشارت إليّ من الداخل مودِّعة، لا أفهم!».

«ولكن هذا مكتبي، هنا مكتبي وليس شقّتي، غريب، لا أفهم!».

«لقد فهمت، فهمتُ الآن كلّ شيء. هربت، هربت منّي!».

«هربت؟ لماذا تهرب؟ ما الذي حدث، هيّا أخبرني. لكن، هربت منك إلى أين ولماذا لم تعدْ إلى البيت؟ من الأفضل في رأيي أن نذهب إلى مقهى قريب من هنا ونتحدّث بهدوء».

تغلق باب البناية خلفها.

«أرجوك، قل لي ماذا حصل» تسأله وهما يمشيان واضعةً يدها فوق قلبها بينما تعكّر وجهها من شدّة القلق..

«أعرف أنّها اتّصلت بك وهي معي، هل قالت لك شيئًا عمّا كان يحدث بيننا؟».

«قالت لي إنّها سوف تتأخّر، وأنّها تقضي وقتًا سعيدًا معك!».

تدخل إيڤون المقهى الذي يقع قريبًا جدًّا من مكتبها، وتتهالك جالسةً على أوّل طاولة تصادفها، ويجلس قبالتها.

«إذن كانت تكذب عليّ، أخبرتني أنّكِ لم تكوني في البيت، وأنّك خارج لندن، قالت إنّك كنت في أوكسفوردشاير، وإنّك تعمّدت عدم اصطحابها معك إلى هناك!».

«يبدو أنّها أرادت البقاء معك!».

(عليك الانتباه إيڤون، إنّه في غاية المكر، يقول إنّه يعرف أنّها اتّصلت بكِ ثم يعود وينكر ذلك، عليك الحذر منه).

«غريب ما أسمعه، هدى إنسانة صادقة كلّ الصدق؛ أمينة منذ

عرفتها، ومخلصة؛ تعرّفت بها منذ ثلاث سنوات في لبنان. ولكن... لم تقل لي لماذا هربت منك، أنا لا أفهم».

«قولي لي رجاءً، هل تعرف أحدًا سواكِ في لندن؟».

«لا، لا أظنّ ذلك، لقد وصلت إلى لندن يوم الخميس، ولم تتّصل بأحد ولم تذهب لرؤية أحد. أرجوك الآن، هل يمكن أن تخبرني لماذا تعتقد بأنّها هربت منك؟ إنّني قلقة جدًّا!».

«لأنّني طلبت منها أن تتزوّجني، ويبدو أنّها لا تريد الزواج بي فهربتْ».

«ماذا تقول؟ لكنّ هدى متزوّجة، نعم متزوّجة».

«متزوّجة!؟».

«نعم، رغم أنّها لا تعيش مع زوجها، فقد هربت منه. أخذت طفلتهما معها وهربت! لحظة؛ هل من المعقول أنّها شعرت بأنّ زوجها قد اقتفى أثرها الليلة الماضية، لذلك دخلت بناية مكتبي للتملّص منه، لكنّه مع ذلك نجح في اختطافها؟! يا إلٰهي، عليّ أن أبلّغ الشرطة. لنفترض أنّها أرادت الهرب منك، فهل تختفي من دون أن تتّصل بي وتصارحني وتطلعني على كلّ شيء! هدى تعرفني جيّدًا وتعرف بأنّ بالي سينشغل عليها وبأنّي سأبلّغ البوليس».

تنهض في اللحظة التي يأتي فيها الساقي بفنجانيْ القهوة.

«اشرب قهوتك وسأصعد أنا إلى مكتبي وأبلّغ البوليس!».

«أرجوكِ انتظري واسمعيني، الأمر واضح وضوح الشمس، فهي أيقنت أنّك ستظنّين أنّها قضت الليل معي وأنّكِ لن تقلقي عليها قبل ظهر هذا اليوم».

«لكن كيف تفسِّر عدم اتّصالها بي، هذا هو ما يخيفني ويرعبني».

«لأنّها ذكيّة، وتعرف أنّني سألجأ إليكِ لتساعديني في العثور عليها».

«إنّك تتحدّث وكأنّها ارتكبت جريمة. تحاول العثور عليها لمصلحتك الشخصيّة بدلاً من التفكير بأنّها لربّما كانت في خطر!».

«لا أعتقد أنّها في خطر! إنّها فتاة ذكيّة، بل في غاية الذكاء والدهاء؛ الآن فقط اكتشفت أنّها لم تترك لي رقم تلفونها الدائم، وأعطتني التلفون ذا الشريحة الإنكليزيّة الموقّتة؛ واكتشفت أيضًا أنّها لم تخبرني في أيّ ولاية كنديّة تعيش!».

«كندا، كندا؟ لا أصدّق، هدى تعيش في آيسلنده، في ريكيافيك بالذات».

«وهل اسمها هدى؟ هدى ماذا؟».

«هدى سكَّر».

«سكّر، كالسكّر الذي نأكله، يعني ليس اسمها هدى سليبي؟».

«هدى سليبي، صليبي، من الصليب، هذا اسم عائلتي أنا!».

«وطبعًا هي ليست معلّمة مدرسة».

«هي مديرة ملجأ في ريكيافِك للنساء اللواتي يتعرَّضن للعنف من الرجال».

تأخذ إيڤون رأسها بين يديها، تميل به ثم تهزّ يديها كمن تتوعّد، كمن تتحدّث مع أحد ولا تصدِّق ما تسمعه، ثم تستجمع نفسها وتهدّئ أعصابها.

«ظننتُ أنّي أعرفها جيّدًا، يبدو أنّي مخطئة؛ يبدو أنّ المرء لا يعرف جيّدًا ولا حتى نفسه!».

«أريد رقمها في آيسلنده الآن، الآن». يخرج تلفونه المحمول؛ تبحث إيڤون في جيبيْ المعطف الذي كانت تلبسه:

«آسفة، لقد تركت الآيفون في المكتب؛ لكن لا أفهم، لماذا لم تخبرك بأنّها متزوّجة، ولماذا لم تقصّ عليك قصّتها مع زوجها! أخبرني على ماذا اتّفقتما؟».

وجهه الذي كان يقطر لؤمًا في السبيكرز كورنر يتحوّل إلى وجه حائر، متوتّر، والنبض في صدغه واضح ولا يتوقّف.

«تواعدنا أن نذهب اليوم في الساعة الحادية عشرة إلى المسجد في ريجنتس بارك، لتسجيل زواجنا أمام الشيخ والشهود».

«عليّ العودة إلى شقّتي فلربّما عادت الآن لتأخذ حاجيّاتها

وحقيبة سفرها، وتُعيد لي مفتاح شقّتي، فهو ما زال معها».

«مفتاح شقّتك؟ أوهمتني بأنّها نسيته في البيت وأنّها مريضة، ولا مكان لها كي تتمدّد وتستريح قليلاً، ولهذا اضطررت إلى أخذها إلى مكان عملي، حيث أعمل بوّابًا في عمارة».

«لا تدعْ غضبك عليها يشكّك في كلّ شيء، أرجوك! أعتقد أنّها لم تكن تكذب بأنّها مريضة؛ فقد قالت صباح البارحة بأنّها تشعر بضعف وارتخاء، ولكنّني شجّعتها على عدم الاستسلام واصطحبتها معي إلى الهايد بارك. على كلٍّ، خذ هذا هو رقم آيفوني. سأتّصل بك بعد ذهابي إلى الشقّة، وإذا لم أجدها، أو لم أجد ملابسها سأبلّغ البوليس».

تلتفت نحو صاحب المقهى الذي يبدو أنّه يعرفها جيّدًا:

«سأرسل أحدهم ليدفع لك».

يخرجان من المقهى وقبل أن يفترقا يتوسّل إليها:

«أرجو الاتّصال بي، أنا في الانتظار».

«سأفعل ذلك».

تسير باتّجاه مكتبها، تستدير لترى إن كان يلحق بها؛ تراه يسير بعجلة؛ يبدو لها طويل القامة جدًّا، (لو لم يكن وسيمًا لما تحمّلت هدى أن تجبره على الاعتراف بأنّها حوريّة من حوريّات الجنّة بمضاجعته أربع مرّات).

عندما لم تجد أيّ رسالة من جيمس، غيّرت رأيها في وصفها

لليل بأنّه جنّة الهارب؛ إنّه في الواقع السجن المؤبّد. لماذا يأتي ببالها، ولا تأتي هي ببالها! تعود إلى آيفونها لتقرأ رسائله وتتفرّج على صورها الثلاث التي التقطها لها؛ (تُرى لو أنّ إصبعه نقر على تلك الصور في آيفونه من دون قصد منه وراح يستعرضها، فماذا سيفعل؟ هل يضحك؟ هل يبتسم؟ يتذكّر ألسنة العصافير، وصفة طبق فرس الشيطان؟ أم أنّه سيمرّ عليها مرَّ الكرام، كما يمرّ على صور كثيرة! أم تُراه محاها بعد أن أرسلها لها؟).

تعود في المساء إلى شقّتها لتجد نفسها تبحث في الإنترنت عن مواقع النساء الوحيدات اللواتي كانت تتبادل معهنّ أخبار الوحدة وكآبة الوحدة؛ وبالصدفة تقرأ عن اختراع جديد هو عبارة عن آلة للدماغ تنشِّط فيه الحاسّة السادسة؛ فبدلاً من أن تتّصل هي بجيمس فإنّ دماغها هو الذي يتّصل به مباشرة من دون أن تتدخّل هي أبدًا. شيء يشبه الذكاء العاطفي. تبحث إيڤون عن مخترع هذه الآلة فتجد عنوانه على الإنترنت وتتّصل به.

«سيّدي، أريد منك أن تركِّب لي الشريحة في دماغي؛ لقد قرأت عن اختراعك وأريد تجربته، فأنا من الذين يؤمنون بالحاسّة السادسة ويعتمدون عليها كثيرًا في حياتهم. هل يمكن لك أن تحدّد لي موعدًا لإجراء العمليّة؟ وأرجو أن تبلغني سلفًا بالتكاليف كلّها».

لو يمكن الاتّصال بحاسّة جيمس السادسة من أجل إيهامه بأنّ إيڤون هي التي كانت ترقص وحيدة مع الموسيقى، بينما كان هو يحاول تكملة ما بدآه، ثم لترسخ في ذهنه بأنّها قد اشمأزّت من

قبلته بعد الطعام وهي تشمّ رائحة البصل والثوم المقليْن.

وفعلاً ردَّ عليها البروفيسور بعد قليل، وقال:

«آسف، لكن يبدو أنّك لم تنتبهي إلى النقطة الأهمّ في الخبر، إذ لا يكفي وضع الشريحة في دماغك أنتِ، بل لا بدّ من وضع شريحة أخرى في دماغ من تريدين التحاور معه أو الإيحاء له من خلال الحاسّة السادسة!».

لم يتبقّ عندها ذرّة صبر واحدة. تفكّر بالاتّصال بجيمس الآن. لكنّها تعود وتتراجع. الأفضل لها أن تأتي بالكتاب المقدَّس الذي ورثته عن جدّتها وظلّت محتفظة به منذ طفولتها، تلتهم صفحة كاملة منه كما كان يفعل جارُهم في لبنان والذي كان يعاني من الحصى في الكُلى، وكلّما تحرّكت حصوةٌ وداهمته نوبة ألم، سارع إلى الكتاب المقدّس وأكل منه بحسب درجة الألم ـ نصف صفحة أو صفحة كاملة.

لماذا لا ترسل مرسالاً إلى جيمس حول الطعام، وليس عنها أو عنه فتقول: (هل تعرف أنّ الطعام يتحدّث إلينا؟ يسألنا إن كنّا نتذوّقه أم لا، ويفرح إذا التهمناه، حيث يعرف أنّه سيذهب في نزهة، رحلة، مغامرة، بدءًا بحلوقنا. وأمّا إذا تركناه في الصحن وحيدًا، مهملاً، دبّ به الحزن وأصابه الاكتئاب والمرض وتبدّل لونه ورائحته، ومات ودُفن مع سائر الأموات في برميل الزبالة). أو ربّما ترسل له رسالة تدعوه فيها إلى زيارة لبنان لحضور احتفال حول الطعام والمأكولات اللبنانيّة، فإذا وافق قامت هي بتنظيم مؤتمر كهذا فعلاً!

رسائل ثلاث ترد الواحدة بعد الأخرى من الصحراوي هشام؛ تضحك لأنّه يكتب اسمها بالإنكليزيّة إيفون مستعملاً حرف الفاء بدل حرف V الأجنبي.

«أخ هشام، هدى أتت في غيابي وأخذت كلّ حوائجها وتركت رسالة تعتذر فيها عن عدم وداعي، إذ قرّرت السفر فجأة لأسباب خارجة عن إرادتها، وتقول إنّها سوف تتصل بي من آيسلنده بعد غد».

«ممكن تعطيني رقم هاتفها؟».

«اعذرني، عليّ أن أستأذنها أوّلاً، والمهمّ الآن أنّها بخير، وسأتّصل بك بعد غد».

«اسمعيني، أنا لا أفهم لماذا يجب عليك استئذانها، فقد كنتِ مستعدّة لإعطائي الرقم هذا الصباح فماذا تغيّر، لا بدّ أنّها قالت لكِ شيئًا حتى غيَّرتِ رأيك».

«معك حقّ. لكن أنا لم أغيِّر رأيي بل هي التي طلبت منّي ألّا أعطيك رقمها؛ أنا آسفة، ليس باليد حيلة، ومرّة أخرى آسفة».

«لكن يجب أن أتحدّث معها».

«أنا قلتُ لها ذلك؛ دعني أخبرها مرّة أخرى».

تدير رقم المحلّلة النفسيّة وتغيِّر رأيها، لا يوجد علاج لها سوى ذاك المخدّر الذي تتوق إليه، ذاك المخدّر يتبدّل ويتلاشى أو يتزايد بين لحظة وأخرى؛ يأتي في شكل صوتٍ يحمل كلمات

حلوة تترك صدى في المخيّلة والجسم أيضًا. صوت جيمس يتغلغل في كلّ مسامة من جسدها، ومع كلّ حركة في حياتها؛ حتى في الجوارب التي تلبسها؛ في رذاذ الماء الساخن ورغوة الصابون؛ عند ارتدائها ملابسها في الصباح، وحين خلعها في الليل.

في صباح اليوم التالي، تشتري فستانًا وقبّعة. ستنتظره هناك قرب مكتبه في المجلّة، حتى إذا رأته خارجًا ظهرت له وكأنّها صدفة فتبادره قائلة (آه، الصدفة خيرٌ من ألف ميعاد). تعثر على مصنع مانيكانات لواجهات المحلّات التجاريّة، لتطلب منه أن يصنع لها مانيكانًا بوجهها وحجمها هي، حتى إذا ما أصبحت إيڤون البلاستيكيّة جاهزة، أرسلتها إلى جيمس من دون أيّ تعليق. إنّها تعرف عنه الآن الكثير من خلال قراءتها للعديد من مقالاته؛ لقد قرأتْ معظمها؛ وهي تبحث الآن في الإنترنت عن أحدث مقالة له، لعلّه ذكر فيها شيئًا ممّا سمعه منها أو ممّا تحدّثا عنه معًا، كما أنّها ستهرب هذه الليلة إلى مركز للصوفيّة في شارع تلغارث رود غرب لندن، حيث يدور المتصوّفون في رقصة الدراويش حول أنفسهم من أجل أن يلتقوا بخالقهم ويتوحّدوا معه. إحدى المعذّبات وصفت هذه التجربة على صفحات موقعها على الإنترنت بأنّها الحلّ الوحيد الذي ساعدها على الشعور بالثبات والثقة بالنفس. وأخذت إيڤون فعلاً تدور حول نفسها مع الآخرين، وبعد محاولات عديدة توقّفت عن التهالك على إحداهنّ أو أحدهم في دورانها. كلّما دارت حول نفسها فتحت قلبها على مصراعيه لتطرد منه الغمّ وتُدخل إليه السكينة. من أجل الوصول

إلى نقطة ارتكازها تحفر في نفسها كالبيضة التي تحفر في الرحم مكانًا لها حتى تصبح جنينًا. أخذت تدور وتدور.. لكن وبدلاً من أن تصل إلى عين خالقها وصلت إلى حلمة ثديها، وبدلاً من التوحّد مع خالقها توحّدت مع جيمس. فقط عندما دخلت مرحاض المركز وسمعت صوتًا آتيًا من محطّة الأندرغراوند ينادي ويعتذر عن تأخّر أحد القطارات، أدركت أنّها في صخب المدينة وليست وحيدة كما ظنّت؛ إنّها داخل معمعة، وما توقها للرجل سوى توْقٍ للهدوء وعشقٍ للذات، فالرجل في نهاية المطاف هو القطار الذي سيأخذها إلى محطّة نفسها. إذا حضنها الرجل تكون السعادة أكبر ممّا لو حضنته هي؛ وقبلته لها أغنى وأكثر إسعادًا من قبلتها له؛ تنام ملء جفونها في المساء، لتنهض في الصباح، وكأنّها تحت تأثير كابوس مرعب، وكأنّ كلّ ما وصلت إليه البارحة كان مجرّد حلم لا أساس له في الواقع. عندما دخلت مكتبها كان هشام في انتظارها.

ـ «لم تتّصلي بي كما وعدتني!».

«نعم لأنّها لم تتّصلْ بي».

«إذا كنتِ لا تريدين إعطائي رقم هاتفها، فماذا عن الإيميل! أم أنّ هذا أيضًا ممنوع؟».

تضحك وتغصّ في الضحك.

«هدى والإيميل، يا حرام! هدى تستطيع بالكاد أن تردّ على هاتفها المحمول، رفضت أن أعلّمها كيفيّة استعمال الآيفون؛ إسمع أخ هشام، وضعي يشبه وضعك تمامًا، أنا أعاني كما تعاني

أنت. لقد تعرّفتُ على شابّ. ظننت أنّ الله قد أرسل لي أخيرًا ما كنت أتمنّاه في حياتي. لكنّه اختفى، ذاب وكأنّه قطعة من الثلج. أنصحك بأن تقنع نفسك بأنّك التقيت بها ليوم واحد أو حتى ساعات معدودة، وكان لقاءً عابرًا، وانتهى الأمر. أنا فعلت ذلك مع أنّني عرفت صديقي لمدّة نصف عام».

لقد كذبتُ عليه؛ ولكن ربّما إنّها لم تكذب إذا أضافت ساعاتها مع جيمس إلى اليومين مع لوتشو، والأسابيع مع المحامي اللبناني، وتلك الأشهر مع ذاك الفرنسي المغربي، وكلّ التعلّق والهوس بالرجال على مدى السنين.

«سأفعل المستحيل من أجل أن أتحدّث معها، لن يهدأ لي بال إلّا إذا فعلت ذلك. هي وعدتني ولا بدّ أن تفي بوعدها».

«كيف تريدها أن تفي بوعدها وهي متزوّجة! هل تريدها أن تُسجن؟ لا تنسَ أنّك في بريطانيا. وحتى في البلاد العربيّة لا تستطيع المرأة أن تتزوّج من رجلين في الوقت ذاته».

«هل نسيتِ أنّني قلت لك إنّني ليس عندي أوراق ثبوتيّة، ولن نسجّل زواجنا إلّا في المسجد!».

«لم أنسَ، لكن تسجيل الزواج في المسجد هو كتسجيله في الدوائر المدنيّة؛ آسفة إن قلت لك إنّ تفكيرك ليس واقعيًّا؛ إنّه غريب عجيب».

«تفكيري غريب لأنّني أؤمن بالله تعالى وأتّبع تعاليمه، ولأنّني أسير على صراط مستقيم بدلاً من ارتكاب الآثام والمعاصي؟ ألم

يأمرنا الله بالحلال وينهانا عن الحرام؟ ألم يحثّنا الله في كتابه العزيز على الزواج؛ ثم تقولين لي إنّ تفكيري أنا عجيب! هل لأنّي أردت احترام وتكريم الفتاة التي رضيت بمجامعتي لها؟».

«معك كلّ الحقّ، ويبدو أنّ هدى قد أحبّتك، ولكن حين طلبت منها الزواج تبيّنت خطأها وخافت وهربت كما قلت؛ هذا هو كلّ ما حصل وعليك نسيان الموضوع».

«لا، عليّ أن أتأكّد من ذلك، عليّ أن أسمع هذا منها هي؛ الإنسان النبيل هو الذي يواجه الآخر ويقرّ بالحقيقة؛ لقد وعدتني وهربت بدلاً من مواجهتي ومصارحتي».

«تذكَّر يا أخ هشام أنّ في هذه الدنيا الضعيف وفيها القويّ».

«ما دخْل القوّة والضعف في الكذب عليّ بأنّها تعيش في كندا، ثم ما هو الذي أخذ بها إلى آيسلنده؟».

«لديها أخ يعيش هناك؛ عندما قرّرت الهرب من زوجها التجأت إليه».

يحوِّل هشام كفَّه إلى قبضة، وبدلاً من أن يضرب الطاولة ضرب جبهته؛ يهزّ رأسه كأنّه يودّ أن ينفي ما يسمعه؛ تنهض إيڤون وتأتي له بالقهوة والبسكوت، وتطلب من أحد الموظّفين أن يأتيها بعد خمس دقائق.

«سأساعدك في التحدّث إليها. كن متأكّدًا من ذلك، وإذا رفضتْ سأعطيك رقمها حتى لو مانعت».

ينظر إلى القهوة من دون أن يمدّ يده لتناولها. ينهض ونبض

صدغه يكاد يفجّر شرايينه.

«أستأذن، السلام عليكم» ويسرع خارجًا.

(على هدى أن تلمّ بما يحدث. لم يعُدْ بوسعي حمايتها) تحدّث إيڤون نفسها؛ ترسل إيميل إليها تخبرها فيه بأنّ هشام زارها وأنّه غاضب. لحظات وتتّصل هدى.

«ماذا يريد منّي؟ شكرًا لسرعة خاطرك إيڤون، ولصداقتك، لا، لا أعتقد أنّ اتّصالي به فكرة جيّدة، فقد يسجّل صوتي وينبش مكاني من تحت الأرض!».

«لا يستطيع تقنيًّا أن يفعل ذلك! لكن كيف صدف أنّك ما زلت مستيقظة حتى الآن؟ كم الساعة في تورونتو؟».

«أنا قلقة عليكِ كثيرًا منهُ».

«أعتقد أنّه من الأفضل أن تتحدّثي مع هشام وتنهي المسألة».

«أنت مجنونة إيڤون!».

«لا، أنت المجنونة هدى، اسمعي، اتّصلي به وكلمة وردّ غطاها، قولي له بالحرف الواحد: (أنا متزوّجة ولي بنت، قلت لكِ إنّني أعيش في كندا تحسّبًا، فأنا أقول ذلك للجميع خوفًا من أن يتسرّب الخبر إلى زوجي بأنّي أعيش في ريكيافك، فيلحق بي ويأخذ ابنتنا منّي. آسفة وأعترف لك الآن أنّي أعاني من نزيف كلّما... وفهمك كفاية، وأنا التي ستتعذّب بنار جهنّم لكذبي ونفاقي وليس أنت؛ مع السلامة)».

«لا، لا ليس بإمكاني سماع صوته، لا أطيقه! أعرف أنّي مهما حاولت معه فلن أفلح بإقناعه بأنّه لن يُعذَّب بنار جهنّم لمضاجعته لي أربع مرّات؛ هو مهووس بالدين ويفسّره كما يروق له؛ وهو يصرّ على أنّه يفهم الإسلام أكثر من أيّ شخص آخر، وعلى كلّ حال أنا لست مجبرةً على أن أبرِّر له أيّ شيء».

أوشكت إيڤون أن تصرخ عليها، ولكنّها أنهت المكالمة بأن رمت الآيفون على الكنبة وأطلقت صيحة مدوِّيّة على الجدران.

«أنتِ أكبر أنانيّة!».

عندما عاودت هدى الاتّصال، أمسكت إيڤون بقلبها ـ تُرى هل سمعتني؟

إيڤون حبيبتي اسمعي، الحوار معه لا يجدي، فهو قال لي إنّه يودّ أن يوفّر النقود لأجل أن يستثمر في الذهب، وعندما سألته لماذا، أجابني لأنّ الذهب قد ذُكر في القرآن. إيڤون حبيبتي، هل من الممكن أن أتّصل بك في أيّ وقت يناسبك، على أن يكون الخرا معك، فأنا أستمدّ الشجاعة إذا كنت موجودة!».

(الساعة الثامنة مساءً؛ هدى، اسمعي، أريد أن تقولي له لا يوجد غفران إلّا في النسيان، أرجوك اكتبيها هدى الآن، هل أعيدها؟ لا يوجد غفران إلّا في النسيان).

«أوكي، إيڤون.. اتّفقنا، قبلاتي، قبلاتي».

«اتّفقنا هدى، يا الله تشجّعي».

(كم هي محظوظة! هشام مهووسٌ بها ويكاد يُجنّ فيها، ولا

أعتقد أنّ تعلّقه أو جنونه بها نابع من حرصه على إرضاء الله فقط؛ فحبّه لها ازداد كما يبدو رغم الكذب الذي كدتُ أطمره به. بينما أنا لا أنام الليل لأنّني دائمة التفكير بأن لا أحد يفكّر بي! ربّما كان عليّ أن أقوم بخطف جيمس وإجباره على الزواج بي، خطيفة يعني كما يفعل أهالي شمال بيتان في الهند الذين يخطفون الرجال أزواجًا لبناتهم).

هشام يدقّ على باب الشقّة في السابعة والنصف؛ لم يضغط على زرّ الجرس، بل نقر نقرتيْن خفيفتيْن على الباب ليبادرها ما إن فتحت له، ومن دون أن يُلقي ولو نظرة خاطفة على شقّتها:

«هل هناك فرق في الوقت بين آيسلنده ولندن؟».

«لا أعرف، هي قالت إنّها سوف تتّصل في الساعة الثامنة».

«كيف حالها؟».

«لم أسألها، كنت مهتمّة بإقناعها بالاتّصال بك».

«لا أعرف سرّ رفضها الاتّصال بي».

«ولا أنا؛ والأفضل ألّا أعرف؛ وهي أيضًا لم تسألني حتى عن أحوالي».

تنهض وتأتي لنفسها بقنّينة بيرة من الثلّاجة، وكوبًا من عصير البرتقال له.

«هل أنتَ جائع؟».

«لا، شكرًا؛ هل يمكن أن تطلبي الاستعلامات لنعرف فارق الوقت؟».

«أنا متأكّدة أنّها قصدت الساعة الثامنة بتوقيتنا. ستّتصل، لقد وعدتني».

أصبحت إيڤون في أشدّ الحماس لسماع ما سوف يقوله لهدى: هل سيحاول إقناعها بالعودة لتسجيل زواجهما؛ أم أنّه سيصرخ بها ويقتصّ منها ولو عن بُعْد؟ أم تُراهُ يريد التأكّد منها بأنّها لن تعود.. وهكذا يحكم عليها بعقوبة الخيانة والنفاق؟

يمرّ الوقت من دون أن يرنّ هاتف الشقّة الأرضي أو الآيفون. تعاود التحديق في الصور الثلاث التي التقطها لها جيمس في العرس، وبرسالتيْه؛ (كيف ينسى كلّ شيء عنها؟ ربّما لأنّه أجنبي؛ لو كان عربيًّا لكان اتّصل ولو لجسّ النبض ومعرفة إن كانت ما زالت تتذكّره أو أنّها ما زالت معجبة به، أو أنّها كرهته حتى وإن كانت لا تعني له شيئًا!).

«لا شيء؟ يسألها هشام معتقدًا أنّ إيڤون تبحث في آيفونها عن رسالة من هدى!».

«قل لي هشام، لماذا تريد أن تتحدّث معها، هل لأنّك لا تصدّقني، لا تصدّق ما أخبرتك به عنها؟».

وسرعان ما تتراجع وتغيِّر لهجتها في التحدّث إليه، وتستبدلها بلهجة تقطر حنانًا ورقّة.

«لك كلّ الحقّ في أن تتحدّث إليها! فها أنا أفكّر باستمرار لماذا لم يتّصل بي ذاك الشخص! وكنت أعتقد أنّنا وقعنا معًا في الحبّ، أريد أن ألقاه ولو لإلقاء التحيّة، حتى أتأكّد إن كان عليّ

أن أمضي في الحلم أم أتوقّف. صديقة لي اتّصلت بحبيبها الذي توقّف عن محاولة رؤيتها بعد نزاع بينهما كاد أن يكون داميًا. وعندما سألته إن كانا سيتصالحان، أجابها (عندما يتوقّف المرء عن التواصل مع الآخر، ألا يعني هذا أنّ كلّ شيء انتهى حتى لو ظلّ الآخر يصرّ على الملاحقة أشهرًا وأشهرًا!) لتجيبه صديقتي، (أردت التأكّد حتى يسهل عليّ إخراج صورتك من شنطة يدي).

«إنّها التاسعة إلّا الثلث الآن ولم تتصل»، ويهزّ رأسه وكلّه أسف.

تأخذ بالتثاؤب حتى تنقل له العدوى فيتثاءب هو الآخر ويغادر. وعندما لم يتثاءب سألته:

«هل نأكل شيئًا؟».

«لا، لا أريد أن آكل، شكرًا».

«أنت خجولٌ للغاية».

«أنا في غاية التوتّر والإرهاق».

«قم بأخذ نَفَس عميق، هيّا، خمس مرّات».

لم يفعل شيئًا سوى التحديق في ساعة يده.

تحتسي البيرة؛ لربّما إنّه يريد أن يصلّي. بنطاله الجينز الأسود الضيّق، وسترته الجلديّة، ولون لفحته النبيذيّة لا يتماشى قطعًا مع الصلاة، بل مع ممارسة اليوغا وحبس النَفَس».

لا بدَّ أنّه يصغرها بثماني سنوات. وجهه يذكّرها برسوم

قصص الصغار، والمنمنمات الفارسيّة؛ العينان واسعتان كأنّ كلًّا منهما قمر، وحاجبان سوداوان كسيفَيْن، وشفتان ممتلئتان تنمّان عن براءة وليس شهوة. تحاول أن تتخيّله وهو يضاجع هدى.

تنهض وتأتي بنصف دجاجة محمَّرة، وبندورة وخسّ وخبز وزيتون. تضعها جميعًا على طاولة المطبخ.

«تعال نأكل شيئًا».

«شكرًا، لست جائعًا».

«هذه الدجاجة حلال؛ المرأة التي تساعدني في شؤون البيت وتحضّر لي الطعام مسلمة من أريتريا، وهي لا تشتري إلّا الأكل الحلال».

«لست جائعًا، شكرًا».

«أنا جائعة، تعال واجلس معي، لا تخف، سنسمع رنّة التلفون في المطبخ أيضًا».

يجلس على الكرسيّ، ولم يتوقّف عن هزّ قدمه؛ وما إن بدأت بالأكل حتى توقّفت فجأة لتقول له:

«ربّما لا تحبّ أن تأكل إلّا على طاولة المسلمين؟».

«ما هذا الكلام!».

ينهض إلى المجلى، يغسل يديه جيّدًا، ثم يلتفت حوله باحثًا عن شيء يجفّف يديه به، تناوله ورق المطبخ، وتشير له عن مكان تنكة الزبالة. تمتم قبل أن يمدّ يده إلى الطعام (بسم الله الرحمٰن

الرحيم) وأخذ يأكل بكلّ هدوء، ثم، ولدهشتها، يقطع الصمت قائلاً:

«يقال إنّ الجلوس حول المائدة هي كمشورة بين الأفراد ويتعلّق بأمر في غاية الأهمّيّة».

«لا أعتقد أنّ مكالمة هدى هو بتلك الأهمّيّة، ولو كنت مكانك لما فكّرت بالتحدّث إليها. أنظر إليّ كيف لا أتّصل رغم لهفتي وتعلّقي به، بالذي أوهمني بأنّي مهمّة عنده؛ المسألة بسيطة: على المرء الاعتراف بينه وبين نفسه، بدرجة أهمّيّته عند الشخص الآخر، حتى لو أسفرت الحقيقة عن ألم مريع! يقولون (وجع ساعة، ولا وجع كلّ ساعة). لو أنّ هدى مهتمّة بك أو حتى بي، لكانت اتّصلت بنا في الساعة الثامنة تمامًا؛ فهي وعدتني وأقسمت بحياتي بأنّها سوف تتّصل».

تتوقّف إيڤون عن الأكل ويعلو صوتها بحدّة.

«لا أفهم، هل نسيت حضرتها أنّي صديقتها الحميمة؟ ألا تعلم بأنّني سأقف إلى جانبها ضدّ العالم كلّه؟ أم أنّها تظنّ أنّي أقف معك ضدّها؟ تركتني أذهب وحدي إلى العرس يوم الأحد! تحجّجت بالتعب والإرهاق، وبدلاً من أن تنام هنا في البيت بعد الظهر كما قالت لي، خرجت لتلتقي بك وتبقى معك الساعات الطويلة... لكن دعنا ننسَ ذلك؛ الأفضل لنا أن ننسى ونأكل».

«أريد فقط أن أسمع بأذني منها جوابًا عن سؤال واحد لا غير».

«وما هو هذا السؤال؟».

«سؤال».

«حزرته؛ تريد أن تسألها أين تقع جيبوتي؟».

«ماذا؟ لا أفهم!».

«آسفة، فأنا أحبّ المزاح كلّما شعرت بانقباض قلبي نتيجة الضيق أو الانتظار والقلق!».

«لكن أين تقع جيبوتي؟».

«لا أعرف، دعني أرَى».

تبحث في آيفونها.

«تقع بين أريتريا وأثيوبيا والصومال».

«لكن لماذا خطرت جيبوتي بالذات ببالك؟».

«لا أعرف! ربّما لأنّني فكّرت بأنّ سؤالك لهدى سيكون معقّدًا وغامضًا، لهذا جاءت جيبوتي على بالي. أوه، تذكّرت، سمعت البارحة قطعة موسيقيّة اسمها 'Stop OVER Djibouti'».

(لا بدّ أنّ هدى خائفة)، تقول إيڤون لنفسها وهي تتخيّل صديقتها تدير الرقم ثم تغيّر رأيها رغمًا عنها. ولكنّها تشعر بالغضب والاشمئزاز وتصيح في داخلها: (كيف تجرؤ هدى على فعل ما فعلته ثم تخشى لا من مواجهة بل من مكالمة تلفونيّة! يعني حضرتها تعمل عملتها وتتركني أعزِّل وأنظِّف الخراء من ورائها! تضبط إيڤون نفسها وهي تردّد الجملة ذاتها التي طالما

سمعتها من أمّها من دون أن تفهم معناها! كيف أنّها ورغم تركها لعائلتها ولبنان عشرين عامًا، لم تستطع أن تنفض عنها تلك العقليّة الجبليّة وتمسّكها وإيمانها بالأمثال كمرآة للصدق رغم وقاحتها وسوقيّتها).

«تعرف! أشعر بخيبة أمل كبيرة تجاه صديقتي!».

ينظر في تلفونه المحمول.

«تكاد تصبح العاشرة!».

«هل تظنّ أنّه بعد عشر أو عشرين سنة، ستنقرض ساعات اليد!».

«لقد أطلتُ عليكِ».

«أعدك بأنّي سآتي لكَ بنمرتها ولو من الشياطين!».

«بسم الله الرحمٰن الرحيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. لكن لم تقولي لي كيف استطاعت هي أن تحصل على تأشيرة وإقامة في آيسلنده! ونادرًا أن نلجأ نحن العرب إلى آيسلنده».

«كان شقيقها دليلاً سياحيًّا في لبنان عندما التقى بسوّاح من آيسلنده تبادل معهم العناوين.

وبعد فترة اتّصل بهم، وأبدى رغبته في زيارة آيسلنده فساعدوه في ذلك، وما إن أصبح هناك حتى دبّر عملاً وأقام فيها».

كانت إيڤون في الواقع تروي قصّة قريب لها.

«هذه هي الشهامة في نظري؛ بينما الضلال وعدتني ولم تفِ بوعدها، ولم تعتذر».

«دلال؟ لا أفهم!».

«ضلال، نعم، اسم هدى غير مناسب لها؛ إنّها ضلال وليس هدى، أطلقتُ عليها هذا الاسم حين سمعتها تتحدّث في السبيكرز كورنر بالهايد بارك؛ بعد ذلك تراجعتُ عن نعتها بهذا الاسم، وندمت لأنّني قسوتُ عليها؛ ولكنّها عادت لتجرّني إلى البحر بدهائها، وتعيدني عطشًا، إنّها الضلال بعينه».

«إنّها تتهرّب، صديقتي تتهرّب، حرام، إنّي أشفق عليها، فزواجها الأوّل هو السبب في كلّ علّة؛ أورثها عقدة من الزواج كلّه و..».

يقاطعها هشام:

«تقولين زواجها الأوّل، وكأنّك تعرفين بأنّ هناك زواجًا آخر، زواجًا ثانيًا؛ هل أخبرتك بما جرى بيننا؟ هل أخبرتك أنّنا تزوّجنا؟».

تضرب إيڤون كفًّا على كفّ وكأنّها صُعقت من هوْل ما تسمع؛ تبحلق به وكأنّ عينيْها تسألانه إن كان قد مسَّه جنون!

«تزوّجتما؟ ليتني سجَّلتُ ما قلته لي قبلاً حين ادّعيت بأنّها قد هربت منك لأنّها لم ترد الزواج بك! أرجوك أنا لا أتحمّل كلّ هذا».

نهضت تجول في الصالة، تنتقل من كرسي إلى الطاولة، إلى

الكنبة وهي تمسك برأسها وتميل به في جميع الجهات.

«مهلاً مهلاً» يعلو صوته بعصبيّة واضحة «ما بك، هل جُننتِ؟».

«طبعًا، فأنا حائرة لا أعرف من أصدِّق! المفروض أنّك متديِّن ملتزم، وكلّ ما تقوله صدق مئة بالمئة؛ والآن تخبرني بأنّكما متزوّجان، وماذا عن صديقتي، لماذا أخفت عنّي زواجكما؟».

«ما بك تتهجّمين عليّ! فأنا إذ لم أبُح لك بالتفاصيل من قبل، فمن أجل المحافظة على سرّ صديقتك».

«ظننت أنّني أنا التي اعترفت لك بأسرار صديقتي».

«تزوّجنا أمام الله ورسوله، وكان علينا أن نسجّل الزواج في المسجد، هذا كلّ ما في الأمر، لكنّها هربت».

«لا أفهم ماذا تقصد بقولك إنّكما تزوّجتما أمام الله ورسوله! هل معناهُ أنّكما تزوّجتما هكذا من دون شهود ومن دون أوراق أو شيخ يعقد القران!» ثم تتذكّر كلمة النكاح من عرس غلام وصوفي، فتسأل من جديد وقبل أن يجيبها، «إذن زواجكما هو غير الزواج الإسلامي، النكاح يعني!».

«لا أفهم سؤالك» يجيبها وقد ضاق خلقه.

«أنا لم أسمع من قبل أنّ باستطاعة اثنين أن يتزوّجا فيما بينهما، من دون وجود رجل دين يعقد قرانهما، أو موظّف من دائرة حكوميّة لكتابة عقد الزواج المدني بينهما. إنّني لم أسمع

بمثل هذا الزواج عند المسلمين في لبنان».

«إنّه معروف لدينا نحن المسلمين».

«ليت المسيحيين يؤمنون ويعملون به، لكان عندي الآن مئة زوج وطفل؛ على كلّ حال يجب ألّا يعرف أحدٌ بهذا الزواج وإلّا زُجّ بهدى في السجن».

«قلت لكِ إنّنا سنسجّله في المسجد فقط، ألا تسمعيني؟».

«غريب! كانت هدى دائمًا تقول إنّها لا تؤمن بالتقاليد ولا بما كانت تسمّيه خزعبلات المتزمّتين المدَّعين بتطبيق أحكام الدين. وها هي مع ذلك تصرَّفت كمسلمة أصوليّة كالذين تنتقدهم، عندما قبلت الزواج سرًّا بينك وبينها والله ورسوله شاهدان! تعرف، إنّ خيبة أملي فيها عظيمة؛ لقد استعملت الدين للمصلحة فقط».

ينظر إليها وكأنّه يلومها على ما قالته، وكأنّ ولاءه ما زال لهدى؛ تعاود سؤاله وكأنّها توجّه له إهانة، «هل شرحت لي، من فضلك، كيف تزوّجتما بالسّرّ؟ هل قرأت شيئًا من القرآن! أنا لا أعرف ـ هل النكاح مذكور في القرآن؟».

«هل من الممكن أن تتوقّفي عن ترديد هذه الكلمة!».

«أنا سمعتها من رجل الدين أثناء زواج صديقين لي يوم الأحد! آسفة».

«كلمة زواج أفضل من كلمة نكاح! الآن فهمت سرَّ الصداقة بينك وبين الضلال!».

«لماذا؟ هل الدَّلال..».

يقاطعها: «الضلال، وليس الدَّلال».

«طيّب، هل الضلال، هل هي ردَّدت أمامك كلمة نكاح بدلاً من كلمة زواج؟».

لم يُجب، راح ينظر إلى أسورة يده، عندها قالت:

«لكن لماذا تزوّجتما بينك وبينها كما تقول، ولم يمرّ يوم واحد على التعارف بينكما!».

«لأنّ الجماع من غير زواج حتى لو كان سرًّا، خطيئة عقابها نار جهنّم؛ هل فهمتِ الآن؟ وكان هذا شرطي للنوم معها وهو أن نتزوّج أمام الله ورسوله حتى تصبح حلالي!».

ويعود هشام إلى طبيعته الأولى: فجأة يتحوّل إلى تأبّط شرًّا. طويل القامة، ذو عينان تقدحان شررًا؛ ينهض ويسرع باتّجاه الباب ـ «السلام عليكم».

تنتظر إيڤون خمس دقائق قبل أن تسرع إلى التلفون وتتصل بهدى عشر مرّات متتالية. تترك لها الرسالة وراء الرسالة. (أين أنتِ؟ نحن بانتظارك)؛ (أين أنتِ؟ أرجوك هدى، أن تُنهي المسألة)؛ (أين أنت، كلمة منك حتى يهدأ، أنا أقاسي منه ولا أستطيع التحمّل أكثر، لا تخافي، فقط ردِّدي السيناريو الذي كتبته لك في الإيميل السابق)؛ (هدى أين أنتِ؟ أذكِّركِ بأنّك كذبتِ عليه ساعات طويلة، والآن حاولي أن تكذبي عليه للمرّة الأخيرة ولدقيقة واحدة، يا الله!).

عندما دخلت إيڤون إلى سريرها من دون أن تردَّ هدى على رسائلها، أخذت تبكي. (ربّما إنّ هدى لن تتّصل بي أبدًا؛ ربّما إنّها شعرت بالاختناق منّي لكثرة ما حثثتها على الاتّصال بالصحراوي. هل ستخبو صداقتنا شيئًا فشيئًا، تصبح كالتاجر الذي يعرف أنّ بضاعته كاسدة لكنّه لا يقفل دكّانه ولا يرمي بالبضاعة، بل ينتظر وينتظر إلى أن تتعفّن!!).

فجأة تسمع طنين الرسائل تتدفّق على الآيفون. لا تنهض للاطّلاع عليها ولا لإسكاته. كأنّها استأنست للجلبة الخفيفة؛ (ربّما كان جيمس)! وبدلاً من أن تقفز، عانقت الفراش؛ (الأفضل أن يشعر بالقلق والتوتر) تفكّر وتريد أن تتشفّى ـ لكنّ الأرق والتوتر عرفا طريقهما إليها وتركاها تتقلّب في الفراش كزهرة عبّاد الشمس!

عشرات الرسائل والإيميلات كانت من هدى. (حبيبتي إيڤون، آسفة جدًّا على الإزعاج الذي سبّبته لك وما أزال)؛ (لا أفهم لماذا يصرّ حضرته على سماع اعترافي له بأنّي كاذبة، بدلاً من أن يدير ظهره ويهنّئ نفسه بأنّه لم يقع في مصيبة بالزواج منّي، لا أعرف لماذا لا يفكّر بأنّ ربّنا على كلٍّ سيقتصّ منّي وليس منه، مع حبّي، هدى)؛ (إنّي أحاول إيڤون، لا تظنّي أنّي لا أبالي ولا أحاول الاتّصال، ولكن خوفي من أن يجذبه صوتي ويجعله يشتهي لقائي، هو ما يمنعني من التحدّث إليه)؛ (قد تفكّرين بأنّني مغرورة، أو أنّني معتدّة بنفسي أكثر من اللازم، لكن هذا هو ما أفكّر به، مع حبّي ـ هدى)؛ (إيڤون، لم يكن باستطاعتي؛ أعضّ

على أصابعي من الندم على ما حدث بيني وبين هشام! أفتّش عن أجوبة على أسئلتي الكثيرة: لماذا فعلت ذلك؟ هل كان اقتصاصًا منه لأنّه أهانني! لأنّه هدَّدني؟ هل أردت أن أكشف له أنّ الدين ليس تحت وصاية أحد، وبأنّ تصرّفاته تشكّل عبئًا ثقيلاً ليس عليّ أنا فقط بل على الكثيرين، إنّه لا يخيف البشر فقط بل الدين نفسه. هل أردتُ السخرية منه، أم أردتُ مواجهة موضوع الدين من جديد، وهو الموضوع الذي هيمن على نشأتي وطفولتي؟! عنف هشام أرغمني على العودة إلى الماضي؛ هل أردت محاكاة الشعر والخيال به، كصورة الجنّة البديعة ذات السكينة، والعذارى فيها يطرن كالفراشات، بدلاً من أولئك الذين كانوا يتصايحون حول الأديان وكأنّهم في حروب مسلّحة، وبدلاً من تلك اللكمة التي سدّدها هشام إلى الشابّ الظريف الهادي، أردت رؤية عينيه تزوغان في الشهوة بدلاً من نفث الحقد المسموم! لم أكن لأبالي بأن يصبح جسدي وعاءً يفرِّغ فيه شحنة غضبه)؛ (لا أعرف إن كان ما كتبته لكِ قد ألقى ضوءًا واضحًا على ما حصل معي، فأنا أيضًا لا أعرف! آسفة على حشرك في هذه الورطة، مع حبّي، هدى)؛ (هاي إيڤون، تذكّرت شيئًا، أردت من حواري معه أن أشجّعه على التمتّع بالحياة الدنيا والتفكير بها، أذكر قولي له بأنّ البشر يجرِّبون حياة الآخرة وهم يعيشون حياتهم في الدنيا. خذ الحروب، وتسونامي الذي شقّ البحر وبلع الناس، خذ الزلازل والبراكين، والتعذيب، يا الله يا الله تصبحي على ألف خير وخير، مع حبّي دائمًا، هدى)؛ (هذا أنا من جديد، كنت أظنّ أنّي بهروبي من هشام، بعدما فعلت ما فعلته معه، قد نجحت في إزالة

كلّ البقع المستعصية على الروح، لكن اتّضح لي بأنّ ترك الأمور أو إهمالها ليس كفيلاً بنسيانها! تُرى هل ينسى اللص نظرة المرأة المرتعبة عندما رأته في غرفة نومها! ماذا بوسعنا أن نفعل مع العقل الذي يخزِّن كلّ شيء، مهما توسّلنا إليه وتحايلنا عليه مستعينين بالمحلّلين والمنوِّمين وكؤوس الكحول والمخدِّر والعقاقير! حتى لو شققنا البحار والصحارى، ولو ركبنا الكبسولة إلى القمر هربًا، فلن يكون بإمكاننا نزع ما دققناه كالوشم على تلافيف أدمغتنا، فأنا أريد أن أزيل كلّ ما علق بي نتيجة التحجّر والتأخّر والتزمّت الذي ألصق بالدين. لم أخبرك عن قرن الفلفل أو عن لعبة النحلة والدبّور.. آه، سأفعل ذلك في مناسبة أخرى)؛ (آه يا إيڤون، أعرف أنّني أطيل عليك يا حبيبتي، وإذا أردتِ أن تتوقّفي عن القراءة، لا بأس، لكنّني أريد أن أخرجَ كلّ ما في صدري. صورة هشام، وهو يتمتم (بسم الله الرحمٰن الرحيم) حين يقطع الخبز، أعادتني إلى لغة تناسيتها مراحل معيّنة من حياتي، من عواطفي. فهي ارتبطت بمخزون معيّن وإحساس معيَّن. مجرَّد رؤيتي لنتف من القطن العالقة بجواربه من كثرة ما غُسلت مع ملابس أخرى ومناشف وشراشف، ذكَّرتني بجوارب والدي وشقيقي، وبأحاسيس دافئة، ولكن ما إن غضَّ بصره حين وقفت عاريةً أمامه، وأدار رأسه مواجهًا الجدران مستغفرًا ربَّه، فإنّ عطفي وحناني تجاهه تحوَّلا إلى تحدٍّ واستعلاء، كما كان يحدث أثناء مواجهاتي الفكريّة مع والدي كلّما سمعته يقدّم الفتاوى وكأنّه فوق البشر. كانت مواجهات فيها ثورة على التحجّر والتأخّر. كيف تجرّأ هشام على فكِّ سحّاب بنطلونه وكلّه إيمان بأنّ ما

يحدث بيننا لا علاقة له بجسدينا، بحواسّنا أو بأفكارنا، بل بجزأيْن صغيرين منّي ومنه، الأفضل لنا تجاهلهما ونسيان وجودهما.. مع حبّي، هدى)؛ (إيڤون، لا لن يعاودني الندم على ما فعلته ـ هو أتى بلذّته أربع مرّات. وأنا حوريّة الجنّة على الأرض. كافأت المؤمن وسدّدْتُ آخر ما توجّب عليّ إزاء ما نشأت عليه. نعم، فكّرت بأكثر من سيناريو، فتخيّلت نفسي أقول له: «اسمع لقد وضعت فراولة العذريّة من أجل أن تصدّق بأنّني سأعود عذراء كأوّل مرّة..» ربّما فعلت ذلك لأبرهن لك أنّ هذا الخيال لا وجود له إلّا في الدين، وما علينا تفسيره. أنا الساذجة لأنّي لم أشكّ بأنّه لن يصدّق بأنّ معجزة قد حدثت!)؛ (حبيبتي إيڤون، ربّما كان عليّ أن أفرك عينيّ وأعيش الواقع، لا دين ولا من يحزنون. فأقول له هكذا وُلدت، أنزف كلّما ضاجعني رجل وما من تفسيرٍ طبّي، ـ مع حبّي، هدى).

(وأنا يا صديقتي، حدثُ عن الدين بعد أن نضج تفكيري ووعيي. عيني تصبّ عليّ الحياة وما يجري من حولها، رأيت أنّ السماء هي من أجل أن نرى فيها الشمس والقمر والنجوم؛ السماء من أجل أن تمطر، من أجل لونها الأزرق، من أجل البرق والرعد.

قيل لي وأنا صغيرة، حين توفّي عمّي، بأنّه صعد إلى الجنّة فلم أتوقّف عن الحملقة في السماء أيّامًا طويلة علّني أراه؛ ولم أخفض رأسي إلّا بعد أن صفعتني أمّي صارخةً أنّني لن أرى عمّي لأنّ الجنّة لا تُشاهدُ من الأرض، وأنّ الله هو وحده الذي يعيش

في السموات. وأخيرًا عزيزتي، أكذب عليك إن قلتُ لكِ إنّ ما فعلتُهُ مع هشام كان بعيدًا عن حماسي له من أجل أن يعيش في الحاضر، وأن ينظر إلى حياة الدنيا نظرة أخرى. وبأنّ ما يتمنّى نيله في الآخرة خير جزاء له يناله الآن).

تدمع عينا إيڤون ـ (هدى صديقتي، أنا أحبّها)؛ تصمّم أن تحتال عليها من أجل إنهاء هذه المهزلة. ستجعلها تردّد هذه الكلمات في سياق الحديث ـ (آسفة، نعم، متزوّجة، ابنتي، آيسلنده، هشام، أنا)، ثم تذهب بالشريط إلى من يركِّب الكلمات جملاً مصحوبة بتنهّداتها وبكائها، وتُسْمِعُهُ لهشام على أساس أنّ هدى هي التي تتحدّث فيشعر وكأنّه استردّ حقّه وكرامته.

تمرّ أربع ليالٍ على العُرس، أربع ليالٍ طويلة، وجيمس لم يتصل، فتسرع إيڤون إلى محو الصور والرسائل؛ كبسَةٌ من إصبعها ويتلاشى من حياتها، كأنّه سحابة في السماء دفشها الريح إلى حيث لا تدري.

تهنّئ نفسها: كفاكنَّ أيّتها النساء، تتآكلْنَ وتنهشن أنفسكنّ وتتقرَّحنَ من أجل رجال عديمي الفائدة! وأنتِ إيڤون، تصرخين (أريد رجلاً، أريد رجلاً كالطاووس الذي هبط خطأً في تلك البلدة وقام باحتلالها وكأنّه كتيبة كاملة من الجيش، يجول ويصول في أحيائها، ويأخذ قيلولة وسط الطريق العام غير مُبالٍ بعرقلة حركة السير، لا بل يسهر الجميع على راحته، وهو يرمق الأهالي بالأعين المطبوعة على جناحيْه، وصوته يتعالى عند الفجر مناديًا (أريد أنثى، أريد أنثى)).

لقد محت رسالتيْه والصور واسمه أيضًا، ولكن ما إن نظرت في المرآة من أجل أن تزيد المساحيق الخضراء حول عينيها وتسرّح شعرها حتى رأته في المرآة، فخاطبته (هل تعرف أنّي أتعذّب من أجلك؟).

تسكب لنفسها كأسًا من الفودكا وتضيف إليه عصير البرتقال وقطعًا من التفّاح والليمون. (سأعيش وكأنّي أعيش مع رجل؛ لا يهمّ إن كان يجلس قبالتي أو بجانبي؛ تفكيري به معناه أنّه يعيش معي). تشرب كأسًا آخر وتخاطب جيمس (لماذا تكتب عن الطعام، أليس الطعام الذي نأكله إنّما نميته؟ نتفنّن في طريقة تعذيبه؟ أنا أعرف لماذا حدّثتني عن الروبوت؛ أنت تعاني من Cotard's Syndrome، أنت تتوهّم بأنّك ميت، ولهذا لم تتجاوب معي ورحتَ ترقص مع الأموات).

تسمع دقَّتيْن على الباب! (هل يحرِّم الدين الكبس على زرِّ الجرس؟!)، تتساءل بصوت تسمعه هي ويردّده فراغ شقّتها. لم تفتح الباب إلّا بعد أن دلقت الفودكا في كوب شاي.

كان قد كلَّمها في الصباح، أوشكت أن تجيبه باقتضاب شديد (آسفة لا أعرف عنها شيئًا، صديقتي أنانيّة، إذهب إلى آيسلنده وابحث عنها هناك، وآيسلنده خالية من الأشجار لذلك ستعثر عليها في لحظة). لكنّها غيّرت رأيها مع سماع صوته الآتي من القهر. تتعاطف معه من أجلها هي أيضًا. فبذلك تقدّم البراهين على أنّها أحسن حالاً منه. اكتئابها لا يكاد يُذكر إذا قارنته بما يعانيه هو.

وافقت على أن يزورها شرط أن يكون ذلك في المساء، وفي شقّتها وليس نهارًا في مكتبها.

«سأحاول، فأنا بوّاب، وساعات عملي هذا اليوم ستكون في الليل، لكن سأحاول».

عدا عن أنّه يعطّلها عن أشغالها في النهار، فإنّ إيڤون لا تريد أن تظهر أمام موظّفيها بموقف أضعف من موقف زائرها.

لم يُلق عليها التحيّة بل دخل الشقّة اقتحامًا:

«أخت إيڤون، عليك أن تكلّميها الآن، أريد أن أكلّمها الآن».

إيڤون، كالآيفون، تحبّ اسمها الجديد، «تعال نجلس أوّلاً».

تكبس على رقم هدى، وعندما تسمع صوتها تدفع بالآيفون له، ليسمع الصوت المسجَّل يردّد (أرجو ترك رسالة وسأردّ عندما أستطيع، شكرًا).

وإذ أقفل من دون أن يترك رسالة عادت وكبست على الرقم:

«هاي هدهد، إيڤون معك، أين هذي الغيبة؟ الرجاء الاتّصال بي ضروري ضروري». تهرع وهي تحمل الآيفون إلى المطبخ وتصيح: «نسيت الأكل بالفرن»، وتتعمّد ترك الآيفون في المطبخ.

«ماذا تريد أن تشرب؟ شاي مثلي!».

«لا شيء، شكرًا».

«لا بدّ أن تتّصل هدى بعد قليل!».

«إن شاء الله».

يجلس وينقل عينيه من الأرض إليها، إلى أصابعه، إلى أسورة يده ثم إلى الأرض.

«قل لي أخ هشام» ولا تعرف ماذا تريد أن تقول.

«من أين أتيت بهذه الأسورة الجميلة؟».

«لماذا؟».

«لأنّني لم أكن أتصوّر أنّ المتديّنين يلبسون الأساور!».

«لماذا؟ نحن لسنا كبقيّة البشر؟».

«آسفة، لم أقصد..!».

«هل أستطيع رؤيتها؟». مادَّةً يدها لتناول السوار منه.

يزمّ شفتيه حتى يصبح فمه في جهة واحدة. يخبط بكفّه على فخذه، يتململ، يضع يده على الأسورة، وبدلاً من أن يخلعها، ينظر في ساعته من جديد. تسألهُ: «هل صحيح أنّ القصبة في مدينة الجزائر لها أربعمئة واثنتان وسبعون درجة؟».

«لم أعدّها، ولكنّها كثيرة».

بدلاً من أن يكون جيمس هو الذي بجانبها الآن ويطارحها الغرام، عليها أن تتحمَّل صمت هذا الصحراويّ المعذّب.

لن تحاول التعرّف برجل من جديد؛ لن تنضمّ إلى أيٍّ من النوادي؛ ستخرج في عطلة لبضعة أيّام؛ سوف تذهب إلى روما

التي جعلتها تقف على قدميها بعد انهيارها نتيجة ما فعله لوتشو بها. وحتى تؤكّد أنّها تحبّ نفسها سوف تأكل الجيلاتي وتنام ملء عينيها، أو ربّما تذهب لزيارة القصبة في العاصمة الجزائريّة وتصعد وتهبط على درجاتها الأربعمئة واثنتين وسبعين. ستذهب في عيد الميلاد إلى لبنان للتطوّع لمساعدة أطفال اللاجئين من سوريا. من يدري، ربّما تتبنّى طفلاً! وستزور عائلتها في الشمال يومين أو ثلاثة. غريب كيف أنّ أمّها لم تفكّر في زيارتها طيلة هذه السنوات، ولا حتى شقيقتها أو شقيقها! (لا بدّ أنّي أخيفهم).

تتّصل بهدى من جديد.

«هدى، نحن بانتظارك، أرجو الاتّصال حالاً، عليَّ أن أكون في جيبوتي بعد قليل!».

«ماذا تعنين بكلمة جيبوتي» يسأل هشام بحنق وتوجّس شديدين، وكأنّها قتلت له فردًا من عائلته.

«لا تقل لي إنّك نسيت ما هي جيبوتي!».

«لم أنسَ، لهذا أسألك».

«أنا أمازحها بهذه الكلمة التي تظلّ تخطر ببالي طوال الوقت».

«أقسمي بوالديك إنّها ليست كلمة سرٍّ بينكما!».

«وحياة البابا، وحياة مريم العذراء أنّ جيبوتي ليست كلمة سرّ بيني وبين هدى».

«لماذا لم تقسمي بحياة أمّك؟».

«لأنّي أحبّ أبي أكثر من إمّي».

«أقسمي بها أيضًا».

«وحياة إمّي إنّ جيبوتي ليست كلمة السرّ بيني وبين هدى».

وأخذت تضحك وتضحك. إنّه كالأطفال؛ تشعر وكأنّها ما زالت تلعب مع زميلاتها في المدرسة في لبنان (وحياة العذراء، وحياة إمّي وحياة الـ با با).

«إمّي، ما هي كلمة إمّي هذه؟».

تضحك من جديد.

«هكذا نقول في لبنان، وأنتم كيف تلفظونها في الجزائر؟». تضحك وتضحك.

«هل أعطيتني رقمها من فضلك؟».

«طبعًا» تتصنّع عدم المبالاة وتعطيه رقم مستشفى في آيسلنده، كانت قد حضّرته له منذ اليوم الأوّل، لمثل هذا الموقف!

«غريب أنّكَ لم تسألني أن أقسم بحياة مريم العذراء مع أنّكم أنتم المسلمون تؤمنون بها. إنّها المرأة الوحيدة التي ذُكرت في القرآن، أليس كذلك؟».

«كيف تعرفين هذا؟».

«قيل لي هذا في جيبوتي» تضحك طويلاً. «آسفة، آسفة».

«سيّدتنا مريم العذراء حلّت مكان أمّي؛ علّقتُ تمثالها الصغير فوق سريري؛ كنت كلّما أجيء بعلامات سيّئة في مدرستي، أطلب منها السماح، واعدةً إيّاها بأنّني سأجتهد من أجلها فقط. وكلّما كنت أعود إلى البيت بعد موعد مع صبيّ اسمه جميل، كان كلّ شيء بي أحمر اللون: شفتاي ووجنتاي، من كثرة التقبيل. لم أكن أخاف أو أشعر بالخجل من أيّ فرد في العائلة، فقط من تمثال السيّدة مريم العذراء والذي لم يتجاوز طوله عشرين سنتيمترًا. كنت أتخيّل أمّ يسوع المسيح وهي تنظر إليّ بملامح وجهها البريء الحزين الناصع البياض، ووشاح رأسها الأزرق بألوان أمواج البحر، فأهمس لها: (سامحيني يا ستنا مريم؛ إنّك تفهميننني، أنت منبع الحبّ، وأنا أحبّ جميل وأشفق عليه؛ فهو ليس له أمّ)؛ ثم أكذب وأقول: (حين نكبر سوف نتزوّج، وأنت ستكونين شبينة لنا).

«شبينة! هل هذه كلمة عربيّة؟».

«نعم، الشبينة تعني الشاهدة، عندما يتزوّجون يكون للعروس شبينة وللعريس شبين».

تنهض وتأتي بآيفونها من المطبخ، تنظر إلى الشاشة، «لا، لم تتّصل هدى بعد؛ هل تشرب ليموناضة طازجة؟ عصرتُ الليمون قبل قليل، وسأضيف ماء زهر الليمون».

أخذت تردّد بصوت خافت «جميل، يا جميل» وهي تحضّر الليموناضة. تقدّمها إليه وتعود إلى مكانها. تجلس قرب النافذة وكأنّها تطلّ منها على الليل البائس مثلها. تجلس تنتظر إطلالة

جميل؛ تبتسم كأنّها تسمع من يدقّ عليها الباب ويدخل؛ هناك من يريدها ـ إنّه جميل وقد أتى من لبنان. هي قطعًا مجنونة! ولكن ألا يكفي أن نحبّ شيئًا ونفكّر به ونتوهّم أنّه يحدث. آخر مرّة رأت فيها جميل في لبنان، سارع إلى الاختفاء، لم يشأ مواجهتها وهو يحمل السطل وشبكة الصيد قادمًا من البحر؛ جميل كان صيّادًا. لا بدَّ أن قال لنفسه ما إن رآني (كم أنا بائس لأنّي هنا وكم هي سعيدة لأنّها تعيش في بلاد الإنكليز).

«جميل» تقول لهشام «لم يكن يهمّه اكتناز فخذيّ وضخامة مؤخّرتي». أذكر أنّه قرصني مرّة من بطني قائلاً: (ولِك يسلملي هالبطن؛ مش قادر أنتظر حتى تحبلي منّي، لمّا أكبر شوي!) هذا هو الحبّ. الحبّ يجب أن يكون أعمى. الحبّ هو المهمّ وليس شكل الجسد! جمال أمّي وقوامها وهي صبيّة، كان بالنسبة لوالدي (القوّة والسلطان)، هكذا كان يقول.

يتململ هشام، تأخذ يدُه بضرب فخذه، «سأذهب في حال سبيلي».

يلحقه صوتُها إلى الباب:

«هيّا، إذهب، أسرع، لا أريد أن أفسد إيمانك باستماعك إليّ. لماذا يخاف كلّ المتديّنين من سماع ما يحدث في واقع الحياة؟ أذكر أنّي عندما أخبرت الخوري بأنّني أنا وأمّي روسيّة ـ لمعلوماتك، نحن في لبنان نقول روسيّة عندما لا يكون هناك انسجام بين اثنين في العائلة ـ وبأنّني تمنّيت لها الموت، وتمنّيت لو يُصاب أحد شقيقيَّ بساقه أو فخذه ليصبح أعرج، تفاجأ بهذا

الاعتراف وبحضوري إليه فجرًا واللهفة على وجهي، وكنت في الرابعة عشرة من عمري. ولكن هل تعلم بماذا أجابني أبونا الخوري بعد أن فتح لي باب الكنيسة؟ قال لي من دون أن يناقشني (كبّري عقلك يا صغيرة، يا الله ارجعي على بيتكم، ما في أمّ بتكره ولد من أولادها). فقلت له إنّها ضربتني لأنّي أكلت من الفراولة التي جاءت بها خصّيصًا لشقيقي، فغضبت عليها لأنّها تفضّله عليّ. عاد وقال (لا يوجد في كلّ الدنيا أمّ تفضّل ولدًا على آخر. كلّهم خلقوا في رحم واحد يا ابنتي). قلت له (لكنّي متأكّدة أنّها تفضّل الصبيان على البنات). وبدأت أبكي بصوت عالٍ، فأمرني بالعودة (حالاً إلى البيت وبالصلاة صلاة الندامة و٥ أبانا و٥ السلام). ومن دون وعي منّي وجدتني أصيح به وأهدّده بأنّني (لن أجيء إلى الكنيسة ولن أساعده في شيء بعد اليوم!)» وحين رأت أنّ هشام لم يتفاعل مع قصّتها وظلّ يتململ لأنّ هدى لم تتّصل، سألته إيڤون: «هل أقول لك كيف كنت أساعد أبانا الخوري؟». وواصلت سرد روايتها رغم أنّه اكتفى بهزّ رأسه.

«كان قد أوكل لي وظيفة زيارة عائلات فقيرة في بلدتنا من أجل مساعدة الأمّهات في الجمع والطرح بعد العادة الشهريّة خوفًا من أن يحملْن من طريق الخطأ، فيلجأن عندها إلى الكنيسة طالبات مساعدتها كلّما رُزقنَ بطفل. فكلّما حملت أمّ من بين هذه العائلات، كانت تذهب للخوري وتضع اللوم عليّ بأنّني أنا من أخطأتْ في الجمع والطرح. بعد ذلك أخذتُ أسجّل التواريخ وجميع التفاصيل في خانة كلّ اسم. ألا تظنّ أنّه كان على الخوري أن يتّصل بأمّي ويحكي لها عن معاناتي، ويحاول أن يجد

حلًّا لي ولها؟ آسفة، آسفة، أنا ثرثارة لكنّي وحيدة، وحيدة جدًّا، وكأنّ قوانين الطبيعة قرّرت بأنّ على المرأة أن تختار بين شيئين كي تنجح: إمّا الزواج والأمومة، وإمّا العمل؛ وأنا نجحت في العمل!».

تنظر إليه فلربّما واساها بكلمة، لكنّه زاد من هزِّ ساقه.

«وأنتَ، من يا تُرى أحبَّك أكثر: أمّك أم أبوك؟ لا بدّ أنّهما أحبّاك أكثر من شقيقاتك! العرب دائمًا يفضِّلون الذكر على الأنثى، مع أنّ البنت هي التي تبقى قريبة من عائلتها».

«أطلْتُ عليكِ، سأغادر الآن».

«طبعًا ستغادر، هل سمعتَ بالرجل الفقير الحافي القدمين الذي أوقف شخصًا مسرعًا على باب الكنيسة، لكنّ الشخص المسرع في الدخول إلى الكنيسة انزعج منه وقال (إنّك تؤخّرني عن الصلاة، ماذا تريد؟) أجابه الفقير (ألا تحثّك صلاتك على الترفّق بالفقراء والمساكين؟ لكن لا تخف، فأنا لا أريد منك قرشًا أو اثنين، بل أريد منك أن تشعل لي هذه الشمعة، فأنا لا أستطيع الدخول إلى بيت الربّ حافي القدمين رثّ الملابس)».

تنهض إلى الباب، «آسفة لتصرّف هدى! مع السلامة».

لكنّه لم يتزحزح من مكانه، ودُهشت وهي تسمعه ينطق ويسألها:

ط«متى أنتِ جئتِ إلى لندن؟».

«فوق العشرين سنة. عندما كنت في السابعة عشرة من عمري».

«كيف؟ هربتِ من لبنان؟».

«لا، لم أهرب».

«سمحت لك عائلتك بالسفر؟».

«نعم».

«إذن أمّك تحبّك، وإلّا لمنعتكِ من السفر!».

«لقد سمحت لي، ربّما لأبتعد عن وجهها، وربّما لتتقرَّب من عائلة السياسي اللبناني التي سافرتُ معها كمربّية لطفلتهم، بينما تشبّثتْ بشقيقيّ اللذين ما زالا يعيشان قربها. وشقيقتي تزوّجت وتركت البيت ثم طلّقت. تعرف! أنا محظوظة لأنّها لم تحبّني وتركتني أسافر. طيّب وأنتَ، متى وكيف جئت للندن؟».

«تركت الجزائر إلى فرنسا وعمري ١٧ سنة لكنّي كرهتها وأتيت إلى هنا. الفرنسيّون يكرهون الجزائريين وينظرون باحتقار للمسلمين».

«إذن اتّجهت إلى الدين، هنا!».

«أمّي كانت مؤمنة، ملتزمة بالدين ولم تنقطع عن الصلاة والصوم عكس والدي. ولكنّه أصبح بفضلي أنا مؤذِّنًا في مسجد بلدتنا؛ أنا الذي زرع فيه بذرة الدين قبل سنوات قليلة».

«أحبّ ذلك». تضحك ـ «أعجبني أنّك أنتَ الذي أثَّرتَ على

والدك بدلاً من أن يؤثّر هو عليك. هذا أفضل بكثير، يبدو أنّه يثق بك لذلك سمع كلامك وأطاعك».

«أطاعني؟ ربّما خجلاً ومن تأنيب الضمير، فهو عندما علم بأنّ والدتي مصابة بسرطان البلعوم، راح وتزوّج امرأة ثانية وأسكنها في الطابق العلوي وأنجب منها ذكورًا وإناثًا. وما إن توفيت أمّي بعد سنتين حتى تركتُ الجزائر بعد دفنها مباشرة؛ لم أعدْ أطيق العيش في البيت، فكلّ شيء يذكّرني بها. وفي باريس ولندن نسيت الدين لأعود إليه كعودتي إلى أمّي، فأنا كلّما تذكّرتها واشتقت لها هنا في لندن، أقوم وأصلّي كما كانت تصلّي، وأردّد الكلمات والابتهالات التي كانت تردّدها، فأشعر وكأنّها بقربي، كأنّها ما زالت حيَّة. وأنا أنصحكِ بالذهاب إلى الكنيسة لأنّ الدين وليس الوطن هو هويَّةُ الإنسان. المؤمن لا يعوزه وطن أو مهجر».

ما زلت أذكر جملة قالتها هدى في المهرجان الذي التقينا به في لبنان حين سئلت: (إن كانت تعتبر آيسلنده وطنًا ثانيًا لها كلبنان؟ وأين تفضّل العيش؟ لتجيب بتلك الجملة الرائعة: (ما من بلدٍ أحقّ بك من بلد)، ليكمل هشام (خير البلاد ما حملك!). طبعًا ستقول هذا، فهذه منسوبة إلى الخليفة الرابع عليّ بن أبي طالب؛ يكاد الشيعة يعبدونه!

تعرض عليه من جديد: «أنا جوعانة، هل نأكل شيئًا؟».

«لست جائعًا».

«سآتي لك بليموناضة، عملتها قبل أن تأتي.. أوه، لقد

نسيت أنّي قلت لك هذا من قبل.

تسرع إلى المطبخ، تصبّ لنفسها المزيد من الفودكا والبرتقال وتجرع منها عدّة جرعات وتعود له بالليموناضة وباللبنة والصعتر وجبنة الحلّوم والبندورة والخيار.

«أرجوك أن تتذكّر دائمًا أنّ الأنبياء أشخاص مثلنا».

«الأنبياء مُرسلون من الله، لكن لا أفهم ما مناسبة هذا الكلام؟».

«مُرسلو الله أشخاص في غاية الذكاء والفطنة، فهم قد ساقوا البشر إلى حظيرة الإيمان والدين بدلاً من التأرجح والعيش في تيهِ هذه الدنيا الواسعة».

«مرّة ثانية، لا أفهم لماذا تقولين لي هذا؟».

تستغرب نشاط ذهنها فجأة، فتسرع إلى الطاولة لتأتي برسم أنجزته ليلة البارحة، وتضعه أمامه!

«قل لي ماذا ترى؟».

ينظر هشام إلى الورقة ولا يعلّق، إنّما يلوي شفتيه ثم ينظر إليها ولسان حاله يقول (ماذا دهاكِ يا مجنونة!).

«هذه نملة وهذا صرصار!» تقول له.

«أعرف أنّهما نملة وصرصار، ولكن لا أفهم لماذا هما مهمّان!».

«مهمّان، لأنّ هذه النملة تصطاد الصرصار وهو حيّ. تجرّه

إلى مسكنها لتبيض بيضها فوقه، فتتغذّى اليرقة على أحشاء الصرصار الحيّ حتى لا يتبقّى منه سوى قشرته!».

يحملق هشام فيها والعقدة بين حاجبيه تزداد عمقًا، تصبح كالأخدود من شدَّة تجهّمه وعبوسه.

«ألا تصدّقني؟».

«لا أعرف ما الذي تريدين التوصّل إليه؟ وهذا الصرصار مقرف جدًّا!».

«المهمّ الآن هو ماذا تستنتج أو تتعلّم من هذا الرسم! ألم تفكّر مثلاً كيف تتغلّب النملة الصغيرة على صرصارٍ أكبر منها وأقوى!».

«سبحان من خلقها ومن علّمها ومنحها القوَّة؛ طبعًا أرى هذه المعجزة الإلٰهيّة، لكن ما لا أفهمه هو لماذا اخترتِ هذه المعجزة بالذات بينما هناك معجزات أشدّ غرابة ووضعها الله في حشرات ومخلوقات أجمل من هذا الصرصار المقرف! أستغفر الله، أسحب كلامي فكلّها مخلوقات الله وكلّ منها له فائدة في الحياة».

«الصحيح أنّني اخترت النملة والصرصار كي أقول للشباب أن يقاوم المخدّرات، وأن لا يجرّبوا تعاطيها حتى لو كان ما يجرّبونه بمقدار نملة، لأنّ المخدّرات ستتغلّب عليهم كما تغلّبت هذه النملة على الصرصار».

«هل تعاطيْتِ المخدّرات؟!».

«أنا، طبعًا!» وتسرع لتهدئة علامات الذعر التي اعتلت وجهه:

«طبعًا لأ! وهذا الملصق سيعلّق في المدارس وفي أماكن كثيرة وفي القطارات».

تضبطه وهو ينظر إلى ساعته من جديد.

«آسفة، أطلت عليك في الكلام، هل أحاول الاتّصال بها؟».

«لا، لا».

«وأنا أيضًا قلت لنفسي، لا لا، عندما فكّرت بالاتّصال بالذي أحبّه. لا بدّ أنّني خطرت على باله أكثر من مرّة، لكنّه كما يبدو، لم يأبه بالاتّصال بي، من الممكن أنّه وجد امرأة أخرى نالت إعجابه فانشدَّ إليها. أنا لا أريد مجرّد علاقة جنسيّة، والرجال معظمهم يريدون ذلك، آسفة، أعتقد أنّ هذا هو ما يدور في أذهانهم حين يلتقون بأنثى للوهلة الأولى؛ أوّل ما يفكّرون به هو الجنس حتى قبل أن يتحدّثوا إلى المرأة. يضعونها في ميزان شهوتهم رأسًا، فإمّا أن ترجّح الكفّة أو تعلو! وهذه غريزة حيوانيّة محض. كي تستمرّ الحياة. آه، أنا لا أقصدك أنت، صدّقني!».

«أفضل لك أن تصلّي كلّ ليلة، وأن تذهبي إلى الكنيسة».

«لماذا؟ ألا يكفي بأنّي أؤمن بأنّ الربّ خلق الإنسان والكوْن! وأنا لا أؤمن بأنّ المسيح هو ابن الله وأنّه المخلِّص. لا أؤمن بالأب والإبن والروح القُدس. لكنّك لم تقل لي إن كنت تشتاق لهدى، أم أنّ الغضب...».

يقاطعها بشيء من الاستهجان:

«ما لكِ تقفزين من موضوع لموضوع!؟».

تنهض تفتح الخزانة وتعود بظرف فيه صورها مع هدى في إيطاليا. وصور لها مع لوتشو. يستعرض الصورة الأولى بسرعة: هي وهدى بالمايوه البكيني. يضعها على الطاولة مقلوبة. تتذكّر إيڤون اليوم الذي أُخذت به الصور. يومها سألتُ هدى (كيف يمكن أن أصبح مثلك رقيقة)، لتجيبها هدى (لا أستطيع أن أعلّمك، كما أنّك لا تستطيعين تعليمي كيف أكون جريئة وجذّابة مثلك).

«هل تظنّ أنّ أمّك لو أنّها ما زالت حيّة، كانت ستحبّ هدى، أم تفضّلني عليها لأنّني شقراء ولأنّ عينيّ خضراويْن!؟».

لم يعلّق، بل وضع كفَّه على فمه مخفيًا ابتسامة.

«أسئلتكِ غريبة كثيرًا ومحرجة أيضًا».

تفلت منه ضحكة.

«لماذا تضحك؟».

«لا، لا شيء».

«هل تضحك عليّ!».

«أضحك لأنّي سمعت أمّي مرّة تقول إنّه (حتى العنزة تبدو صبيّةً جميلة على ضوء الشموع!)».

«الحمد لله أنّنا لسنا على ضوء الشموع. الآن سؤال جدّي،

كيف تزوّجت هدى سرًّا، هل قرأتما من القرآن وهذا كلّ شيء؟».

«لماذا تريدين أن تعرفي؟».

«أنا فضوليّة، هذا طبعي، إلّا إذا كان سرًّا لا تريد الكشف عنه!».

«نتبادل الجملة هذه (زوجتك نفسي أمام الله ورسوله)».

تضحك وتضحك وتضحك.

«لقد تزوّجتني الآن إذن!».

«لا لم أتزوّجك، لأنّني أنا قلتها ولم تتوافر النيّة لفعل ذلك».

«سؤال أخير، ووعد منّي بأنّه سيكون الأخير: عندما سألتك لماذا تريد تسجيل زواجك بهدى في المسجد، أجبتني (لأنّه حدث شيءٌ بيننا)، هل قصدتَ الحبّ؟».

«عليّ الذهاب الآن؛ السلام عليكم».

«ماذا تريدني أن أقول لهدى إذا اتّصلت؟».

«لا شيء، السلام عليكم».

وما إن تراه من خلال ناظور الباب يهبط على الدرج حتى سارعت إلى الآيفون:

«هدى، عليكِ الأمان. لقد نجحت بدهائي العظيم أن أبيع الصحراوي بيضًا من غير صفار! لقد كنتُ أمهر ممثّلة، اطمأنّي تمامًا، حبيبتي، أنا متأكّدة الآن بأنّه لن يستطيع أن يفعل لكِ

شيئًا. إنسي الموضوع وركِّزي على التعرّف بأحدٍ يليق بك، وأنا سأفعل ذلك! فأنا كما يقول المثل (يموت الزمّار وإصبعه يلعب)».

سرعان ما فارقتها تلك الحيويّة في اللحظة التي سمعت فيها رسالتها تطير إلى كندا، فأخذ قفير من النحل يضجّ في رأسها حينًا وفي صدرها حينًا وفيهما معًا حينًا ثالثًا. (جيمس، جيمس) ستقود نفسها إلى تلك الكنيسة حيث رأت نفسها زوجةً لجيمس؛ ستقرع الباب وتطلب ممّن سيفتح لها الباب أن يسمح لها بالدخول إلى الباحة إيّاها، إلى خيمة السلام نفسها، إلى القاعة إيّاها، حتى لو أنّها تقبع مهجورة تحت صمت رهيب، ميتة، مقفرةً. تعود فقط لتدفن ذكريات اللقاء مع جيمس وإلى الأبد!

تثب بهمَّة المجانين نحو مفاتيح سيّارتها، ثم، وهي تتناول شالاً لتلفّ نفسها به، تسمع من يدقّ على الباب. تسرع إلى الباب، تتحقّق من هويّة الطارق من خلال الناظور. إنّه هشام. (لن أفتح له. لا بدّ أنّه حاول الاتّصال بهدى في آيسلنده، وعاد ليعاتبها لأنّها لم تعطه الرقم الصحيح. أم أنّه نسي شيئًا يا تُرى!).

تفتح له الباب بعد أن يدقّ أكثر من مرّة دقّاتٍ أعلى صوتًا. تبتسم، تتحدّى ارتباكها وتحضِّر جوابًا إذا هو بدأ بالعتاب.

«آسف على الإزعاج، أردتُ أن أتحدّث معك».

«بسيطة، ولا يهمّك».

«الصحيح أنّي منذ خرجت وأنا أفكِّر بكِ، أعني بالنسبة

لعلاقتك ومشاعرك تجاه أمّك. وأحببت أن أشير عليك بأن تتصالحي معها ولا تحملي في نفسك أيّ ضغينة لها، (فالجنّة تحت أقدام الأمّهات، وأوسط أبواب الجنّة لبارّ الوالديْن)».

«معك حقّ، يمكن أن أفكّر بالسفر إلى لبنان في القريب العاجل».

تُدهَش حين تراه يفكّ سوار معصمه ويمدّه لها. تتناوله منه.

«لماذا نحن على الباب، تفضّل أرجوك، تفضّل، إنّه فعلاً سوارٌ ثقيل».

«كان خلخالاً لأمّي تضعه حول قدمها».

«ما أجمله، لا بدَّ أنّ أمّك كانت نحيلة».

«نحيلة وطويلة، رحمة الله عليها».

تراه يتمتم، فتلتزم الصمت. ربّما إنّه يقرأ الفاتحة على روح أمّه. وما إن انتهى حتى مدّت بالخلخال إليه فأطبق بيده عليه وعلى يدها، وعانقها فجأة عناقًا طويلاً، وكأنّه أخيرًا التقى بأعزّ إنسانٍ عليه. أغمضت عينيها سعيدةً بهذا الدفء الذي لم يكن لا على البال ولا على الخاطر. ساقان طويلتان، أسنان بيضاء جميلة، أغلب الظنّ أنّه لا يأكل الحلوى، وقطعًا لا يشرب نبيذًا لا أحمر ولا أبيض. تشعر بعضوه حين وصلت برأسها إلى ما فوق خصره بقليل، تتململ، تريد الانسحاب، لا تريد الزواج منه إذ يكفي ما حصل لهدى. عناقه لها هو الفخّ، تدرك ذلك ولا تريد الوقوع فيه. تشعر بعضوه من جديد ينتفض عليها كلّها، تبقى

صامتة ساكنةً في حضنه الأسمر. إنّها إيڤون التي كانت تفاجئ الرجال باتّخاذ الخطوة الأولى. ها هي تنتظر لحظة الهرب والزوغان منه حين تسمعه يردّد أمامها: (زوّجتك نفسي أمام الله ورسوله). ويطلب منها ترديد ما يقوله، سوف تتحجّج بأنّها (لا تعرف القواعد العربيّة، وأنّها ستخطئ في التشكيل وتنصب المرفوع وترفع المنصوب)؛ وإذا أجابها بأنّ (هذا ليس مهمًّا)، سوف تسأله (إن كان الله يعرف قواعد اللغة العربيّة جيّدًا) وعندئذ سيجنّ جنونه ويغيّر رأيه ويتراجع عن مضاجعتها، أم الأفضل أن تقول له بصراحة تامّة: (لا، أنا لست مسلمة ولا أؤمن بأنّ علينا أن نردّد هذا التعهّد قبل مطارحتنا الغرام). أو (على كلٍّ أنا عندي العادة الشهريّة، آسفة) أو (أنتَ لا تروق لي). أو (أنا مخطوبة) أو (أنا متزوّجة من زوج هدى صديقتي خفيةً عنها!!).

لكنّها تسمع فيه يلهث رغبة بدلاً من أن ينبث بكلمة من تلك الجملة إيّاها، هو النملة وهي الصرصار. هو يحاول شلّ حركتها، ليمتصّ الغذاء من أحشائها. بينما جسده يشلّ وظيفة دماغها:

«آسفة، لحظة، علق شرش في ساقي».

يستأنفان.. وتوقفه من جديد لتخلع تنّورتها، ولتتأكّد بأنّها لم تفقد حاسّة السمع، وأنّه فعلاً لم يردّد أمامها تلك العبارة ثم تسأله:

«هل قلتَ شيئًا؟ أم أنّك فقط تتنهّد؟».

ربّما إنّه ليس كأيّ رجل آخر ضاجعته من قبل. نتيجة شهوتها له، أم بدافع حبّها له، أم رغبة في إيقاعه في شركها؟ ربّما لأنّ ما

حصل كان نتيجة صدفة لقاء غيمتيْن أحدثتا البرق، أحدثتا الرعد. ثم لتكمل كلّ منهما طريقها. لم تخف. لم تُعلِّق بشيء. لم تسأل نفسها سؤالاً أو سؤالين، بل مضت تنتشي وتنتشي مرّة بعد الأخرى، ثم تغمض عينيها وكأنّها أخذت دواءً جعلها تشعر بالارتياح بعد أن أبعد عنها الألم ليأخذه سلطان النوم إلى مملكته لوقت قصير. وكان هو البادئ في التململ؛ ينظر في ساعته بينما هي تدخل في دوّامة التفكير! (تُرى هل يظنّ الآن أنّه بمضاجعتي وصل إلى هدى؟!).

«أوه، نسيتَ أن تزوّجني نفسك وأزوّجك نفسي!».

وحين لم يجبها، قالت له:

«الآن فهمت. الزواج السرّي يحدث بين المسلم والمسلمة فقط».

وعندما لم يردّ عليها بل مضى يشدّها إليه، كرّرت السؤال، فقال:

«الله أرسلني إليكِ، سأكسب ثوابًا وأجرًا عظيمًا».

«لم أفهم، تريد منّي أن أدفع لك أجرًا...؟».

ترى ابتسامته للمرّة الثانية هذا المساء.

«أعوذ بالله، أجرًا عظيمًا أي ثوابًا كبيرًا، جزاءً من ربّي؛ أقصد أنّ الله سيرضى عنّي، فعلتُ خيرًا معكِ، فأنتِ قد عانقتِ الإسلام ولو للحظات قصيرة».

تجيبه بقبلة على شفتيه الخجلتين، تحاول أن تنقل إليهما ولو القليل من دفء حرارة جسمه قبل أن تحيده عنها فجأة:

«يا إلٰهي، علق شرش في ساقي».

تجلس على الكرسيّ وتمسك بساقها المصابة، تدلكها بيدها، وهي تتأوّه من شدة ألمها، وفمها يتلوّى غنجًا ودلالاً، ثم لتتمالك نفسها شيئًا فشيئًا وتهمس: «أوف: عقدة الشرش مش سهلة! شعرت بأنّ روحي طلعت!».

تنهض إلى الحمّام «لحظة، سأغسل وجهي»، تقول له من غير أن تنظر إليه. وبينما حنفيّة المغسلة تكرّ بالماء، تأتي بعلبة فراولة العذريّة من الخزانة الصغيرة، وتدفش الفراولة في مهبلها، تُعيد العلبة الفارغة إلى الخزانة، توصدها بالمفتاح ثم تخفيه في قعر قبّعة برنس الحمّام، تمسح وجنتيها بالماء، تخرج إليه وهي تجفّف وجهها بمنشفة صغيرة، ثم تمسك بيده وتدخله إلى فخّ بيتها الزهري اللون كانت الستائر عبارة عن خيوط حريريّة تدلّت حتى لامست الأرض. الرسوم فوق الجدران رسمتها وكأنّها خصلات من شعر متموّج لا بداية له ولا نهاية، الأضواء خافتة. على طاولة زينتها التي كانت من المرايا، والورود الزجاجيّة الملوّنة «تقويم طيّارة». اشترته من إدجور رود، وتمثال صغير لمريم العذراء إيّاه، الذي لم يفارقها منذ الصغر أوقفته على طرف المرآة، حتى تراه كلّما أطلّ الصباح، وكلّما أغمضت عينيها قبل أن تخلد إلى النوم. عندما لم تتلقَّ غرفة نومها هذه ولو نظرة عابرة من هشام جزمت بأنّه كرجال عائلتها، إذ كلّ من يدخل غرفتها

هذه كان يعلّق على غرابتها وخصوصيّتها.

يعودا من جديد، هي إلى جسمه الأسمر الدافئ وهو إلى رغبته بها، لكنّها تستمهله حتى تخلع تنّورتها وبلوزتها، ثم تسبقه إلى سريرها. عندما يهبط فوقها، تهمس له حتى يخلع بنطلونه، فيلبّي طلبها بهياج كاد أن يفقده توازنه.

كلّها استعدادٌ لفعل الحب، لا جيمس، لا غزل، لا انجذاب، ولا خلجات حبّ. لا تزال تذكر وهي في طريق عودتها من العرس وحيدة من غير جيمس، كيف تركت المنطق يشرح لحزنها الشديد، أنّ ما يشعر به هو الجوع للمضاجعة، وجسمها يعاني من الحرمان كما تعاني معدتها من الجوع للطعام ومريئها العطش والتوق للماء.

كلّها استعدادٌ لفعل الحبّ من غير تحسّب أو قلق، أو رغبة في إيقاع الرجل في شركها. من غير خوف من أنّها ستروق له أم لا. وإذا كانت هذه الليلة ستتكرّر أم لا، لا أحلام ولا تخيّلات. شدّته إليه، وأغمضت عينيها وكأنّها تحت تأثير دواء مدّها بالراحة والطمأنينة، بأنّ الذي يحصل بينهما هو نتيجة صدفة لقاء غيمتين أحدثتا البرق، أحدثتا الرعد، ثم لتكمل كلّ منهما طريقها.

راحت إيڤون تنتشي، وما إن سحب نفسه منها أخيرًا وتهالك فوق بطنها، حتى صاحت صيحة مدوّية، وبدلاً من أن يعلّق على هذه الصيحة، استجاب على الفور لسلطان النوم، فأخذه إلى مملكته لثوانٍ، لتحزر من الابتسامة المرتسمة على شفتيه أنّه فسّر صرختها هذه على أنّها صيحة اللذة العظيمة.

«هشام، كاد يُغمى عليّ من شدّة الألم».

ينتفض من نومه وكأنّها أيقظته من سباتٍ عميق، «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، ماذا جرى لي، فأنا حتى لم أغتسل وأتوضّأ وأصلّي»، ثم لتندّ عنه صرخة وهو يرى الدماء فوق عضوه «لا لا، أعوذ بالله، أستغفر الله» يتفرّس من جديد، وكأنّه يسأل عضوه مستنكرًا عمّا جرى، ثم يدفع إيڤون التي كانت مستلقية إلى نهاية الفراش، وما إن رأى بقعة الدماء حتى ردّد وكأنّه يهذي «يا الله، ماذا حدث، ماذا يحدث؟».

«هذا يفسّر الألم الذي داهمني وأنت..» وأخذت تحسب وتعدّ على أصابعها «المفروض أنّ عادتي الشهريّة لن تبدأ قبل أسبوع». ثم لتخرّ صريعة الذعر، «يا الله، يا الله، أوعى يكون معي سرطان أو شي مرض!».

ثم أوقفت نفسها عن التهالك ضاحكة، وهي تتذكّر ما قاله الأستاذ في ساعة درس «الصحّة» (بأنّ قطرة دم واحدة، نعم قطرة دم واحدة تقطع يوميًّا ما يقارب الألف كيلومتر داخل جسم الإنسان)، وها هي إيڤون تود أن تضيف «لا بدّ من أنّ بقعة الدماء هذه قطعت ملايين من الكيلومترات واستوت على فراشي».

يخبط هشام قبضة يده على الجدار، يهزّ رأسه بعنف كأنّه يريد أن يتخلّص منه، يبلع شفتيه داخل فمه ثم ليتمالك أو يحاول تمالك نفسه، إذ قال فجأة بكلّ ثقة، وكأن لا علاقة له بالشخص الذي كان يخبط الجدران ويحاول خلع رأسه عن جسده قبل قليل:

«عليّ الإسراع إلى عملي، هل نلتقي في الغد؟».

«لِمَ لا!»

«إلى الغد إذن، إلى الغد، على كلٍّ سأتّصل بك».

تنتظر إلى أن تسمع المصعد يهبط به قبل أن تدخل غرفة نومها من جديد، تسحب الشرشف من على السرير. تغمز تمثال مريم العذراء «إلى الغد إذن، فعذراء لندنستان في انتظارك!».

انتهى

تصميم الغلاف نجاح طاهر

بعد مضيّ عام على لقاء هدى وإيفون في البحر المتوسّط، حيث هاجت ذكرياتهما المريرة كصخب الموج، تعودان وتلتقيان هذه المرّة في لندن حيث تُقيم إيفون. وعندما توغّلتا صدفة في قلب "السبيكرز كورنر"، "هايد بارك"، تصادمتا مع الشابّ العربي هشام، لينتج من هذا العراك، مغامرة مثيرة، خطيرة، تعكس الغرابة التي اجتاحت مؤخّرًا المجتمع العربي هنا وهناك.

تتابع حنان الشيخ في روايتها "عذارى لندنستان" مسيرتها الروائيّة الجريئة والمميّزة كنحلة طليقة لا تتوقّف عن الحوم إلى أن تصل إلى الرحيق.

ISBN: 978-9953-89-466-9
9789953894669

دار الآداب
هاتف: ٨٦١٦٣٣/ ٠١
٧٩٥١٣٥/ ٠١
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت